٤٤٤
٢٠١٥/١/٢٩

قصائد لا تموت

مختارات ودراسات

محمد إبراهيم أبو سنّة

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة

د. حسن أبو طالب

سلسلة كتب ثقافية

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

اسم الكتاب: قصائد لا تموت

المؤلف: محمد إبراهيم أبو سنة

رقم الإيداع: ٤٢١٩ / ٢٠١٤

تدمك: ٨ - ٧٩٦١ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨

مقاس الكتاب: ١٧ × ٢٤ سم

عدد الصفحات: ١٥٦ صفحة

القاهرة: الطبعة الأولى ٢٠١٥م

١٦٠ / ٢٠١٣ / ١

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

مدخل

ما هو الشعر؟ سؤال من الأفضل أن يظل بلا إجابة حتى لا نجازف باقتراح تعريف يحاول أن يقيس الأفق وأن يحلل زرقة البحر وأن يصف صوت العصافير فى الربيع وخفقات القلب فى حضرة المحبوب وحرقة الأكباد عند فراق الأحباب. من الأفضل بدلا من تعريف السباحة أن نسبح معا فى المياه الدافئة المعطرة التى تتدفق من سماء المتنبى وأبى تمام وأبى العلاء المعرى وقيس بن الملوح وسواهم. إن هذه المختارات التى أقدمها للقارئ هى فى المقام الأول نوع من التعاطف مع القارئ فى الاقتراب من منابع تراثنا الشعرى من خلال أعذب نماذجه وأصدقها فى الوقت نفسه لقد خاض الدكتور طه حسين فى كتابه حديث الأربعاء جدلا مع رفيق متوهّم حول جدوى الشعر القديم، وأظنه كان يتوجه بحديثه هذا إلى عامة القراء الذين لا يسيغون لغة غير لغة عصرهم لسبب بسيط هو أن خاصة المثقفين والأدباء يقرون بجمال هذا الشعر القديم من أعماق وجدانهم. قال عميد الأدب العربى:

«إنما أمر الأدب القديم عندى أشبه بحديقة طال عليها الزمن وأهملت إهمالا متصلا ولم تنقطع عنها بعد ذلك مادة الحياة فمضت أشجارها وشجيراتها تنمو فى غير نظام هذا النمو المهمل المضطرب حتى اختلط أمرها اختلاطا شديدا، وحتى أصبح من العسير عليك وعلى أمثالك أن تجدوا فيه سبيلا إلى ما تحبون من النزهة والراحة إلى جمال الزهر والشجر فأنتم قد ألفتم الحدائق التى يتعهدها البستانى إذا أصبح ويتعهدها إذا أمسى وينسقها لكم تنسيقا».

وقد كان الدكتور طه حسين رائد الدعوة إلى التريض بين حدائق الشعر القديم ونحن نتبعه فى هذه الدعوة التى تقترب بنا من مصادر وجودنا الأدبى ولكننا لا نذهب إلى تراثنا لنتريض فقط بل لنحصل على غذائنا الضرورى للبقاء عربا فى العالم اكتسح القوميات والأجناس وصبغ الأدب فى العالم كله بصبغة الحضارة الأوربية. إن التوغل فى الماضى والنظر بثبات إلى الأمام البعيد هو وسيلتنا لجعل ذاتيتنا فعالة وإيجابية. وربما يبدو اختيارى لهذه النصوص الرائعة غير منهجى من الناحية الأدبية أو من الناحية التاريخية. ولكن ما جدوى المنهج ما دامت الحديقة كلها عامرة بالثمار الطيبة. ولقد وقفت أمام آثارنا متعاطفا معجبا شديد التحيز لها دون أن أفتعل منظارا عصريا للنظر إليها.

ولا شك أن هذه المختارات وسير شعرائها إنما توجد فى معظم كتب المختارات وربما قدمت من قبل إلى القارئ بطريق أو بأخرى ولكن قراءتى لهذه الآثار تأخذ مذاقها الخاص من تجربتى المتواضعة فى الفهم والعرض والتحليل وهى تجربة تنبع من الحب والقلب أكثر مما تنبع من الدراسة الأكاديمية العسيرة. ولقد أنعش روحى وأيقظ وجدانى هذا التجوال فى عصور هؤلاء الشعراء ولا أعرف وقع هذه الرحلة أيها القارئ عليك. فقد تخرج من الهجير إلى الصقيع من جمال الربيع إلى ذبول الشتاء وقد تلفحك أنفاس العشاق الذين اكتوت قلوبهم بالهجر والفراق. وقد تجد ذلك ممتعا أو شاقا أو عاديا ولكن هذا حصاد رحلتى وهو حصاد يقدم لآلئ نادرة من خلال الربط بينها وبين أصحابها الذين كابدوا الحياة قبل أن يكابدوا الإبداع ومنهم من كانت حياته ذاتها عملا مأساويا لا تستوعبه القصائد الصغيرة المفردة وإنما قد تلمس حقيقته أعمال درامية كبرى مثل حياة الطغرائى التى كانت نموذجا طاغيا لقسوة الطموح وبطشه. طموح أفقد النفس مذاق الحياة الإنسانية بطيباتها المتاحة وأوقعه فى الخوف الدائم والحذر الطائش والإصرار الجنونى على رغبة كان فيها هلاكه. حتى جاءت قصيدته لامية العجم تحمل أقسى وصف للعصر الذى عاش فيه وتنطوى على سوء الظن بالبشر أجمعين أصدقاء وأعداء. الأقارب والأباعد على السواء حتى ليقول:

أعـدى عـدوك من وثقـت بـــه فحاذر الناس واصحبهم على دخـل
وإنمـا رجـل الدنيـا وواحدهـــا من لا يعوّل فى الدنيا علـى رجـل

إن هذه الرؤية الفكرية التى تنبع من معاناة الذات الأليمة من الآخرين ولا تعترف بدورها هى فى خلق هذه المعاناة هى رؤية قريبة من رؤية أبى الطيب المتنبى الذى كان طموحا إلى أقصى حدود الطموح ونال أقسى مصير على طموحه هذا وموقفه المتشكك والمتعالى من المجتمع الذى عاش فيه. وإن كان المتنبى يفترق عن الطغرائى فى أنه كان صعبا ولم يصل أبدا إلى هدفه بينما الطغرائى وصل إلى سدة الوزارة التى عاش حياته كلها يحلم بها. إن مأساوية حياة ونهاية هذين الشاعرين تتجلى فى هذه المختارات بصورة واضحة بين القصائد الأخرى التى تنطوى تحت دموع الرثاء أو تأوهات العشاق. ولقد أتيح لى أيضا أن أجلو وجه هذه القصيدة الجميلة لكعب بن سعد الغنوى. هذه القصيدة التى تسفر عن صفات الفارس العربى النبيل فى سلوكه اليومى ومقصده من الحياة وتجاوزه

لتفاهات المغانم الصغيرة. وليس بغريب أن يكون الشعر بعد ذلك ديوان العرب فهو ليس مفخرتهم اللسانية فحسب ولكنه بحر الوجود العربى المترامى الشواطىء؛ حيث نعثر فيه على مخاوف هذا الوجود وتطلعاته ومغامراته وأشواقه ولا نهائيته وانعتاقه وعبوديته أيضا. وإذا كان لى أن أقدم هذه القراءات الشعرية مشفوعة برؤية تحليلية للعناصر الشعرية وللسيرة الذاتية لبعض الشعراء فإن هدفى هو تأكيد الدعوة التى دعا إليها عميد الأدب العربى من ناحية وتأكيد انتسابنا القوى إلى تراثنا وإعجابنا به ومحاولة جعله يمارس وجوده حيا بين حياتنا الراهنة دون أن يعنى هذا أن الحاضر يسلم الزمام للماضى ولا أن يشير إلى أن الفردوس قابع فى العصور الأولى. وإذا أتيح لى أن أكسب تعاطف القراء مع هذه المحاولة وأحملهم على الرحيل معى إلى عوالم هؤلاء الشعراء فقد ظفرت بما يفوق البغية من وراء تقديم هذا الكتاب.

محمد إبراهيم أبو سنة

واحر قلباه

لأبى الطيب المتنبى

واحـر قلبـاه ممن قلبـه شَـبِمُ ... ومن بجسمـى وحـالى عنده سَقَمُ
مالـى أكتِّم حبـا قد بَرَى جسـدى ... وتدعى حبَّ سيـف الـدولة الأمـمُ
إن كـان يجمعنـا حـبٌ لـغرته ... فلـيت أنَّا بـقدر الـحب نقتسـمُ
قد زرته وسـيوفُ الـهند مغمدة ... وقـد نظـرت إليـه والسـيوف دمُ
فكـان أحسـن خلـق الله كـلهم ... وكان أحسن ما فى الأحـسن الشيمُ
فوت الـعدو الـذى يمَّمته ظـفر ... فى طيه أسـفٌ فـى طـيه نِـعَمُ
قد ناب عنك شديدُ الخوف واصطنعت ... لـك المهابة ما لا تصنع البُهَمُ
ألزمت نفسك شيئا لـيس يلزمهـا ... أن لا يـواريهـم أرضٌ ولا عَلَـمُ
أكلما رُمتَ جيشا فانثنى هربـا ... تصـرفتْ بك فى آثـاره الـهممُ
علـيك هَزْمُـهمُ فى كل معـترك ... ومـا عليك بهم عـار إذا انهزموا
أمـا ترى ظفرا حـلوا سوى ظفر ... تصـافحت فيه بيضُ الـهند واللمَمُ
يا أعدل النـاس إلا فـى معـاملتى ... فيك الخصـام وأنت الخَصْم والحَكم
أعيذهـا نظـرات منك صـادقةً ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخـى الدنيـا بنـاظره ... إذا استوت عـنده الأنـوار والظلـمُ
سيعلم الـجمعُ ممن ضـم مجلسُنـا ... بأننـى خير من تسعـى به قـدمُ
أنا الـذى نظر الأعمـى إلى أدبـى ... وأسـمعت كلمـاتى من به صَـممُ
أنام ملء جفونـى عن شواردهـا ... ويسهر الخلقُ جَرَّاهـا ويختصـموا
وجـاهل مده فى جهـله ضحـكى ... حتـى أتتـه يدُ فراسـة وفـمُ
إذا رأيـت نيـوب اللـيث بـارزةً ... فلا تظـنن أن اللـيث يبتـسمُ
ومهجة مهجتـى من همّ صاحبهـا ... أدركتهـا بجـواد ظهـره حَـرَمُ
رجلاه فى الركض رجل واليدان يدٌ ... وفعلـه مـا تريد الـكف والـقدم
ومرهف سرت بين الجحـفلين بـه ... حتـى ضربْت ومـوجُ البحر يَلتطِمُ

الخيل والليـــل والبيـــداء تعرفنـــى ... والســـيف والرمح والقرطاس والقَلم
صحبْت فى الفلوات الوحش منفردا ... حتـــى تعجبَ منـــى القور والأكَمُ
يـــا من يَعِزُّ علينـــا أن نفـــارقهم ... وجـــداننا كـــلَّ شـــىء بعـــدكم عَدَمُ
ما كـــان أخلقنـــا منكـــم بتكرمـــة ... لـــو أن أمـــركـــم من أمرنـــا أممُ
إن كـــان ســـرّكُمُ مـــا قال حاسدنـــا ... فمـــا لـــجرح إذا أرضـــاكمُ ألَـــمُ
وبيننـــا لـــو رعيتـــم ذاك معـــرفةٌ ... إن المعـــارف فـــى أهل النهـــى ذِمَمُ
كم تطلبـــون لنـــا عيبـــا فيعجزكم ... ويكـــره الله مـــا تأتـــون والكَـــرَمُ
ما أبعد العيبَ والنقصانَ من شـــرفى ... أنا الثريـــا وذان الشـــيبُ والـــهرمُ
ليت الغمامَ الذى عنـــدى صـــواعقه ... يزيلـــهن إلـــى مـــن عنده الدِّيَـــمُ
أرى الـــنوى تقتضينى كـــل مرحلة ... لا تستقـــل بهـــا الوخـــادة الـــرُّسُمُ
لـــئن تركن ضميـــرا عن ميـــامنـنا ... لـــيحدثن لـــمن ودعتهـــم نـــدَمُ
إذا تـــرحَّلتَ عـــن قـــوم وقد قَدَروا ... ألا تفـــــارقهم فالرحلـــون همُ
شر البـــلاد مكـــان لا صـــديق به ... وشر ما يكسب الإنســـان مـــا يَصِمُ
وشر مـــا قنّصته راحتـــى قنـــص ... شهب البـــزاة ســـواء فيه والـــرَّخَمُ
بأى لـــفظ تقول الشعـــر زعنفـــة ... تجـــوز عندك لا عُرْبٌ ولا عَجـــمُ
هذا عتـــابك إلا أنـــه مِقـــةٌ ... قـــد ضُمِّنَ الـــدُرَّ إلا أنـــه كَـــلِمُ

صاحب هذه القصيدة هو شاعر العرب الأكبر أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفى المعروف بأبى الطيب المتنبى، ذاع اسمه فى آفاق عصره حتى كنت تلتقى بشعره فى أيه أرض عربية تقصدها كما كانت شخصيته عونا كبيرا لهذا الشعر على الذيوع لتميز هذه الشخصية بصفات نادرة فى مقدمتها الكبرياء والطموح الغلاب وشهوة السلطان والملك. فقد كان المتنبى شاعرا يعتقد أنه خلق ليكون ملكا. ويبدوا أن هذا الاعتقاد مصدره معرفته الواسعة بشئون عصره وثقته المطلقة فى قدراته. هذه القدرات، التى جعل لها الشعر العظيم الذى سحر به المتنبى عصره، قوة خاصة اقتحم بها الشاعر المدن والممالك والفلوات ظامئا إلى تحقيق حلم يراه حقا بينما لم يكن فى الحقيقة أكثر من سراب. ولد المتنبى سنة ثلاث وثلاثمائة من الهجرة فى محلة يقال لها كندة بالكوفة وكانت الكوفة فى ذلك الوقت تعيش فترة قلقة بسبب ثورات القرامطة وتعج بالحركة الفكرية. تعلم فى مدراس العلويين وأتقن اللغة

العربية من خلال إدمانه حفظ الجيد من الشعر، وقد اتصف منذ صغره بالذكاء الشديد وقوة ذاكرته. أتم تعليمه فى بادية السماوة حيث تتلمذ على لغة البادية الجزلة الفصيحة الصحيحة وما إن اكتملت له أدوات الشاعر الذى وعى ثقافة عصره السياسية والفكرية حتى بدأ فى التجوال تلهبه هذه النار التى تدفعه لطلب المجد فاتجه إلى الشام وظل يمدح بعض الأغنياء والأمراء حتى كانت سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فاهتدى إلى سيف الدولة.وكان هذا الأمير يجسد آمال الشاعر أعظم تجسيد فقد كان شابا شجاعا مغوارا يعمل على تدعيم حدود دولته بالإغارة على البيزنطيين ورد غاراتهم. وجمع سيف الدولة حوله صفوة علماء وأدباء العصر يستمع إليهم بإحساس عميق، وكان على دراية باللغة بشعرها ونثرها يقدر الشعراء ويغريهم حتى جعل من دولته بلاطا للأدب والسياسة والفكر. ووجد المتنبى فى هذا الأمير نموذجا لما ينشد لنفسه فلزمه تسع سنوات قال فيها أعظم شعره فى مديح هذا الأمير سيف الدولة. وهى القصائد التى عرفت بالسيفيات ولكن مكانة المتنبى وشعره أغرت به الأعداء من الشعراء الذين طغى عليهم مجد المتنبى فأحالهم إلى مجرد أشباح لشعراء لا يطمعون فى أكثر من التواجد فى بلاط الأمير لا ينتظرون مجدا ولا مالا فقد استولى المتنبى على كل ذلك، فبدأوا فى الكيد للشاعر العظيم حتى وجد المتنبى نفسه هدفا للنبال وتكاد هيبته تتعرض للمهانة بعد أن تهاون سيف الدولة فى دفع الأذى عنه، ربما لأن سيف الدولة نفسه كان يضيق بالغرور الشديد الذى كان المتنبى لا يحاول إخفاء مظاهره بحال من الأحوال بل لقد كان كل من يرى المتنبى وهو ينشد سيف الدولة يرى فيه كبرياء الأمير نفسه. ولا شك أن هذه المظاهر كانت ذارئع منطقية ومقنعة لهولاء الذين أولعوا بالدس والكيد لشاعر تياه يضع نفسه فوق الجميع، وانتهى الموقف بالمتنبى بعد أن تدهور وضعه الأدبى والنفسى إلى مفارقة من يود الإقامة عنده ولكن كبرياءه الجريحة كانت تمده بالعزم على مواصلة الرحلة إلى مصر حيث يلمع سراب الآمال مرة أخرى فى صحراء حياته ولعله أن يجد عند كافور الإخشيدى ما لم يجده فى كنف سيف الدولة. ولقد كان يعتمد بالطبع على الخلافات السياسية القائمة فى ذلك الوقت بين هؤلاء الملوك والأمراء. كان المتنبى يتوق إلى ولاية ينصب نفسه أميرا عليها. وذهب إلى مصر ومدح كافور الإخشيدى وبالغ فى مدحه ولكن كافور خيب رجاءه فرحل مرة أخرى إلى الكوفة يجر أذيال الفشل والمرارة ثم رحل بعد ذلك إلى فارس حيث تلقى دعوة من ابن العميد فرحل

إلى هناك، ولكن الإقامة لم تطب له ويبدو أنه قد سئم وضع نفسه فى خدمة الملوك وإن كان قد تلقى دعوة أيضا من عضد الدولة البويهى سلطان شيراز وكان شابا مثقفا جوادا ولكن المتنبى آثر الرحيل إلى مسقط رأسه فى الكوفة. وعبر طريق العودة تربص أعداء المتنبى به ليقتلوه بجبل دير العاقول. ويقال إن أحد أصدقائه قد حذره من الكمين الذى وضع له ولكن المتنبى أبى أن يحتاط للأمر ثقة فى نفسه. وهكذا أوقع به أعداؤه وقتلوه لتصمت هذه القيثارة الرائعة التى عزفت للشعر العربى أعظم قصائده. ولكن موت المتنبى بهذه الصورة المأساوية والتى تضع نهاية درامية لحياة بالغة التوتر والقلق والجموح والكبرياء والمجد فتحت الباب أمام حياة جديدة لشعره وربما كانت هذه الحياة الجديدة هى أخلد ما يطمح إليه شاعر فقد تنافست الأقلام فى تناول شعره، وحياته وتحقق له حلم تقصر عنه أحلام الولايات والإمارات والسلطة الزائلة.

تأتى هذه القصيدة من شعر المتنبى فى مرحلة من أخطر مراحل حياته من الناحية التاريخية، فهى إعلان تحرقه الزفرات وتطرزه الدموع عن فراق المتنبى لسيف الدولة بعد تسع سنوات من المجد والشعر والحلم. وهى مفتتح لعصر غامض مجهول سوف تغرب فى نهايته شمس حياة الشاعر، ومن هنا فهذه القصيدة تمثيل لفن المتنبى فى قمة توهجه وإبراز خصائصه،لأنها تأتى فى مفترق طريق صعب كان على الشاعر أن يختار بين كبريائه وبين طمأنينة يتجرع خلالها الهوان وقد آثر الشاعر – شأن الفرسان – أن يغامر بالطمأنينة والراحة الذليلة لكى يضرب للحظ أشق الطرق. ولكن الشاعر وهو يأخذ قرارا خاصا بحايته يكشف لنا فى شعره الصراع الحقيقى وراء الظاهر الذى ترصده العيون الساذجة. لقد كان سيف الدولة يرى فى شعر المتنبى مرآة نقية لبطولته وفروسيته وتألق مجده. كلاهما كان يبقى على الآخر لأن كلا منهما يمنح الآخر الرضى عن نفسه. ومن هنا رأينا قصيدة الفراق مشحونة بهذه اللوعة التى لا تكون إلا بين المحبين حين يحكم عليهم سيف الفراق بالرحيل.

إن القصيدة تبدأ بهذه الزفرة المتصاعدة من الكلمات التى كان المتنبى يعرف دقائقها فهذه الواو الممدودة فىالبداية تعطى إيحاء بالرغبة فى إعلان الشكوى وعدم القدرة على احتمالها وكأنه يفتتح مرثية أليمة. وكيف لا وهى نبوءة مبكرة بما سيلاقيه المتنبى من فشل وضياع بعد هذا الزمن المجيد الذى انقطع وتبدد. هو يشكو حرارة العاطفة والحب

إزاء قلب بارد جامد لا يكن حبا ولا شوقا. هى شكوى من السقم الذى ساقه الحب ومن الجفاء الذى يسكن القلوب القاسية ويبدو أن الإيحاء كان غير شاف فآثر أن يصرح ويجهر بهذه المحبة القوية الكامنة فىنفس الشاعر لسيف الدولة. إن الشاعر يواجه الوشاة الذين يكيدون له عند الأمير بإعلان الحب كأساس للعدل فى العلاقة وهو مدخل فى غاية الذكاء والمهارة والقوة. ولما كان إعلان الحب يستدعى على الفور صورة المحبوب فقد أورد الشاعر هذه الصورة. والمتنبى يتحدث عن حالين لسيف الدولة حالة السلم وحالة الحرب فكان فى الحالين أحسن خلق الله كلهم.

قد زرته وسيوف الهند مغمدة وقد نظرت إليه والسيوف دم

إن الشاعر هنا يقول لنا أنه يحب لأنه يعرف محبوبه جيدا يعرفه وقد رآه مسالما ورآه محاربا فهو حب الخبرة وهو حب مبصر رشيد: ثم ساق مديحه فى إطار البأس والقوة اللائقة بأمير شجاع يحمى ثغور الدولة العربية أمام بيزنطة ولا شك أن المبالغة وهى عصب الشعر عند المتنبى كله قد أخذت بتلابيب هذه الأبيات التى تبدأ بقوله:

فوت العدو الذى يممته ظفـر فى طيه أسف فى طيـه نعـم

إلى أن يقول:

عليك هزمهم فى كل معتـرك وما عليك بهم عار إذا انهزموا

إلى هنا نكون قد وقفنا مع الشاعر فى ثلاثة مواقف: الشكوى من ظلم المحبوب الذى لا يجازى على المحبة بمثلها ثم التصريح بهذا الحب المكنون يتمنى الشاعر لو كان الحب أساس العدل وبقدر الحب يكون العطاء ثم هذا الوصف الخارجى المألوف فى شعر المتنبى والذى يرتفع أحيانا إلى الذرا وقد تهبط به المبالغة أحيانا إلى حضيض الافتعال والتكلف. تتصل القصيدة – بعد أن انقطعت بالأجزاء الوصفية – بالعاطفة الجياشة واللوعة والحزن حين تخرج من صليل السيوف ومعارك سيف الدولة لتدخل إلى صميم معركة المتنبى مع نفسه فى هذه القصيدة. لقد بلغ المتنبى أن بعض جلساء سيف الدولة يتقولون عليه فكانت هذه القصيدة صرخة عتاب ونبوءة خصام وعزما أكيدا على الفراق، ولكنه قبل أن يفارق لابد أن يحارب معركته مع أعدائه أولا ومع سيف الدولة ثانيا ومع نفسه ثالثا: يتلطف الشاعر فى العتاب مقدما الحب كمهاد لدعواه وبلواه فى نفس الوقت: يا أعدل الناس إلا

فى معاملتى، فيك الخصام وأنت الخصم والحكم. ثم يتطرق إلى هؤلاء الذين يكيدون له. إن المتنبى يعد فى مقدمة هولاء الشعراء الذين يخلبون الألباب فى نفس الوقت الذى يسيطرون فيه على الإحساس بالوسائل الجمالية المتنوعة من خلال الألفاظ الجزلة النبيلة الملائمة والصورة الباهرة والموسيقى التى تزلزل الآذان بسحرها. ولكن المتنبى الذى درس الفلسفة يملك شعره منطقا بالغ القوة والحسم مع صعوبة استخدام المنطق فى الشعر وهذا هو سر تفوق المتنبى الحقيقى بين الشعراء فهو قد مزج الحس والعقل معا بهذه القوة الخفية التى يملكها شعره. ولا شك أن ثقافة المتنبى الواسعة هى التى صنعت له هذه المقدرة الفائقة إنه يضع المنطق الشعرى فى مقدمة حججه مع خصومه:

أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخى الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

ثم يقول فى موضع آخر:

إذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنَّنَ أن الليث يبتسم

إن رسوخ ثقة المتنبى فى نفسه يهتز قليلا حين يطالعنا بهذه الأبيات المباشرة الذاتية التى تعلن بشكل لا مداراة فيه عن غرور واضح ومبالغة متهافتة:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا ... بأننى خير من تسعى به قدم
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

إن هذه الثقة تهتز لأن المتنبى يشعر فى أعماقه أن سيف الدولة قد بدأ يعطى أذنه للوشاة والحساد الذين كان الغيظ من المتنبى وغروره يكاد يفتك بهم. ورغم هذه المبالغة التى لا تقنع أحدا بصدقها إلا أن قوة الشاعرية فيها تجعل المتنبى بعيدا عن السخرية منه بسبب هذه الأبيات، وليس أدل على ذلك من شيوع هذه الأبيات واستخدامها وجريانها مجرى الأمثال والحكم فى بعض الأحيان. ومن الذى لا يصدق المتنبى حين يقول:

الخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والسيف والرمح والقرطاس والقَلم

ويقال أن هذا البيت كان سببا فى قتله فقد حاول الهرب من مواجهة أعدائه عندما تربصوا له عند دير العاقول فقال له غلامه أتفر وأنت القائل الخيل والليل..... إلخ؟!

وتعود القصيدة بعد فاصل من الفخر الشديد والزهو – الذى يدل على التعاسة الشديدة – إلى الصدق الفنى، وإلى ذات الشاعر المحاصرة بين الأعداء وهو يفكر جديا فى الرحيل عنهم، وتتصل مرة أخرى العواطف والمشاعر الرقيقة الحزينة وتعود الأبيات إلى هدفها.

يا مـــن يعـــز علينـــا أن نفارقهـــم وجداننا كل شـــىء بعدكـــم عـــدم

إذن لقد كان المتنبى يضع صداقته بسيف الدولة فوق كل متاع محتمل من فراقه ويبدو أن فترة الإقامة المجيدة عند سيف الدولة قد ألهته ولو بشكل مؤقت عن حلم حياته وهى الولاية والسلطان. إنه يخاطبه بلغة خاشعة وصور تنهل من حب حقيقى، وتجاوز عن كل شىء ما عدا هذه الصلة التى يراها المتنبى فى قوة وجوده ذاتها:

إن كان سركـم مـا قـال حاسدنـا فمـا لجـرح إذا أرضـاكـم ألـم

ولكن الشاعر يلتفت فيرى حساده وأعداءه عن يمين سيف الدولة ويساره ويراهم دائبين فى الانتقاص منه والبحث عن مثالبه ونشر عيوبه فيرمى إليهم بأحجاره. إنهم فى شدة الغيظ من غروره وثقته بنفسه ولهذا فهو لا يجد ما يزيد من غيظهم ومن مضاعفة مرارتهم إلا أن يبالغ فى هذا الغرور وتعظيم هذه الثقة بالنفس:

كم تطلبـون لنـا عيبـا فيعجزكـم ويكـره الله مـا تأتـون والكـرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفـى أنا الثريـا وذان الشيـب والهـرم

والقصيدة تتابع صعودها وهبوطها. استقامتها وتلفتها إلى الخلف واليمين واليسار ونقترب من نهايتها فيكشف المتنبى بعد أن صرح بالحب والكره والفخر والعتاب يكشف عن قراره التاريخى أنه يضمر الرحيل عن هؤلاء القوم الذين أصبح يغص بينهم بطعامه ويشرق بمائه، وكأنه يهيىء ناقته للرحيل ويستعد لعبور الصحراء فى طريقه إلى المجهول بعد أن تنفست أحلامه فى صدره وتقدمت به السن فهو فى الثالثة والأربعين من عمره والآمال بعيدة تطفح الأبيات الأخيرة من القصيدة بالحسرة والندم والفخر والهجاء وكأنه فى الأبيات السبعة الأخيرة يعيد إيجاز القصيدة كلها فهى بمثابة عرض مركز لعناصرها كلها إنه يقول كلمته الأخيرة قبل أن يرحل.

أرى النوى تقتضيني كـــل مرحلـــــة لا تستقـل بهـــا الوخـــادة الرســـم

إلى أن يقول:

هـــذا عتابـــك إلا أنـــــه مقـــــة قد ضُمِّـــنَ الـــدر إلا أنـــه كلـــم

لقد كان المتنبى دائما حريصا على إنصاف نفسه وهو يرى الآخرين يسيئون إلى مكانته العالية، فكان يجازف براحته من أجل إنقاذ كبريائه، ولقد جاءت قصيدته «واحر قلباه» واحدة من أصدق قصائده لأنها صرخة يائس حائر ضائع، وإذا كان شعره قد رفع اسمه عاليا فقد كانت النار التى تبدع هذا الشعر تدفع به إلى المعاناه القاسية وإلى مجابهة الأهوال وسواء أكان النقاد قد أنصفوه أم ظلموه حين عابوا عليه هرولته المستمرة وراء سراب الولايات وبريق السلطان المراوغ فإن المتنبى كان صريع قدره الذى ألهب فى كيانه الجذوة المقدسة، جذوة الشعر العظيم، كما وضع فى هذا الكيان نفسه الطموح القاتل الذى ما كان بإمكان الشاعر أن يغالبه ولا أن يكفكف من جموحه. ذهب الشاعر وبقى الشعر ومن يدرى أن حياة مختلفة عن حياته تلك كانت ستنجب لنا نفس هذا الشعر العظيم. رحم الله أبا الطيب المتنبى.

* * *

رثـــاء الجـــدة

لأبى الطيب المتنبى

ألا لا أرى الأحداثَ مدحًـا ولا ذمًّـــا ... فما بَطْشُها جهـلا ولا كفُّهـا حلْمَـــا
إلى مثل ما كان الفتى مرجعُ الفتـــى ... يعود كما أبْدى ويُكْـرِى كمـا أرْمـــى
لـك الله مـن مفـجوعـة بحبيبهـــا ... قتيلـةِ شـوق غيـر ملحقهـا وصْمـــا
أحن إلى الكأس التـى شربـت بهـــا ... وأهـوى لمثـواهـا التـراب وما ضمـا
بكيت عليهـا خفيـة فـى حياتهـا ... وذاق كلانـا ثُكْـلَ صاحبـه قِدْمـا
ولـو قتـل الهجـرُ المحبيـن كلهـم ... مضى بلدٌ بـاقٍ أجـدَّت لـه صَرْمَـا
عرفتُ الليالى قبل مـا صنعـتْ بنـا ... فلما دهتنى لـم تزدنـى بهـا علمـا
منافعها مـا ضـرَّ فـى نفـع غيرهـا ... تَغذَّى وتـروى أن تجـوع وأن تظمـا
أتاهـا كتابـى بعـد يـأسٍ وتَرحـةٍ ... فماتت سرورا بـى فمـت بهـا غمًّـا
حـرام علـى قلبـى السـرور فإننـى ... أعُدُّ الـذى ماتـت بـه بعدهـا سُمّـا
تَعَجَّبُ مـن لفظـى وخطـى كأنمـا ... ترى بحروف السطـر أغربـة عُصْمَـا
وتـلـثـمـه حـتـى أصـار مـداده ... محاجـر عينيهـا وأنيابهـا سُحْمـا
رَقَا دمعُها الجارى وجفَّـت جُفُونُهـا ... وفارق حبى قلبهـا بعـد مـا أدْمَـى
ولـم يُسْـلهـا إلا المـنايـا وإنمـا ... أشدُّ من السقم الـذى أذهـب السقمـا
طلبت لهـا حظـا ففاتـت وفاتنـى ... وقد رضيتْ بى لو رضيتُ بهـا قسمـا
فأصبحت أستسقـى الغمـام لقبرهـا ... وقد كنت أستسقى الوغى والقنا الصُّمّـا
وكنت قبيل الموت أستعظـم النـوى ... فقد صارت الصغرى التى كانت العظمى
هبينى أخذتُ الثأرَ فيكِ مـن العـدى ... فكيف بأخذ الثأر فيـك مـن الحُمّـى
وما انسـدت الدنيـا علـىَّ لضيقهـا ... ولكـن طـرفـا لا أراكِ بـه أعمـى
فـوا أسفـا ألا أكِـبَّ مقبـلا ... لرأسك والصدر اللـذَىْ ملئـا حزمـا
وألا ألاقـى روحـك الطيـب الـذى ... كأن ذكىّ المسك كـان لـه جسمـا
ولو لـم تكـونـى بنـتَ أكـرم والـد ... لكان أباك الضخـمَ كونُـك لـى أمًّـا

لئن لذّ يوم الشامتين بيومها ... لقد ولدت منى لأنفهمُ رغْما
تَغَرب لا مستعظما غير نفسه ... ولا قابلا إلا لخالقه حُكما
ولا سالكا إلا فؤاد عجاجةٍ ... ولا واجدا إلا لمكرمةٍ طعما
يقولون لى ما أنت فى كل بلدةٍ ... وما تبتغى؟ ما ابتغى جلَّ أن يُسْمَى
كأن بنيهم عالِمون بأننى ... جلوبٌ إليهم من معادنه اليتما
وما الجمع بين الماء والنار فى يدى ... بأصعب من أن أجمع الجَدَّ والفَهْما
ولكننى مستنصر بذبابه ... ومرتكب فى كل حال به الغَشمَا
وجاعله يوم اللقاء تحيتى ... وإلا فلست السيد البطل القَرْما
إذا فل عزمى عن مدى خوفُ بعده ... فأبعدُ شىء ممكن لم يجد عزما
وإنى لمن قوم كأن نفوسهم ... بها أنَفٌ أن تسكن اللحم والعظما
كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبى ... ويا نفسُ زيدى فى كرائهها قدْمَا
فلا عبرت بى ساعة لا تُعِزّنِى ... ولا صحبتنى مهجةٌ تقبلُ الظلْمَا

شاعر هذه القصيدة هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفى الكندى الكوفى المعروف فى تاريخ الأدب العربى بالمتنبى. وما من شاعر فى العربية حظى بمكانته الأدبية وعلو شأنه، فهو أكثر الشعراء إثارة للاهتمام والجدل والاختلاف والاتفاق، يحبه الذين يحبونه بإفراط يدنو من العشق، ولا يستطيع من ينفر من عجبه الزائد بنفسه إلا الاحترام لفنه والتقدير لشعره. وقد يضعه النقاد والباحثون فى مقدمة شعراء العربية على الإطلاق وقد يقدم بعض الباحثين غيره عليه ولكن إجماع المتطرفين والمعتدلين منعقد حول وضعه فى الصدر الأول من قافلة الشعر العربى.

وإذا كان شعر المتنبى بما يتميز به من فخامة وجلال وسطوة قد جعل منه محور الكثير من الدراسات العميقة المتقصية إلا أن شخصيته الفريدة هى الأخرى كانت سببا قويا لدفع موجة الاهتمام به إلى آماد بعيدة حقا.

ولد المتنبى بالكوفة عام ٣٠٣ هـ. أى فى بداية العقد الرابع الهجرى وهو العقد الذى وصفه الباحثون وفى مقدمتهم الدكتور طه حسين بالاضطراب السياسى والاجتماعى والازدهار الفكرى. ولد فى محلة كندة ونسب إليها، ولقب بكندى وما إن ترعرع وأدرك بعض شئون الدنيا حتى أغرم بعلوم العربية غراما شديدا كان نبوءة بما يعتمل فى ذاته

من موهبة كبيرة تستعد للعطاء الزاخر العظيم، اختلفت الآراء حول نسبه وقد أغفل هو الحديث عن هذا النسب إغفالا يوحى بأنه لم يكن يفخر به، وقيل أن أباه كان سقاء. يقول الدكتور طه حسين: كان للمتنبى أب وجد ولكن المؤرخين والنسابين لا يعرفون من أمر جده قليلا ولا كثيرا ويكادون يختلفون فى اسمه. أما أبوه فقد زعموا أنهم كانوا يعرفون عنه شيئا يسيرا جدا: كانوا يزعمون أن أبا المتنبى كان سقاء فى الكوفة، تحدث المؤرخون بذلك وهم بين متحدث به يريد أن يرفع من شأن المتنبى الذى انحدر من رجل حقير فملأ الدنيا وشغل الناس وبين متحدث بذلك ليضع من شأن المتنبى الذى انحدر من رجل حقير فورث عنه الحقارة. كان أبوه يبيع الماء على الناس، وكان هو يبيع ماء وجهه على الممدوحين وما أظن أن الذين ذكروا مهنة الحسين قد قصدوا إلى إثبات الحق من حيث هو حق وتسجيل التاريخ من حيث هو تاريخ وإنما قصدوا إلى ما ذكرت لك: إلى الرفع من شأن المتنبى أو الوضع من قدره فكأنهم إذن لم يصنعوا شيئا وكأنهم إذن لم يعرفوا من أمر المتنبى إلا ما عرفوا من أمر جده، أى لم يعروفوا شيئا، ومهما يكن من شىء فقد عرف المتنبى أن شفاء نفسه من تعلم اللغة لا يكون إلا بالارتحال إلى البادية فذهب إلى بادية بنى كلب وهو بعد فتى لا يزيد عمره على عشرين سنة فأقام بينهم مدة ينشدهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة إذ كانت لا تزال صحيحة بالبادية. وقيل أن أبا الطيب قد ادعى النبوة فى هذه البادية وتبعه بعض الأعراب فخرج إليه لؤلؤ أمير حمص وقبض عليه وسجنه فترة من الوقت ثم استتابه وأطلقه. ولصقت به صفة المتنبى بعد خروجه من السجن ولازمته طوال حياته وسافرت بعد ذلك فى تاريخ الأدب حتى الآن. وبعد خروج المتنبى من سجنه اتجه إلى مدح الأمراء والرؤساء، وكان سيف الدولة الحمدانى يجتمع فى بلاطه بصفوة علماء وشعراء عصره. فقد كان حارس الحدود الشمالية للأمة العربية فلحق به المتنبى عام ٣٣٧ هـ. وأقام عنده تسع سنوات هى قمة حياته وشعره. كان سيف الدولة فارسا شجاعا محبا للعلم والأدب وفيا للقيم العربية الأصيلة، يعرف أقدار العلماء والشعراء ويصلهم، ورأى فيه المتنبى صورة حية لما كان يتمناه لنفسه. كان المتنبى تواقا للإمارة والسيادة، يرى نفسه فوق الشعر والشعراء فكأنه رأى فى سيف الدولة حلما متجسدا لأمانيه وأشواقه، ومن هنا كانت هذه الحرارة التى تضج بها قصائده، وهذا الصدق الذى يهز نفس المتلقى لشعره. فقد كان حبه لسيف الدولة عظيما لثلاثة أسباب: أولا لأنه فارس الأمة وحارس

قيمها فهو رمز لمجموعة من القيم التاريخية والإنسانية، كان المتنبى أول من يعرف قيمتها. والسبب الثانى أن سيف الدولة كان النموذج الحى لطموح المتنبى فقد كان يرى فيه صورة من نفسه وكأنه وهو يمدحه إنما يمدح نفسه. من هنا كانت هذه العلاقة القوية التى قامت فى نفس وشعر المتنبى حتى لا يجد المرء فى هذا الشعر بونا شاسعا بين صورة الممدوح وصورة المادح فى رتبة المجد. والسبب الثالث أن المتنبى كان يتوسل بنفوذ أميره لكى يصل إلى أحلامه هو الخاصة وما يرجوه من مجد لنفسه. ولكن المقادير قد قوضت أحلام الشاعر فى السلطة، ودمرت علاقة المتنبى بسيف الدولة، ولعبت الوشاية والحسد دورا فى المكيدة التى دفعت المتنبى إلى مغادرة حلب عام ٣٤٦ هـ. متجها إلى دمشق ثم بعد ذلك إلى مصر حيث قصد كافور الإخشيدى الذى خيب آماله فمدحه وهجاه وتركه فى النهاية متسللا إلى بغداد ثم إلى بلاد فارس وشيراز. مدح عضد الدولة بن بوية فأجزل عطيته ثم انصرف من عنده راجعا إلى بغداد فالكوفة عام ٣٥٤ هـ، وفى الطريق تعرض له فاتك بن أبى جهل فقاتل الشاعر حتى قتل مع ولده وغلامه على مقربة من دير العاقول من الجانب الغربى من سواد بغداد – وبهذا اختتمت حياة هذا الشاعر التياه بنفسه وسط المخاطر التى كان يتحدث عنها كقدر ملازم له. وهذه النهاية مطابقة لحركة هذه النفس الجياشة بالقلق والتوتر والطموح فلم تعرف سكينة فى حياتها.

والقصيدة التى نحن بصددها قالها الشاعر فى رثاء جدته، وتقول الروايات إن كتابا من جدته لأمه قد ورد عليه، وفى هذا الكتاب تشكو الجدة لابن ابنتها المتنبى شوقا إليه وطول غيبته عنها فتوجه نحو العراق ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك فانحدر إلى بغداد وكانت جدته قد يئست منه فكتب إليها كتابا يسألها المسير إليه فقبلت الخطاب وضمته لقلبها سرورا به وغلب الفرح على قلبها فقتلها. فقال هذه القصيدة الصادقة التى تعتصرها اللوعة ويسيطر عليها الألم. وقد سئل أعرابى: ما بال المراثى أصدق أشعاركم قال: لأننا نقولها وأكبادنا تحترق. فهل كانت كبد المتنبى تحترق حين قال هذه القصيدة: إن غربة الشاعر المتصلة واختفاء أسرته يجعل لهذه الجدة التى يبدو أن صلته بها كانت عميقة مكانة كبيرة وأساسية فى حياته، فهى الخيط الذى يربطه فى الدنيا. فهو يواجه كل يوم أعداء لشعره حسدا ومنافسة لشخصه بسبب اتجاهاته الفكرية وأحقادا تنمو من الغيظ الذى يسببه اعتزازه بنفسه لدرجة تجعله على وشك احتقار الآخرين، ومن هنا كان لصوت

الأسرة المتجسد فى نداء جدته وشوقها إليه، كان لهذا الصوت قداسة فى قلبه. لأنه صوت يحمل له الحب الخالص والعاطفة المجردة من الغرض، والانتماء الحقيقى، انتماء الدم الذى لا يعرف التغير، إن حنان هذه الجدة هو الذى جعل فقدانها مؤلما غاية الألم لنفس هذا الشاعر الذى اعتاد المخاطر وها هو يبدو طفلا على صدر جدته. فليس ثمة شك فى أن المتنبى كان يحن وسط غبار المعارك الأدبية والسياسية إلى هذا الحنان الدافق الذى تفيض به قلوب الأمهات والجدات، والذى كان الشاعر أشد حاجة إليه بسبب الأحقاد التى تحيط به. والقصيدة تحمل كل خصائص المتنبى الفنية. ففى لغتها هذا الجلال الباهر الذى يتجلى فى حساسية الاختيار الدقيق للكلمة القوية الغنية بالآلام والتى تلعب فى علاقتها بالكلمات الأخرى وفى موقعها من الجملة دورا أساسيا فى بناء صورة شعرية تجمع بين الحسى والمعنوى فى حرارة وصدق وخيال بعيد قادر على التأثير والإدهاش والإقناع فى نفس الوقت. وفى القصيدة هذه الموسيقى البطيئة الثقيلة الممتدة حيث اختار لها بحر الطويل بأبعاده الواسعة. وفيها كذلك صوره القوية الجامحة التى تتجاوز الواقع إلى التجريد فى إطار من المبالغة المسرفة أحيانا والمعقولة أحيانا أخرى، ولكن أهم ما يشير إلى انتماء هذه القصيدة إلى شاعرها المتنبى هو وجود الشاعر بكل كبريائه وفخره بنفسه. هذه الذاتية الواضحة التى كان ينتقل بها الشاعر فى كل بقعة يرتحل إليها، وفى كل قصيدة يقولها. حتى فى قصيدة حزينة من قصائد الرثاء لا ينسى المتنبى نفسه وشجاعته وفخره بنفسه. تبدأ القصيدة ككل قصائد الرثاء بالتأمل الحزين فى طبيعة هذا الموت المفاجىء الذى يصيب الكائنات فيسلبها هذه الهبة الغالية المقدسة.. الحياة – إن الشاعر يبدأ متماسكا يكاد يعلو على الموقف ويكاد يلجأ لتعزية نفسه وهذا العزاء الذى يلجأ إليه إنما هو مستمد من خبرته بمصائب الدهر ونوائبه فهذه الأحداث الأليمة إنما هى تتابع غير منطقى وغير معقول خال من الإرادة والقصد، وهى بهذا لا تستحق اللوم أو الذم لأن اللوم والذم يقومان على معيارى الخير والشر اللذين ينبعان من الإرادة، ومادامت هذه الأحداث خالية من القصد والإرادة فهى لا تستحق الثناء أو القدح. ثم يقرر الشاعر أن العدم هو الغاية وأن النهاية هى نفسها البداية، هذه الدورة الأبدية التى تشمل الوجود والعدم، فالمرء محكوم بالعودة إلى ما كان عليه وإلى العدم إذن سوف يصير ولسوف ترجع الزيادة إلى النقص من جديد. إن المتنبى لا يتمهل على أعتاب القصيدة، فيلقى إلينا بحكمته الثابتة المؤكدة التى أطلعته عليها خبرته بهذه الدنيا، وبعد ذلك يذهب إلى التفجع على

هذه الجدة العزيزة. وهو يرى أن الشوق هو الذى قتلها، شوقها إليه، ومن هنا كانت لوعته. هذا الشوق البرىء الطاهر لأنه شوق الأم إلى ابنها أو الجدة إلى حفيدها. وها هو يحن إلى الموت طلبا للقرب منها ويعشق التراب وما ضم فى أحشائه من أجلها. ويلجأ المتنبى لمبالغاته المعتادة فيرى أن هجرها كفيل بقتل البلد الذى رحلت عنه لو كان الهجر يقتل المحبين. ويؤكد من جديد معرفته بالليالى وما تجلبه من محن فهو لا يهتز ويكاد لا يكترث فهو يرى أن هذه الداهية التى نزلت به بوفاة جدته لم تزده علما بما تصنعه الليالى. هو خبير مجرب ذاق حلو الأيام ومرها ولعل مرها، أكثر من حلوها لديه وهذا يذكرنا بنفس موقفه الذى يقول فيه:

وصرت إذا أصابتنـــى سهـــــام تكسرت النصال على النصـــــال
وهـــان فمـــا أبالـــى بالرزايـــــا لأنى ما انتفعت بـــأن أبالـــــى

وها هو فن المتنبى يتجلى فى هذه المقابلة بين السرور والغم فى البيت الذى يقول فيه:

أتاها كتابى بعد يأس وترحـــــة فماتت سرورا بى فمت بها غما

ها هو يصنع من المفارقة صورة مؤثرة من صوره التى يمتلىء بها شعره حين يقابل بين السرور والغم وبين «بى بها» فهى سرت به أى بكتابه وهو اغتم بها أى بنبأ وفاتها. وليست المفارقة فقط هى التى تكشف عن فنية المتنبى فهى حيلة تقليدية لدى الشعراء، وإنما يميزه الإيجاز الشديد، وهنا يسوى بين موتها الحقيقى وموته المجازى. ثم يحرم الشاعر نفسه السرور هذا القاتل الذى أودى بحياة جدة الشاعر ويعتبره الشاعر سما محرما على نفسه، وهو تحريم غريب لأن الفرح كالحزن يغزو النفس فلا تقدر على مقاومته ولكن هى مبالغات المتنبى. وأبيات القصيدة تتابع وهى تمزج بين صورة الجدة التى جاءها كتاب حفيدها فقبلته وتعجبت من خطه وسطوره كأنها ترى نوعا غريبا من الغربان وهى التى يوجد بجناحها بياض. ولا شك أن عجبها من هذا الخط إنما هو لشدة شوقها إليه، تمتزج هذه الصورة بلوعة نفسه. وها هو ذا يصور تمكن حبه من قلبها فهو حب قوى ثابت لم تستطع الغربة والأيام أن تدفع به إلى السلوان أو النسيان، وإنما هو الموت وحده الذى قهر هذا الحب الغلاب فكأنه يرى أن الموت وحده وهو الذى يعد أقوى من حبها له وهو يعتبر هذا الحب والشوق والحنين نوعا من السقم لا يغلبه إلا ما هو أشد منه فالموت أقوى منه لأنه هو الذى أذهبه.

ولـم يسـلهـا إلا المـنايـا وإنمـــا أشد من السقم الـذى أذهـب السقمـــا

وها هو الشاعر يعبر عن سبب غربته فى البلاد البعيدة وكأنه يندم لفراقه لها وبعده عنها ولكنه يتعزى بأن هذه الفرقة إنما كانت لطلب حظه من الرزق ومن أجلها فهو يسعى فى الأرض من أجلها ولكن هذا الحظ قد فاتها وفاته هو أيضا. ويظهر ندمه واضحا حين يقول: وقد رضيت بها قسما، فكأنه يقول بأنهما كانا كافيين كل منهما للآخر بدون هذه الرحلة وهذه الغربة. وها هو يستسقى الغمام لقبرها بعد أن كان يستسقى الرماح أى يطلب الحروب والمعارك. وكأن الشاعر يرى أن الفراق والغربة إنما هما شىء عظيم ثقيل الوطأة على النفس فكيف يرى الموت الآتى لقد أصبح الفراق والغربة والترحال فى الأرض شيئا هينا صغيرا بجانب هذا الموت الذى صارت إليه. وها هو ذا يحاورها بمنطق الواقع وبمنطق وأسلوب حياته الذى دأب عليه فهو لا ينى يأخذ بثأره من أعدائه ولكن كيف يأخذ بثأرها من الحمى.

هبينى أخذت الثأر فيك مـن العـــدى فكيف بأخذ الثأر فيـك مـن الحمـــى

وبعد هذا البيت القائم على المنطق المثير المدهش، هذا المنطق المقنع المسكت إذا به يقفز إلى بيت من أجمل أبيات القصيدة بل إنه من أجمل الأبيات فى الشعر العربى قاطبة. فها هو الحزن قد بدأ يمسك بوجدان الشاعر ويملك عليه حواسه حتى لقد بدت الدنيا مغلقة المنافذ أمامه. وكأنه يقف محاصرا لا يعرف كيف يتجه وقد سدت أمامه الطرق وها هو ذا يختبر بشاعريته الرائعة تأثير صوره البالغة الإيحاء والدلالة على الحزن والفقد. إنه يقف حائرا محاصرا فهل الدنيا أغلقت دونه الطرق أم أنه لا يتحرك من مكانه لأنه لا يرى شيئا، إنه يتوهم هنا مجموعة من الأخيلة وهو يحسم هذا الموقف مبرهنا على صدق عاطفته وقوة أحزانه وشعوره بالحصار بهذا البيت الرائع:

وا انسـدت الدنيـا علـى لضيقهـــا ولكـن طـرفـا لا أراك بـــه أعمـــى

هو واقف مكانه وهل يقف إلا المحاصر أو الأعمى نعم العمى هنا هو عدم رؤيتها أمامه وكأن الدنيا كلها لا تكفى عوضا عنها. وكأن القصيدة بهذا البيت قد وصلت إلى ذروة حزنها وتفجعها ومرارتها. لأن القصيدة تنعطف بعد بيتين عاديين هما:

فـوا أسفـــا ألا أكـــب مقبـــلا لرأسك والصدر اللـذّىْ ملئـا حزمـــا
وألا ألاقـى روحـك الطيـب الـــذى كأن ذكى المسك كـان لـه جسمـــا

تنعطف القصيدة فى اتجاه جديد. اتجاه لا يناسب المقام. إن المتنبى يتجه إلى الفخر الشديد بنفسه حتى فى قصيدة رثاء جدته فما هو تفسير ذلك. ربما كان تعليل ذلك أن الشاعر وهو محاط بعداوات شديدة يشعر كأن هذا الحادث إنما يصور لأعدائه أن الضعف قد حل به وأن ركنه قد وهن فهو يعلن بثبات ورسوخ عن مفاخره، وربما كانت معارك الشاعر الكثيرة الطاحنة تملأ نفسه فلا تترك فيها فراغا لتأمل شىء آخر فى الحياة. ها هو ذا الشاعر يتصور أن أعداءه إن كانوا يشمتون به فى هذا اليوم فقد جاء رغما لأنفهم، ثم تستمر القصيدة فى اتجاه الفخر بالنفس فخرا يحمل الكثير من المبالغات والقسوة على الآخريين. وهو فخر يوحى بنفس لا تعرف الطمأنينة تتوجس دائما الشر من الأعداء. هو يلجأ إلى نوع من التماسك المصطنع ليدارى هذا الخوف الشديد الذى يسكن نفسه.

تَغـرب لا مستعظمـا غيـر نفسـه ... ولا قابـلا إلا لخـالقـه حُكمـا
ولا سالكـا إلا فـؤاد عجاجـة ... ولا واجـدا إلا لمكـرمـة طعمـا
يقولون: لى ما أنـت؟ فـى كـل بلـدةٍ ... وما تبتغى؟ ما ابتغى جـلَّ أن يُسْمَـى

ويستمر الشاعر فى مبالغته حتى يقول:

وإنـى لمـن قـوم كـأن نفوسهـم ... بها أنف أن تسكـن اللحـم والعظمـا

وكما بدأ المتنبى بهذا التدبر الذى يعرف مذاق الأيام ينهى قصيدته بتأكيد فهمه لها وهو فهم يدعوه إلى كراهيتها ويدعو هو نفسه إلى المزيد من الكراهية لها.

كذا أنا يـا دنيـا إذا شئـت فاذهبـى ... ويا نفس زيدى فـى كرائهـا قدمـا
فـلا عبـرت بـى ساعـة لا تعزنـى ... ولا صحبتنـى مهجـة تقبـل الظلمـا

فهل هى قصيدة فى رثاء الجدة أم قصيدة فى الفخر. أم نحن أمام قصيدتين لهما غرضان مختلفان؟ هذه هى شخصية المتنبى وجودها وضيقها بمن حولها ومعرفتها المتشائمة بالحياة. ولكن مهما يكن موقف الشاعر الفكرى إلا أن شعره يظل محلقا فى الذرا التى اعتاد دائما التحليق عندها.

مرثـــية

أحسن بالواجد من وجده

لأبى العلاء المعرى

أحسَنُ بالواجـد مـن وْجـدِه ... صبرٌ يعيد النـار فـى زِنْـدِهِ
ومن أبي فى الرُّزْءِ غير الأسى ... كـان بكـاه منتهـى جَهْـدِهِ
فليذرفُ الجفنُ على جعفـر ... إن كان لـم يُفْتَح علـى نـدِّهِ
والشـيء لا يكثـرُ مُدَّاحُـهُ ... إلا إذا قيـسَ إلـى ضـدِّهِ
لولا غضَـى نجـد وقُلامُـهُ ... لم يُثْنَ بالطيب علـى رَنْـدِهِ
ليس الذى يُبْكَى على وصْلـه ... مثل الذى يُبْكَى علـى صَـدِهِ
والطرفُ يرتاح إلـى غُمْضـه ... وليس يرتـاحُ إلـى سُهْـدِهِ
كان الأسى فرضًا لو أن الـردى ... قال لنـا افـدوه فلـم نَفْـدِهِ
هـل هـو إلا طالـع للهـدى ... سار مـن التُّرْبِ إلـى سعـدِهِ
فبات أدنَـى مـن يـد بيننـا ... كأنه الكـوكـب فـى بُعْـدِهِ
يا دهـرُ يـا مُنْجِـزَ إيعـادِهِ ... ومخلـفَ المأمول من وَعْـدِهِ
أى جـديـد لـك لـم تُبْلِـه ... وأى أقـرانـك لـم تُـردِهِ
تستأسرُ العقْبان فـى جوِّهَـا ... وتُنزل الأعْصَـمَ مـن فِنْـدِهِ
أرى ذوى الفضـل وأضدادهـم ... يجمعهـم سيلُـك فـى مَـدِّهِ
أن لم يكن رشد الفتـى نافعـا ... فَغَيُـهُ أنفـعُ مـن رشـدِهِ
تجربـةُ الدنيـا وأفعالهـا ... حثت أخا الزهد على زُهـدِهِ
والقلبُ مـن اهوائـه عابـد ... ما يعبد الكافـرُ مـن بُـدِّهِ
إن زمانـى بـرزايـاه لـى ... صَيَّرنـى أمـرحُ فـى قـدِّهِ
كـأننـا فـى كفـه مالُـه ... يُنفْقُ ما يختـارُ مـن نَقْـدِهِ
لو عرف الإنسـانُ مقـدارهُ ... لم يفخر المولى علـى عَبْـدِهِ

أمس الذى مرَّ علـى قُربـه ... يعْجزُ أهلُ الأرض عـن رَدِّهِ
أضحى الذى أجَّل فى سنـه ... مثلَ الذى عُوجل فى مَهْدِهِ
ولا يبالى المْيت فـى قبـره ... بـذمِّـهِ شُيِّـع أم حَمْـدِهِ
والواحد المفرد فى حَتْفـهِ ... كالحاشد المكثر فى حَشْـدِهِ
وحالةُ الباكـى لآبـائـه ... كحالة الباكى علـى وُلْـدِهِ
مـا رغبـةُ الحـى بأبنائـه ... عما جنى الموتُ على جَـدِّهِ
وَمَجْده أفعـالـهُ لا الـذى ... من قبلـه كـان ولا بَعْـدِهِ
لولا سجـايـاه وأخـلاقُـه ... لكان كالمعـدوم فـى وُجْـدِهِ
تشتاق أيَّارًا نفـوسُ الـورى ... وإنمـا الشـوق إلـى وَرْدِهِ
تدعو بطول العمـر أفواهنـا ... لمن تناهـى القلـبُ فـى ودِّهِ
يُسـر إن مُـد بـقـاء لـه ... وكلُّ مـا يكـره فـى مَـدِّهِ
أفضُل ما فى النفس يغتالُهـا ... فنستعيـذ الله مـن جُنْـدِهِ
فآفُة العاشـق مـن طرفـه ... وآفـةُ الصـارم مـن حـدِّهِ
كم صائن عـن قبلـة خَـدَّه ... سُلِّطت الأرضُ علـى خَـدِّهِ
وحامل ثقل الثـرى جيـدُه ... وكان يشكو الثقل من عقْـدِهِ
ورب ظمـآن ى مـورد ... والموتُ لو يعلـمُ فـى وِرْدِهِ
ومرسـل الغـارة مبثـوثـة ... ومن أدهم اللَّون ومـن وَرْدِهِ
يخوض بحـرا نقعـه مـاؤه ... يحمله السابـحُ فـى لبـدْهِ
أشجـعُ مَـنْ قلَّـب خطِّيَّـةً ... على طويـل البـاع ممتـدهِ
يرى وقوع الزرق فى درْعـه ... مثل وقوع الزُّرق فـى جلـدهِ
لا يصلُ الرمحُ إلـى طرفـه ... ولا إلى المحْكم مـن سـردهِ
يُلقـى عليـه الطعـن إلقـاءك ... الحَسْبَ على المسرع فى عقدهِ
بلحظـة منـه فمـا دونهـا ... يرد غَرْب الجيش عن قصـدهِ
أمهله الدهـر فـأودى بـه ... مُبيضُّـه يُحْـدى بمُسـودّهِ
فيا أخا المفقود عـن خمسـة ... كالشهيب ما سَلاَّك عن فقـدهِ
جاءك هذا الحزن مستجديًـا ... أجْرَك فى الصبر فـلا تُجْـدهِ

سلم إلـــى الله فكـــل الـــذى ساءك أو ســـرك مـــن عنـــدهِ
لا يعدم الأسمر فـــى غابـــه حَتْفًا ولا الأبيض فـى غمـــدهِ
إن الذى الوحشـــة فـــى داره تؤنسه الرحمة فـــى لحـــدهِ
لا أُوحشتْ دارك من شمْسهـــا ولا خلا غابُـكَ مـــن أسْـــدهِ

شاعر هذه المرثية التى تَرُود بنا طريق الحكمة والتأمل البصير فى شأن الموت والحياة هو أبو العلاء المعرى. رهين المحبسين كما اشتهر فى تاريخ الأدب العربى. والد الشاعر أبو العلاء أحمد ابو عبد الله سليمان المعرى التنوخى عام ٣٦٣ هـ بمعرة النعمان ومات بها عام ٤٤٩ هـ. وبين الميلاد والموت رحلة حياة قلما شهد لها التاريخ الأدبى نظيرا. فرغم آفة العمى التى لحقت به وهو فى الثالثة من عمره إلا أنه كان عبقرية فنية تتجاوز بعطائها نطاق عصره وتمتد ببصيرتها فى الزمان والمكان والكائنات فتبدع هذه الروائع الشعرية الخالدة. كان عصر الشاعر وهو القرن الرابع الهجرى مليئا بالاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية نتيجة لتدهور كيان الإمبراطورية الإسلامية وانقسامها إلى دويلات تغلى بالأحقاد والفتن والمؤامرات. وكان مثل هذا العصر باعثا وبإلحاح شديد على إعمال الفكر فى شئونه. وكانت المرارة هى حصاد من يضع فكره وعقله فى معتركه. قام الشاعر بإعداد نفسه إعدادا هائلا ليقوم بدور الشاعر الفيلسوف المفكر. فكان أعجوبة فى عمله وذكائه وفهمه. يقول عن نفسه «ومنذ فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسى باجتداء علم من عراقى ولا شامى. وانصرفت وماء وجهى فى سقاء غير سرب لم أرق منه قطرة فى طلب أدب ولا مال».

رحل إلى بغداد عاصمة الخلافة المتداعية وهو يحلم باعترافها بشأنه الخطير. وقيلت آراء كثيرة فى أسباب رحلته إلى بغداد، وكان فى السادسة والثلاثين من العمر ودفع عن نفسه كل ادعاء بأنه ذهب إلى بغداد طلبا للمال أو الشكوى من ظلم لحق به، ولكنه ذهب طلبا للعلم وحبا فى خزائن كتبها. ولكن بغداد أساءت إليه فلم تحسن ضيافته ولقى الإهانة من بعض العلماء والنحاة. وتروى الدكتورة بنت الشاطئ فى كتابها عن أبى العلاء هذه الواقعة: يذكرون أن أبا العلاء كان يوما بمجالس المرتضى وقد جاء ذكر المتنبى وجعل يتتبع عيوبه فقال أبو العلاء لو لم يكن للمتنبى من الشعر إلا قصيدته: «لك يا منازل فى القلوب منازل» لكفاه فضلا فغضب السيد المرتضى وأمر فسحب برجله وأخرج مهانا من مجلسه، وقال لمن يحضرونه: أتدرون أى شىء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة؟ فإن

للمتنبى ما هو أجود منها لم يذكره، قالوا: النقيب السيد أعرف فقال أراد بقوله:

وإذا أتتك مذمتى من ناقـــص فهى الشهادة لى بأنى كامــل

فإذا أضفنا إلى هذه الإهانة إهانات أخرى سبقتها فهمنا سر عودته مثقل النفس من بغداد عازفا عن الناس حزينا كئيبا معتزلا جدران بيته على اتساع الدنيا كلها. كان نباتيا لا يأكل اللحم. أخذ نفسه بالشدة وراضها رياضة عنيفة فى محاولة لقتل شهوات نفسه وإخراج الدنيا من قلبه، ورغم أنه يشكو حبها كما يقول «لا أكتمك مولاى ما أنت به عليم – إن أسفى على الدنيا طويل. أحب الدنيا. كأنها تحبنى والغريزة عن الرشد تذبنى. أحب الدنيا وآلتها ليست فى، وقد يئست من بلوغها واليأس مريح، فإلام التشوق والضلال» رغم أنه يشكو حبها فقد انتصر وقهرها فى نفسه واستطاع أن يغوص إلى أعماق بحارها ليستخرج لؤلؤ الحكمة التى تجلت فى شعره ونثره على السواء. يتحدث الدكتور طه حسين عن شعره فيقول: ليس لدينا من شعر أبى العلاء إلا ثلاثة دواوين: أولها سقط الزند والمشهور أنه يشتمل على شعره أيام الشباب وإن كان ذلك موضع بحث فإنا نجد قصائد نظمت فى بغداد وبعد رجوعه إلى المعرة بل نجد قصيدة نظمت سنة أربع عشرة وأربعمائة وهى الطائية التى بعثها إلى خازن دار العلم ببغداد. ويحسم الدكتور طه حسين هذه القضية بقوله: فلا شك فى أن أبا العلاء إنما لاحظ أن شعر الشباب فى سقط الزند أكثر من شعر الكهولة والشيخوخة فحكم عليه هذا الحكم، ولعل الكتاب قد جمع بعد رجوع أبى العلاء من بغداد ثم زيد عليه ما جد من الشعر. والثانى الدرعيات وهو ديوان صغير يشتمل على أشعار وصفت فيها الدرع خاصة، أما الديوان الثالث فهو اللزوميات وهى أكبر الدواوين وأجلها خطرا نظمت كلها فى الطور الثالث فمثلت حياة عقله ووجدانه وخلقه أحسن تمثيل. ولأبى العلاء مؤلفات نثرية لعل أشهرها رسالة الغفران ويحظى أبو العلاء المعرى باهتمام شديد تجاوز النطاق الإقليمى العربى إلى المجالات العالمية فقد اهتم به المستشرقون اهتماما كبيرا وذلك نظرا لما فى أدبه من نظرة فلسفية عميقة للكون والحياة. ولقد اتهم أبو العلاء فى عقيدته ولكن المدافعين عنه وجدوا أدبه أقوى الحجج على إيمانه وإذا كانت صعوبات حياته وفساد عصره قد قاده إلى رأى قاس فى الناس والأشياء فإن هذه الصعوبات نفسها كانت مدخل روحه إلى رياض الحكمة والشعر بحيث عاد إلينا من رحلة حياته القاسية بهذا التراث الضخم من الشعر الذى يضاهى بفخر أرفع ما كتب

فى أدب أى أمة على الأرض، هذا أبو العلاء المعرى. أما قصيدته فهى واحدة من أروع المراثى التى كتبت فى الشعر العربى فى كل عصوره. فى هذه القصيدة القوية البناء والجزلة العبارة نعثر على كنز غنى فياض بالحكمة وإذا كانت المراثى تكتب للتفجع ونثر فضائل المتوفى فإن لأبى العلاء المعرى منهجا متميزا. فهو لا يغفل الإضاءة الأخلاقية للفقيد ولا يهمل تصوير لوعة الحزن عليه، ولكنه يجمع إلى ذلك كله قدرة خارقة على النفاذ من الخاص إلى العام. على تجاوز الحزن الأصغر إلى الحزن الأكبر، يملك أن يرى الكليات الشاملة فى الجزئيات العابرة، وهذا دور الشاعر الحقيقى الذى يرى فى التجربة الذاتية معبرا إلى التجربة الجماعية. هذه القصيدة قالها أبو العلاء المعرى فى رثاء ابن جعفر بن على بن المهذب. وإذا نظرنا إليها نظرة شاملة وجدناها فى تدبر أمر الحياة والموت تدبرا يشفى النفس من همها الثقيل ولهفتها وغيرتها والتفجع عليها. هى قصيدة السلو عن الدنيا والعزاء والتطهر: تبدأ بدفع الحزن عن النفس لتقودنا إلى الحزن الأكبر، وكأنه يرى الدنيا مسرحا للأحزان ومن ثم لا تستحق كل هذا التفجع. وعلى المرء فيها ألايستسلم لمواجعه وأرزائه فإن فعل واستسلم فسيقوده ذلك إلى الانطفاء بدلا من التوهج والنشاط، نجد الشاعر يبدأ القصيدة موصيا نفسه التى يبدو أنه يدير معها حوارا خفيا «منولوج» يوصى الشاعر بالصبر حتى تمتلىء النفس بالقوة لاحتمال الحياة وما تأتى به الأيام. فهو يرى الأسى يستنفد الطاقة حتى يكون جهد الحزن ضائعا كله فى البكاء وحتى لا يكون قادرا على غيره وكأن الشاعر يرى فى البكاء، شيئا تافها سهلا إذا واجه به المرء الرزايا، إنما يطلب الشاعر للمرء جلدا وقوة وصبرا يستعين بها على الأيام. ولكن الشاعر يضعف ويأمر مرة أخرى بالبكاء، لأن جعفر لا نظير له، ويميل إلى بيان فضل المرثى شأن التقليديين من الشعراء الذين يلحون على إظهار فضائل الفقيد، وتوشك الأبيات أن تهبط إلى المألوف من المعانى لأنها جنحت إلى المألوف من الأغراض. فهو يشير إلى تفوق جعفر على أقرانه ويقيم الأقيسة الفنية على مقارناته التى قد تتوسل بالمنطق والحجة العقلية والتلاعب الذى يظهر تمكنه الشديد وقدرته فى سبك جمله فى يسر وبراعة.

ليس الذى يبكى على وصله مثل الذى يبكى على صــده

ويستمر فى الاستدلال على المعنى فى البيت الذى يليه موضحا أن العين ترتاح لما يريحها وتتعب مما يتعبها. فليس حب جعفر بعجيب وهو الذى يريح النفوس وتتمنى هذه

النفوس قربه منها. ويبدو الشاعر وكأنه يعتذر عن طلب السلوان والتوصية به فهو يشير إلى أن هذا الحزن كان سيغدو فرضا لازما لو أنه كان فداء نافعا للفقيد وبخلنا به عليه.

ولكنه نجم صاعد إلى مكانه الحقيقى وها هو ذا الذى كان قريبا منا صار بعيدا كأنه الكوكب فى بعده الشاسع. إن الشاعر لا يقف عند صفات هذا الفقيد العزيز لأنها كما يبدو مستقرة فى نفس من يعرفه، وهى واضحة ظاهرة لا تحتاج إلى تذكير بها، ولا يحتاج الشاعر فى هذا المقام العصيب إلا لمغالبة الحزن وفهم ظاهرة الموت فى ضوء ظاهرة الحياة، وها هو ذا يلتمس المدخل إلى جوهر القضية. إنه الدهر. هذا العدو الغامض للحياة والأحياء وهو يخاطبه معاتبا لاصقا به صفه العداء، فهو ينجز الوعيد ويخلف الوعد. وها هو ذا يجرد منه كائنا عاتيا قاسيا لا يغلبه أحد ولا ند له يستعصى على الموت. فهو يأسر العقبان تلك الطيور القوية الماهرة التى‌تجيد التحليق فى الآفاق العالية ومع ذلك فالدهر يأسرها من آفاقها كما يأتى بالوعل الشارد من جبله العالى. الشاعر يصف الدهر بالعدوانية فهو سريع الأذى ومخلف للظنون التى تأمل الخير منه، وهو قوى باطش لا يفلت منه محلق فى الفضاء ولا هارب فى أعلى الجبال، وهو كذلك لا يميز بين الخبيث والطيب فهو يسلكهم فى خيط واحد ليدهمهم سيله الطامى الذى يعلو مده فيطوى الأخيار والأشرار. هل الدهر هنا يعنى الزمان كما نفهم من مدلول الكلمة اللغوى أم أن الدهر قوة ذات إرادة؟ إن ملامح هذا الدهر الذى يجرد منه الشاعر كائنا غامضا يلتبس مع الموت فى صورة تكاد تكون متشابهة، والشاعر بعد أن وجه الاتهام قاسيا لهذا الدهر يولى وجهه شطر الحياة والأحياء ليقدم لنا جواهر الحكمة الشعرية التى يبدو أن الحدث الأليم قد فجرها فى نفسه. ها هو ذا الشاعر يتجه إلى نوع من النصح بالاستقامة وكأنه ينظر فى هذه اللحظة إلى ختام الحياة، فيرى أن الرشد أجدر بها من الغى ما دامت تنتهى بالموت، والشاعر لا يفعل ذلك بطريقة مباشرة فجة فيقع فى الوعظ الذى يقدر عليه صغار الشعراء وإنما يرتفع ليرسم صورة أخلاقية ذات دلالة ومغزى فى مثل هذا المقام. إنه يحاول أن يحث العابث اللاهى على الاستقامة وإعمال عقله فيما يرى فى هذه الدنيا وهو موشك أن يعاقبه على هذا الغى ثم يلقى بهذه الحكمة التى اعتصرها من صميم خبراته بالحياة ومن غمار أحداثها.

تجربــة الدنيــا وأفعالهـــا حثت أخا الزهد على زهــده

ثم يعود بعد ذلك ينتقل إلى تصوير الأهواء التى تستولى على النفس فتجعل القلب عابدا لها وكأنها صنم من الأصنام. يلح الشاعر فى تصويره للزمان على استحضار صورة الموت:

إن زمانـــى برزايـــاه لـــــى صَيّرنـــي أمـــرحُ فـــى قـــــدّه
كـــأننـــا فـــى كفـــه مالُـــــه يُنفْقُ ما يختـــارُ مـــن نَقْـــده

يجردنا أبو العلاء فى هذا البيت من كل إرادة أمام الزمان الذى أضافه إلى نفسه ثم لجأ إلى التعميم، وذلك لأنه حين تحدث عن الرزايا كان يعرف أن حياته ليست مثل حياة الآخرين فقد يكون نصيبه منها أعظم وأكبر، أما حين يتحدث عن غلبة الموت فهنا يستوى الجميع ولا إرادة لحى. ثم يخلص من هذه التأملات الحزينة إلى بيت يوشك أن يرتفع بالقصيدة كلها لو لم يكن فيها بيت آخر فى مستواه.

لو عرف الإنســان مقـــداره لم يفخر المولى على عبـــده

هذا جوهر المساواة الإنسانية، فنحن أمام الموت مجردين من الإرادة سجناء فى أجسادنا التى يستوى فيها العبد وسيده. ويلجأ أبو العلاء بعد ذلك للحديث عن عجز الإنسان هذا العجز الذى يجعل منه الشاعر وسيلة لإقناعنا بالحقائق القاسية فى هذا الوجود فمن ذا الذى لا يصمت مفحما أمام هذا التحدى:

أمس الذى مر علـــى قربـــــه يعجز أهل الأرض عـــن رده

ثم يستمر أبو العلاء فى تتبع صور المساواة أمام الموت هذا القاهر الغلاب فالشيخ الذى مكث طويلا فى الأرض حتى بلغ أرذل العمر سواء هو والطفل الذى عوجل وهو فى المهد. والميت الذى عبر إلى قبره لا يبالى بالذم ولا بالمدح، والواحد كالحشد الكثير هذه صور متعددة للمساواة، مساواة الواحد بالجميع ومساواة من يبكى على آبائه بمن يبكى على أبنائه فجوهر الفقد واحد، ويذكرنا هذا البيت بنظيره فى التراث العربى:

وقالت لها إن الشجا يبعث الشجـا لقبر ثـوى بيـــن اللـــوى فالدكـــادك
فقلت لها إن الشجا يبعث الشجـــا دعينـــى فهـــذا كلـــه قبـــر مالـــك

ولا يحاول الشاعر أن يخرجنا من الدنيا دون أن يشير إلى هذا الجانب المضىء الذى يجعل الموت إضاءة للحياة والنهاية شحذا للبداية فهو يعود مرة أخرى إلى الحديث عن قيمة الأعمال الطيبة فى الحياة حيث يحث الإنسان على اكتساب الأفعال الخيرة، هذه الأفعال التى تدفع إليها السجايا الحسنة والأخلاق الكريمة ولكن الشاعر يقطع استرساله

ليتحدث مرة أخرى عن طبيعة الحياة. وكيف يسعد الإنسان حين يدعى له بطول العمر وليس فى الطول غير الآلام التى يتجرعها! وكيف ينجو الإنسان من مصيره وأفضل ما فيه يغتاله وداؤه دواؤه!

فآفة العاشق من طرفه وآفة الصارم من حده

والشاعر يذكرنا بعمر الخيام فى هذه الأبيات:

كم صائن عن قبلة خده سُلطت الأرضُ على خَده
وحامل ثقل الثرى جيدُه وكان يشكو الثقل من عقْده
ورب ظمآن إلى مورد والموتُ لو يعلمُ فى ورْده

ويتحدث أبو العلاء عن الفرسان الذين يتسمون بالمهارة فى الحرب ولكن هذه المهارة لا تجديهم شيئا. ويختتم قصيدته بمثل ما بدأ بها إنه يدرك أن الحزن مجرد ضياع للجهد والوقت والعمر فنصح بالصبر والتسليم لله:

سلم إلى الله فكل الذى ساءك أو سرك من عنده

ولا ينسى بالطبع أن يشير إلى الرحمة التى تؤنس الفقيد داعيا الله بألا تقفر داره. هذه القصيدة التى تستولى الحكمة على معظم أبياتها تعطينا صورة لهذا التفكير القاتم الذى كان يظلل قلب وعقل أبى العلاء، ولكن هذا التفكير ليس متجها هذا الاتجاه العدمى رغم تسليمه بالعجز فى مواجهة الموت بل هو ينادى بالحياة الصحيحة السليمة العامرة بالقيم والاعتماد على النفس والاهتداء بالعقل. إن صورة الموت فى هذه القصيدة غالبة دون شك ولكنها مدخل للحياة ورفض للحزن الذى يقعد النفس عن طلب المعالى. وإذا كان الشاعر يحاصرنا بصورة العجز فلكى يوطن النفس على احتمال المكاره وعلى بعث القيم النبيلة فى الحياة مثل المساواة والحرص على الفضيلة، وفيها كذلك دفع للاتهام الذى كان يوجه إلى أبى العلاء فى أمر عقيدته. وكما أن هذه القصيدة يمكن أن توصف بأنها عن الموت فهى كذلك قصيدة باهرة عن الحياة.

***

لقد أنصبتنى أم قيس

لكعب بن سعد الغنوى

لقـد أنْصبَتْنـى أم قيـسٍ تلومنـى ... وما لومُ مثلـى بـاطـلاً بجَميـلِ
تـقول ألا يـا استـبـقِ لا تكـن ... تسـاقُ لغبـراء المقـام دَحُـولِ
كمُلقى عظام أو كمهلـك سالـم ... ولسـت لميـت هالـك بوصيـل
أراك امرأ ترمـى بنفسـك عامـدا ... مَرَامى تغتالُ الـرجـالَ بغُـول
ومن لا يزل يُرْجَى بغيب إيابُـه ... يجوبُ ويَغْشى هولَ كـل سبيـل
على قَلَتٍ يوشـك ردىً أن يصيبـه ... إلى غير أدْنـى موْضـع لمقيـل
ألم تعلمى أن لا يُرَاخـى منيتـى ... قُعودى ولا يدنى الوفـاة رحيلـى
مع القدر الموقوف حتـى يُصيبنـى ... حِمامى لو ان النفس غيـرَ عَجُـول
فإنك والموت الـذى تـرهبينـه ... علىَّ ومـا عـذالـة بغَفُـول
كداعى هَديل لا يجـابُ إذا دعـا ... ولا هو يسلـو عـن دُعـاء هَديـلَ
وذى نَدَبٍ دامى الأظـلِّ قَسَمْتُـه ... محافظـة بينـى وبيـن زميلـى
وزادٍ رفعتُ الكفَّ عنـه عَفـافَـةً ... لأوثر فـى زادى علـىَّ أكيلـىَ
وشخص درأت الشمس عنه براحتى ... لأنظر قبـل اللـل أيـن نُزُولـى
ومنشق أعطاف القميـص دعوتـه ... وقد سد جوْزُ الليـل كـل سبيـل
فقلت له: قد طال نومك فارتحـلْ ... وما ذاق طعم النـوم غيـر قليـل
سُحَيرًا وأعجازُ النجـوم كأنهـا ... صوارٌ تدلّـى مِـنْ سـواءِ أمِيـل
وقد شالت الجوزاء حتَـى كأنهـا ... فساطيط ركـبٍ بالفـلاة نُـزُول
ومن لا يَنُلْ حتـى يسـد خـلالـه ... يَجدْ شهوات النفس غيـر قليـل
وعوراء قد قيلتْ فلم أستمعْ لهـا ... وما الكلمة العـوراء لـى بقبـول
وما أنا للشىء الـذى ليـس نافعـى ... ويغضب منـى صاحبـى بقـؤول
وأعرضُ عن مولاى لو شئت سبنـى ... وما كلُّ يـوم حـلمـه بـأصـل
ولن يلبث الجهَّـال أن يتهضمـوا ... أخا الحلم ما لم يستعـنْ بجَهُـوُلَ

وأذكر أيام العشيـرة بعـــد مـــا أميل غيظ الصـــدر كـــل مَميـــل
ولستُ بِمُبْدٍ للرجال ســريـــرتـــى وما أنا عـــن أســرارهـــم بســؤول
وقـوم يجـــرون الثيـــاب كأنهـــم نشارى وقـــد نبهَّتُهـــمُ لرحيـــل
وقد نفَّر الليلُ النـــهـار وألْبسَـــتْ سمـــاوة جَـــوْنٍ مُجْنـــح لأصيـــل

شاعر هذه القصيدة ليس واحدا من أعلام الشعراء الذين سارت بذكرهم الركبان واحتفل بهم النقاد وروت لهم كتب الأدب الروايات عن حياتهم وشعرهم، وإنما هو شاعر فرض اسمه على الكتب المتخصصة فى تمحيص الشعر العربى مثل بلوغ الأرب والسمط والأغانى والخزانة. إنه كعب بن سعد الغنوى أحد بنى سالم بن عبيد بن سعد بن كعب ينتهى نسبه إلى قيس بن عيلان، وبعض الكتب ترفع نسبه إلى الجد الأخير وبعضها يوجز فى إيراد أسماء الأجداد. وكعب هذا غلب عليه لقب كعب الأمثال: لكثرة ما فى شعره من الأمثال وفى الأمالى أنه شاعر إسلامى عاش وأبدع شعره فى العصر الأموى. وهذا ما يؤكد الطابع العام لهذه القصيدة، التى تكاد تنتمى بقيمها الفنية والموضوعية إلى العصر الجاهلى. ولما كان العصر الأموى إنما هو رجعة فنية كبيرة إلى الصورة الفنية التى كان عليها الشعر الجاهلى فإن هذه القصيدة لا تصبح غريبة فى عصرها الذى قيلت فيه. وقد وردت هذه القصيدة فى مختارات ابن سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك المعروف بالأصمعى وهى المختارات التى تحمل اسم الأصمعيات نسبة إلى جامعها. والنظرة الشاملة بعد القراءة المتعمقة للقصيدة تلحظ عناصر الاتجاهات الفكرية والفنية والفلسفية الأساسية التى ازدهرت فىالشعر الجاهلى وحاول الشعر الأموى الارتداد إليها بأسلوب يستوعب خبرة التجربة الإسلامية الكبيرة التى غيرت النطاق الفكرى الذى كان سائدًا كما خلقت معايير جديدة فى مجال الأخلاق والعلاقات الإنسانية وبناء المجتمع ذاته. فالإطار العام لقصيدة كعب بن سعد الغنوى يمت للشعر الجاهلى بنسب أصيل يظهر جليا فى هذه الأنفاس التى تعيد إلينا الاتجاه إلى الحكمة الذى برز فيه وأقام أسسه الأولى زهير بن أبى سلمى: فالحكمة كمفهوم إنسانى يمتص خبرة عصر بأكمله تنتشر فى هذه القصيدة الرائعة، كما تعطى القصيدة كذلك إيحاءً قويا بصلتها المباشرة بهذا العالم الذى يحفل بالمغامرة والمخاطرة، عالم الصعاليك الفسيح الذى يحفه الغبار وتكمن فيه الأخطار. عالم يصبح فيه التخلى عن الإحساس بالأمن هو أعظم الضمانات للأمن.

يذكرنا بمخاطرة عروة بن الورد حين يقول:

ومن يك مثلى ذا عيال ومقتـــرا من المال يطرح نفسه كل مطـرح

ولكن المخاطرة هنا فى هذه القصيدة ربما كانت من نوع أكثر ترفا من مخاطرة الصعاليك الذين دفعهم نبذ المجتمع لهم إلى ركوب الأخطار واصطناع الأسفار والغزوات. إنها مخاطرة الهدف منها الحفاظ على كبرياء الشاعر، مخاطرة لإعلاء شأن الذات وليس لدفعها درجات فى سلم الحياة الاجتماعية. وتبرز فى القصيدة هذه القدرية الحتمية التى كان شعر طرفة بن العبد رائدًا فى تصويرها حين يقول:

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغـــى وإن أشهد اللذات هل أنت مخلدى
أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيدا غدا، ما أقرب اليوم من غـد

هذه الحتمية التى جعلت من الحياة اختيارا قاسيًا بين إعدام الذات فى إخضاعها التام للعرف والمواضعات وبين اغتنام الحياة فوق لهب التمرد وتحت سياط الاحتجاج الاجتماعى واستنكاره. وليس ثمة شك فى أن القصيدة «لقد أنصبتنى أم قيس» تنفرد بتصوير تجربة أخرى بالغة التفرد والذاتية، وهى لا تلتقى مع تجارب الصعاليك أو زهير بن أبى سلمى أو طرفة بن العبد إلا لتفترق. وهنا عظمة أى شاعر أصيل. إن الشاعر الحقيقى هو حفيد أسلافه فهو يذكرك بأجداده الشعراء فى الوقت الذى يعتز فيه بوجهه هو وموهبته الذاتيه التى تميزه عنهم. وهكذا نرى صورة جلية لنمط الصياغة الجاهلية وعصر بنى أمية يذكرنا بزهير وطرفة وغيرهم. ولكن الذى يبقى هو صدق أنفاس ابن سعد الغنوى فى هذه القصيدة الحارة الصادقة التى تضرب بجذورها الفنية والفكرية والأخلاقية فى تراث القصيدة العربية. وقد اختار الشاعر للقصيدة بحر الطويل فعولن مفاعلن ليعبر من خلاله عن هذه الموجات المشحونة بالتوتر والتأمل والحركة. وإنه بحر واسع الأطراف هادئ كالصحراء متموج بطىء الإيقاع يعطى الشاعر فرصة كافية للتفكير والتأمل. وهو بحر شاع استعماله فى العصر الجاهلى. فهو فخم جليل ولكنه لا يترفع عن الحركة والتدافع إذا فاضت بالشاعر هواجسه، وتبدأ القصيدة بظهور «أم قيس» لائمة عاتبة محذرة للشاعر ومنذرة بالأذى الذى يمكن أن يلحقه من جراء تمسكه بفضائله كفارس شجاع. فمن هى أم قيس هذه؟ إنها امرأة كثيرة الظهور فى القصائد الجاهلية والأموية ولكن بأسماء مختلفة وهى قد تكون زوجة الشاعر المحبة له الخائفة عليه وقد تكون جزءًا من هذا التقليد الفنى

الذى تفتتح به القصائد. فكما أننا نعثر دائمًا فى الشعر الجاهلى وغيره على هذا الخليل الذى يحرص الشاعر على اصطحابه فى كل رحلاته فإننا نجد كذلك امرأة مختلفة الأسماء والأوضاع والمسافة من الشاعر ولكنها فى معظم الأحيان امرأة عاتبة مشفقة على الشاعر مما يجلبه على نفسه، إنها مرة تكون أميمة التى يخاطبها أبو ذؤيب الهذلى حين يقول:

قالت أميمة ما لجسمك شاحبا منذ ابتذلت ومثل مالك ينفـع

وقد تكون زوجة مشفقة كزوجة عروة بن الورد التى تحذره من المخاطرة بنفسه طلبًا للغنى فيرد عليها:

دعينى للغنى أسعـى فإنـى رأيت النـاس شرهـم الفقيـر

وقد نجدها من الجانب المناوئ كما فى قصيدة السموءل بن عادياء حين يقول:

تُعيِّرنـى أنـا قليـلٌ عديدنـا فقلت لهـا إن الكـرام قليـل

فأم قيس إذن فى قصيدة كعب بن سعد الغنوى قد تكون زوجة أو أما أو صديقة أو اختراعا فنيا يجرى به على سنة القصيدة العربية التقليدية. وقد تكون تجريدًا من نفسه لهذه الشخصية الخياليه أراد بها توجيه السؤال إلى نفسه واللوم لها على استهانته بالمخاطر التى يعرض نفسه لها. ويبدو أن أم قيس هى امرأة حقيقية وهذا واضح من قوله «لقد أنصبتنى» فالافتتاح بلقد يقيد التحقق وأنصبته أتعبته لأنها أكثرت من لومه وعتابه وتحذيره، ويبدو أنها استخدمت كل ما تستخدمه الأنثى المحبة من وسائل الضغط لتمنعه من مواصلة مغامراته. وكان من الممكن أن يبدأ الشاعر قصيدته بلومها مباشرة من خلال ندائها له أن يرحم نفسه أو يجنبها المخاطر، ولكنه آثر أن يفتتح القصيدة بالإعلان عن تعبه وضيقه من هذا اللوم الشديد على نفسه. وهو يعتبر هذا اللوم مجافيًا للصواب والحق. لا لأنه وديع يؤثر السلامة فيكون اللوم فى غير موضعه بل لأن لوم مثله يعد باطلاً فمثله لا يلام لأنه لا يرتكب جرمًا إذا كانت مخاطراته من أجل اكتساب الشرف والذود عن الأهل والعرض. إنه يستنكر هذا اللوم لأنه لا يليق بمثله فهذا اللوم ليس جميلاً وقد آثر أن يترفق مخففًا هذا اللوم الذى أعلن هو أنه قد أتعبه فقال بأن هذا اللوم غير جميل وكان يمكن أن يستخدم لفظًا أكثر غلظة لولا أن العلاقة التى تربطه باللائمة علاقة حميمة وهدفها منه هو المحافظة عليه، هو إذن قد أعلن فى هذا البيت تقريبًا عن تقرير موقف أم قيس منه

وإحساسه وتقديره لهذا الموقف ووقعه عليه، ثم أكد موقفه من هذا اللوم وحكمه عليه. فكأنه فى الواقع قد لخص فى بيت واحد القصيدة كلها: وقوع اللوم ورده عليه مع التركيز على التأثير وإبراز شخصيته فهو بيت جامع أو هو بيت القصيدة ومعجزته أنه فى كلمات قليلة قد قال كل شىء تقريبًا. بعد هذا البيت الذى يبدو أن الشاعر قد أراد به التنفيس عن نفسه ندخل إلى صميم العتاب الذى وجهته أم قيس إلى الشاعر. وهو يبدأ بهذا النداء:

تـقـول ألا يـا اسـتـبـق لا تكـــن تسـاق لغـبـراء المـقـام دحـــول

وحذف المنادى فى هذا البيت يؤكد امتلاء نفس وقلب هذه المرأة بهذا الشاعر المغامر فهى غير محتاجة إلى أن تشير إليه أو تعلن اسمه فهى تحس به ملء كيانها وكأنها تتعجل هذا الرجل المخاطر تريد أن تمنعه مما هو ذاهب إليه فكأن الحذف هنا لاختصار الزمن، والذى يريده هو أن تسرع بالنصح والعتاب لعله أن ينزجر فيقلع، ما يهمها الآن هو الهدف وعليها أن تصل إليه فى أسرع زمن ممكن، قولها تساق لغبراء المقام ذحول: كناية عن القبر. وهى تتعمد التصوير القبيح للقبر حيث شبهته بالبئر المغبَّرَة التى تآكلت جوانبها وصارت لها فجوات كالكهف، وهو مشهد موحش مخيف تريد من وراء تصويرها هذا أن تردع شاعرها، وقولها «تساق» يكشف عن إيمانها بحتمية الموت وإن كان هذا التعبير: لا تكن تساق مركب من الإرادة ومن الإجبار فهى تنهاه عن السير إلى حتمية مصيره. هى تريد فى الواقع أن توضح أن الموت حتمية يساق له المرء سوقا وهذه طبيعة الموت الغلابة ولكنها فى الوقت نفسه تؤكد أن شاعرها يلعب دورًا لا إراديًا فى السير إلى حتفه، ومن هنا فهى تنهاه وتزجره بعد أن تجسد أمامه صورة القبر تجسيدًا مخيفًا مفزعًا تنتقل إلى تصويره هو بعد الموت كما مهملاً لا قيمه له بعد ذلك تأخذها عليه الشفقة فتدعو له بالنجاة من هذا المصير القاسى. ثم تستمر فى توجيه الخطاب والعتاب فهو يرمى نفسه عامدًا إلى حيث الأقدار القاسية التى تغتال الرجال. وهى تعترف أن حياة المرء مشرفة دائمًا على الهلاك يوشك الموت أن يصيب الإنسان فيبعث به إلى مكان بعيد. ويستخدم كلمة مقيل للعالم الآخر كأنه مكان الراحة يصل إليه الإنسان بعد الموت. وبعد هذا العتاب المشفق الذى يستخدم الحنو تارة والتخويف تارة تدخل القصيدة إلى أفق جديد، وهنا تتبدى لنا شمس الحقيقة الساطعة وسط ظلام الحيرة والشكوك المريرة. يصدر الشاعر حكمه الصارم – بعد أن اختبر الحياة والموت – فيجىء هذا الحكم مليئًا حتى الحافة بالمرارة

التى تشرف بالمرء على يأس من كل شيء. إن القدر الذى أحكم خيوط المصير لا يجدى معه القعود أو الرحيل: ألم تعلمى أن لا يراخى منيتى قعودى، ولا يدنى الوفاة رحيلى. ويالها من دقة فى التعبير فهو هنا يقيم نوعًا من المقابلة بين يراخى ويدنى وبين القعود والرحيل. فهو هنا يستخدم كلمة التراخى للتعبير عن الموت إن المساومة إذن ليست إلا على قليل من الزمن وحتى هذا القليل ميئوس تمامًا من الحصول عليه عن طريق القعود أو الرحيل. ولا شك أن نفور الشاعر من التخاذل وإيثار السلامة قد وجد التعبير المثالى عنه فى كلمة القعود، هذه الكلمة التى توحى بالتكاسل وضعف الهمة والسقوط. ثم يأتى هذا البيت الحاسم فى تقدير موقف هذا الفارس الشجاع الذى يخاطر وهو يعلم أن القدر ممسك بالخيوط كلها تمامًا كما يقول طرفة بن العبد:

لعمرك إن الموتَ ما أخَطَأ الفتى لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنيـاه باليـد

الشاعر يعلن وقوفه مع القدر. ياله من تضامن يكشف عن جسارة الفارس كما يكشف فى الوقت نفسه عن هذا التقبل الذى تخلقه البصيرة فى وجدان هؤلاء الذين وهبوا الحكمة وشجاعة النظر الثابت فى قلب الأشياء وكأنه شديد الحماس لهذا القدر الموقوف عليه: أى قدره الخاص. قدره وحده. إنه يتضامن معه؛ ويتبدى هذا جليًا فى البدء بالحرف مع وكأنه حذف كلمة «أنا» لاهتمامه بالمعية أكثر من اهتمامه بتأكيد ذاته. هو يعلن تضامنه مع قدره الخاص فى الحياة والموت حتى يصيبه الحمام، ثم يوضح لها موقفها منه وهو موقف يرى أنه لا جدوى من ورائه لأنه لن يغير من طباعة ولا من قدره ولا من إرادته. هو يقول لها أنها متضامنة مع الموت ضده، وأن موقفها هذا عبث كهؤلاء الذين يدعون هديل – والهديل فرخ الحمام تزعم الأعراب إنه فرخ كان على عهد نوح فمات ضيعة وعطشا فيقولون إنه ليس من حمامة إلا وهى تبكى عليه. ومن هنا سمى بكاء الحمام هديلا. وهذا تفسير أسطورى ولكن الشاعر استعار هذا الموقف الخيالى للتعبير عن استحالة إثنائه عن عزمه أو رجوعه عن فروسيته.

كداعى هديل لا يجـاب إذا دعـا ولا هو يسلـو عـن دعـاء هديـل

وبعد هذا البيت تنتقل القصيدة إلى مرحلة أخرى هى مرحلة أقرب إلى الفخر منها إلى الدفاع عن النفس فهو يعطى صورة لصفاته النادرة وأخلاقه الرفيعة، هذه الصفات التى

تأتى الشجاعة فى مقدمتها ثم الحكمة وقبول الواقع ببصيرة نافذة. يتحدث الشاعر عن وفائه ومودته وعفته وكرمه.

وذى ندب دامى الأظل قسمته ... محافظة بينى وبين زميلى
وزاد رفعت الكف عنه عفافة ... لأوثر فى زادى على أكيلى
وشخص درأت الشمس عنه براحتى ... لأنظر قبل الليل أين نزولى

وكل هذه الصور إنما ليؤكد بها الشاعر كرمه وإيثاره لغيره وحرصه على أصدقائه فهو رجل يحمى الغريب ويأوى الطريد، إلى جانب هذه الصور البليغة فهو يصور النجوم بقطيع بقر الوحش وهى تهبط من التلال:

ومنشق أعطاف القميص دعوته ... وقد سد جوْزُ الليل كل سبيل
فقلت له: قد طال نومك فارتحلْ ... وما ذاق طعم النوم غير قليل
سُحَيرًا وأعجازُ النجوم كأنها ... صوارٌ تدلى من سواء أميل

وبعد أن يعرض لنا الشاعر صورًا من كرمه يبرهن على أن الكرم لا يكون من فضل المال ولا مما يبقى بعد الاكتفاء. فالكريم يجود بما عنده ولو كان فى حاجة إليه. وهو هنا ينبه إلى خدعة تلجأ إليها نفس البخيل حين يقول لنفسه لابد من سد حاجتى أولاً قبل أن أعطى الآخرين فالذى ينتظر شبع النفس حتى يجود بماله سيجد أن حاجته لا تنقضى.

ومن لا ينل حتى يسد خلاله ... يجد شهوات النفس غير قليل

ثم يتابع الشاعر بعد ذلك عرض صفاته العالية فهو لا يقبل القبيح من الكلام بل إنه يؤكد ترفعه حتى عن سماع هذه الكلمات القبيحة فهو لا يقبل مثل هذا القبح. وهذه عفة وترفع وكبرياء، بل هو نموذج للكياسة والحذق والحرص على مودة الآخرين فهو لا يثرثر بما يغضب صاحبه. وهو يترفع عن الجهال فلا يترك نفسه يتردى إلى جهالتهم، فإذا صور علاقته بأهله وجدناه حريصًا غاية الحرص على هذه العشيرة التى تملك عليه جوانب نفسه فهو لا ينسى أهله أبدًا حتى لو أساءوا بل يعمد إلى التأمل والصبر والمفاضلة بين الاحتمالات:

وأذكر أيام العشيرة بعد ما ... أميِّل غيظ الصدر كل مميل

وهو رجل حكيم لا يسرع بقطع الأسباب بينه وبين أهله أو بينه وبين غيره من الناس رغم أنه ليس غرًا ساذجا فهو يعرف أيضًا أن الناس ليسوا ملائكة وأن الحذر منهم شيمة العاقل اللبيب، فهو لا يترك أسراره تسيل من شفتيه لأنه يعرف قيمة هذه الأسرار ولا يظهر أعماقه أمام الآخرين خوفًا من أن ينهشوا هذه الأعماق الدفينة.

ولست بمبد للرجال سريرتي وما أنا عن أسرارهم بسؤول

إنه يحترم حقوق الآخرين كذلك فى الحفاظ على أسرارهم وسرائرهم. وهذه هى الفروسية والنبل. لا يبحث لأحد عن نقطة ضعف. إنه يحمى نفسه بشرف وكرامة وتدفعه فروسيته ونبله إلى الاعتراف بنفس الحق للرجال الآخرين. وهذه صورة من صور الحرية والمساواة، ثم يختتم الشاعر قصيدته بالحديث عن مخاطرته بنفسه وأسفاره وما أجمل تعبيره.

وقد نَفَّر الليلُ النهار وألْبَسَتْ سماوةَ جونٍ مُجْنحٍ لأصيل

هو يريد أن يقول أن الليل يغالب النهار ويدفعه إلى الخروج من الكون فها هى ذى الدنيا تلبس سماء أقرب إلى لون المساء عند الأصيل.

هذه القصيدة الرائعة لكعب بن سعد الغنوى تعد دستورًا راقيًا لطراز من الرجال جديرين بخلقهم وصفاتهم أن يصنعوا عالمًا فاضلاً. فالشاعر وهو يتحدث عن نفسه لا يسقط فى الفخر الذى ينفر النفس منه وإنما هو رجل يتحدث فى لهجة أقرب إلى تطهير الذات منها إلى الاستعلاء فهو لا يذكر إلا الصفات التى ينبغى أن تكون دستور الإنسان المثالى، لقد جمع إلى الشجاعة الحكمة وإلى العفة الكرم وإلى احترام النفس احترام الآخرين، وإلى الولاء للعشيرة الخبرة بالرجال ودخائلهم. ولو قال إنسان عن نفسه هذه الصفات لعددناه متفاخرًا مباهيا مبالغا. ولكنك تخرج من القصيدة معجبا بهذه الصفات فضلا عن تجسدها وغير عابئ بصدقه أو مبالغاته. فالحقيقة أن الصياغة الرفيعة التى صيغت بها القصيدة تؤكد صدقها من ناحية وتؤكد بلاغتها النادرة من ناحية أخرى، فهى موجزة شديدة التركيز. ولكنها تضم كنزًا ثمينًا من القيم الأخلاقية والإنسانية والاجتماعية الرفيعة. وإذا كان الشاعر قد بدأ بالشجاعة والتسليم للقدر فقد أعطانا المفاتيح الأساسية للشخصية السليمة. قوة القلب وقوة العقل. هذه قصيدة شاعر بدوى اسمه كعب بن سعد الغنوى، ولكنها تقف بما تحفظه فى أبياتها من كنوز مع روائع الشعر فى كل العصور.

شاعر يرثى نفسه

لمالك بن الريب التميمى

ألا ليتَ شعرى هـل أبيتَـنَّ ليلـةً ... بجَنْب الغَضى أُزْجى القلاصَ النَّواجيا
فليت الغضى لم يقطع الركبُ عَرْضَـه ... وليتَ الغضى ماشَى الركـابَ لَيَاليـا
لقد كان فى أهل الغضى لو دنا الغَضَـى ... مـزارٌ ولكـنَّ الغضَـى ليـس دانيـا
ألم ترنى بعـتُ الضلالـة بالهـدى ... وأصبحتُ فى جيشِ ابن عفانَ غازيـا
وأصبحتُ فى أرض الأعادىً بعـدمـا ... أرانـى عن أرض الأعـادىً قـاصيَـا
دعانى الهوى من أهلِ أوْدٍ وصُحبْتـى ... بذى الطبسين فالتفـت ورائيـا
أجبتُ الهوى لما دعـانـى بزفـرةٍ ... تقنعـتُ منهـا، أنْ ألامَ، ردائيـا
أقولُ وقد حالت قُرَى الكُـرد دوننـا ... جزى الله عَمْرًا خيرَ ما كـانَ جَازيَـا
إن الله يُرْجعْنـى مـن الغـزوِ لا أرىَ ... وإن قـلَّ مـالـى طالبًا مـا ورائيَـا
تقول ابنتى لما رأت طـولَ رحلتـى ... سِفَارُكَ هـذا تاركـى لا أبـا ليـا
لعمرى، لئنْ غالتْ خُراسانُ هامتـى ... لقد كنتُ عن بَابىْ خـراسـانَ نَائيَـا
فإن أنْجُ من بابىْ خـراسـانَ لا أعـدْ ... إليهـا وإن منيتمـونـى الأمانيـا
فلله درِّى، يوم أتـركُ طائعًـابَنـىّ ... بـأعلـى الرقمتيـن ومالـيـا
ودرُ الظباء السـانحـاتِ عشيـةً ... يَخَبَّرْنَ – أنى هالـكٌ – مـن ورائيـا
ودرِّ كبيـرىَّ اللذيـن كـلاهمـا ... علىَّ شفيقٌ نـاصـحٌ لـو نَهَـانِيـا
ودرِّ الـرجالِ الشاهديـن تفتـكـى ... بـأمـرىَ ألا يُقْصِرُوا مـن وَثَاقيـا
ودرِّ الهوى من حيث يدعو صحَابَـهُ ... ودرُّ لجَاجَـاتِـى ودرّ انتهـائِيـا
تذكرتُ من يبكى علـىَّ فلـم أجـد ... سوى السيفِ والرمح الردينىِّ باكيـا
وأشقـرَ محبـوكٍ يجـرُ لجَـامـه ... إلى الماء لم يترك له المـوت ساقيـا
ولكنْ بـأكنـاف السمينـةِ نسـوةٌ ... عزيزٌ عليهـنَّ العشيـة مـا بيـا
صريعٌ عْلى أَيدى الرجـالِ بقفـرةٍ ... يُسَوّون لحدى حيث حُـمَّ قَضَائيـا
ولما تـراءتْ عنـد مـروٍ منيتـى ... وخلَّ بها جسمى وحانـت وفاتيَـا

أقولى لأصْحَابى ارفعـونـــى فإنـــه ... يَقَرُّ بعينـى أنْ سهيـلٌ بـدا ليـا
فيا صاحبىْ رَحْلى دنا الموتُ فانـزلا ... بـرابيـة.. إنـى مقيـمٌ لياليـا
أقيما علىَّ اليـومَ أو بعـضَ ليلـةٍ ... ولا تَعْجَلانـى قـد تبيـن شانيـا
وقُوما إذا ما اسْتُـل روحـى فهيئـا ... لى السِّـدَرَ والأكفـانَ عنـد فَنائيَـا
وخطا بأطرافِ الأسنـةِ مضجعـى ... وردا علـىَ عينـىَّ فضـلَ ردائيـا
ولا تَحْسُدانـى بـارك الله فيكمـا ... من الأرضِ ذاتِ العَرضِ أن تـوسعا ليا
خذانى فَخُرَّانـى بيـردى إليكمـا ... فقد كنتُ قبلَ اليـوم صعبًـا قياديـا
وقد كنت عطَّافًا إذا الخيـلُ أدبـرتْ ... سريعا إلى الهيجَـا إلى من دعانيـا
وقد كنت صبَّارًا على القِرْنِ فى الوَغـى ... وعن شتمى ابن العم والجـار وانيـا
فطورا ترانـى فـى ظـلالٍ ونعمـةٍ ... ويومًا ترانـى والـعتـاقُ ركـابيـا
ويومًا ترانى فى رحـى مستـديـرةٍ ... تُخَرِّقُ أطرافُ الـرمـاحِ ثيـابيـا
وقوما على بئـرِ السمينـة أسْمِعـا ... بها الغُرَّ والبيض الحِسـانَ الروانيـا
بـأنكمـا خَلَيْتُمـانِـى بقنـرةٍ ... تُهيلُ علىَّ الريحُ فيهـا السـوافيـا
ولا تنسيا عهدى خليلىَّ بعـد مـا ... تَقطعُ أوصالـى وتَبْلـىَ عِظاميـا
ولن يعدِم الوالون شيئـا يصيبهـم ... ولن يعدم الميراثَ منـى المواليـا
يقولون لا تبعُـدْ وهـم يدفنـوننـى ... وأيـن مكـانُ البعـد إلا مكـانيـا
غداةَ غدٍ يالهفَ نفسى علـى غـدٍ ... إذا أدلجوا عنى وأصبحـتُ ثاويـا
وأصبحَ مالى من طـريـفٍ وتالـدٍ ... لغيرى وكان المالُ بالأمـس ماليـا
فياليتَ شِعْرِى هل تغيرتِ الرَّحـى ... رحـى المثلِ أو أمْسَتْ بَفلج كما هـيا
إذا الحُىُّ حلوهـا جميعـا وأنـزلـوا ... بها بقرًا حُـمَّ العيـونِ سَـواجيـا
وهل أتركُ العيس العُبَالـىَّ بالضحـى ... بركبانها تعلـو المتَـان الديافيـا
إذا عُصَـبُ الركبـانِ بيـن عنيـزة ... وبـولان عاجوا المبقيـات النواجيـا
فياليتَ شِعْرِى هل بكـت أمُ مالـك ... كما كنتُ لو عالـوا بنعيـك باكيـا
إذا مِتُّ فاعتـادى القبـورَ وسلمـى ... على الرمس أسْقِيتِ السحَابَ الغـواديا
على جدث قد جَرَّتْ الـريـحُ فوقـه ... ترابًا كسحق المرنبـانـىِّ هابيـا
رهينةُ أحجـار وتـربٍ تضمنـت ... قراراتها منـى العظـامَ البـواليـا

فيا صاحبى، إما عـرضْـتَ فبلغـنْ بنى مازن والريـبَ أن لا تـلاقيـا
وعطل قلوصى فى الركـاب فإنهـا ستغلـق أكبـادًا وتبكـى بواكيـا
وأبصرت نار المـازنيّـات موهنـا بعلياء يثنى دونها الطـرف وانيـا
وإنى بعيـد الـدار ثـاو بقفـرة يدَ الدهر، معروفًا بـأن لا تدانيـا
أقلِّبُ طرفى حول رَحْلـى فـلا أرى به من عيـون المؤنسـات مراعيـا
وبالرمال منا نسـوةٌ لـو شهدننـى بكين وفدَّيـن الطبيـبَ المـداويـا
وما كان عهدُ الرملِ عنـدى وأهلـه ذميمًا ولا ودَّعْـتُ بالـرمل قاليـا
فمنهـن أمـى وابنتاهـا وخالتـى وباكيـةٍ أخـرى تَهيـجُ البَوَاكيـا

شاعر هذه القصيدة الرائعة هو مالك بن الريب التميمى من شعراء الإسلام فى بداية العهد الأموى. وأخباره القليلة والمتناثرة تؤكد أنه كان شجاعا فاتكا وقاطع طريق على نهج صعاليك ذلك الزمان. وهو يتحدث فى شعره عن شجاعته ومواقعه بل يعترف صراحة فى أحاديثه أنه قاطع طريق وكان له رفقه من أصحابه يسومون الناس شرا فطلبهم مروان بن الحكم وهو عامل على المدينة فهربوا وكتب إلى الحارث بن حاطب الجمحى وهو عامله على بنى عمر بن حنظلة يطلبهم فهربوا ولكن الحارث استطاع أن يقبض على مالك بن الريب واصحابه وبينما يسوقهم جند الحارث استطاع مالك لخفة حركته وسرعته أن يفلت منهم ويقتلهم ويخلص رفاقه ثم هربوا إلى البحرين ثم إلى فارس. وكان سعيد بن عثمان بن عفان واليا فى ذلك الوقت على خراسان. وقد بلغه ما يشيعه مالك بن الريب وأصحابه من الفزع والرعب فى قلوب الناس فلقى مالكا ورآه من أجمل الناس وجها وأحسنهم ثيابا فأعجب سعيد فقال له: مالك ويحك تفسد نفسك وتقطع الطريق وما يدعوك إلى ما يبلغنى عنك من العبث والفساد وفيك هذا الفضل. قال: يدعونى إليه العجز عن المعالى ومساواة ذوى المروءات ومكافأة الإخوان، قال: فإن أنا أغنيتك واستصحبتك، أتكف عما تفعل؟ قال أى والله أيها الأمير أكف كفا لم يكف أحد أحسن منه، فاستصحبه وأجرى له خمسمائة درهم فى كل شهر ومن الواضح أن مالك بن الريب بالهيئة واللسان اللذين كان عليهما لا يجعلان منه مجرد قاطع طريق أو لص، وإنما هو فارس شجاع يرى أن ما هو متاح له من الأعمال لا يكافئ طموحه إلى المعالى، فرأى فى قطع الطريق نوعا من الصراع الفردى ضد عالم لا يهمه منه إلا أن يجد فيه حظًا موفورًا من الكبرياء وعلو الشأن ويبدو

أنه كان يشعر بأن هذا العمل يخالف سنة المجتمع الذى نشأ فيه بل ويتنافى مع الدين الذى ارتضاه والذى كان الإيمان به واضحا فى شعره، ومن هنا فإنه قد انتهز الفرصة التى عرضت عليه لإظهار شجاعة حقيقية فى ميدان الجهاد من شأنها أن تكسبه المعالى التى كان يتوق إليها، وقد ارتاح لهذا الاختيار لأنه يلائم روحه ومزاجه فهو إذن فارس ضل طريقه ثم اهتدى إلى هذا الطريق فبادر إلى انتهاجه. وكتب الأدب والأغانى خاصة تلتمس فى حياة مالك من الأحداث والقصص الغرامية التى تناسب المجتمع الذى كان قائمًا فى العصر الذى وضع فيه كتاب الأغانى فهم يقولون إن سبب رحيل مالك بن الريب إلى فارس حيث لقى سعيد بن عثمان بن عفان هو الخجل من الهزيمة فى الحب أمام توبة بن الحمير فيروون أن مالكا قد مر بليلى الأخيلية فجلس إليها يحادثها طويلا وأنشدها فأقبلت عليه وأعجبت به حتى طمع فى وصلها، ثم إذا بفتى قد جاء إليها كأنه نصل سيف فجلس إليها فأعرضت عن مالك وتهاونت به وأقبلت على صاحبها مليا من نهارها فغاظه ذلك من فعلها وأقبل على الرجل فقال: من أنت؟ قال: توبة بن الحمير، فقال: هل لك فى المصارعة؟ قال: وما دعاك إلى ذلك وأنت ضيفنا وجارنا؟ قال: لابد منه. فظن أن ذلك لخوفه منه فازداد لجاجا فقام توبة فصرعه فخجل، وقال: لا أقيم فى بلد العرب أبدًا. ويبدو أن القصة مفتعلة ومصنوعة لتسلية المجتمع العباسى. وحين هم مالك بن الريب بالذهاب مع سعيد بن عثمان بن عفان تعلقت ابنته بثوبه وبكت وقالت له: أخشى أن يطول سفرك أو يحول الموت بيننا فلا نلتقى فبكى وأنشأ يقول:

ولقد قلت لابنتى وهى تبكى ... بدخيل الهموم قلبا كئيبا
وهى تذرى من الدموع على الخدين ... من لوعة الفراق غروبا
عبرات يكدن يحرقن ماجزن ... به أو يدعن فيه ندوبا
حذر الحتف أن يصيب أباها ... ويلاقى فى غير أهل شعوبا
اسكتى قد حززت بالدمع قلبى ... طالما حز دمعكن القلوبا
فسلى الله يدفع الله عنى ... ريب ما تحذرين حتى أؤوبا
ليس شىء يشاؤه ذو المعالى ... بعزيز عليه فادعى المجيبا
ودعى أن تقطعى الآن قلبى ... أو تَرَىْ فى رحلتى تعذيبا
انا فى قبضة الإله إذا كنت بعيدا ... أو كنت منك قريبا

كم رأينا امرأ أتى من بعيد ومقيما على الفراش أصيبا
فدعيني من انتحابك إنني لا أبالي إذا اعتزمت النحيبا
حسبي الله ثم قربت للسير علاوة أنجب بها مركوبا

إن هذه الأبيات القليلة تؤكد إيمان مالك بن الريب بالله فهو حسبه وكافيه وهو فى قبضة الإله سواء فى قربه من ابنته أو بعده عنها فهو يؤكد لها أنه شديد العزيمة لاتثنيه الدموع، وفعلا رحل الشاعر مع الأمير سعيد. ويبدو أنه قد أتم مهمته العسكرية على أفضل وجه وخلال العودة من المعارك إلى ديار أهله فاجأه المرض وربما كان قد أصيب فى معركته تلك. والرواة يذكرون المرض لا الإصابة فلما أشرف على الموت تخلف معه رجلان من قومه بنى تميم. وكان ميلاد هذه القصيدة الشهيرة التى مات بعدها فىالموقع الذى ثقلت عليه العلة. ويروى الأصفهانى عن أبى عبيدة أن مالك بن الريب لم يقل من قصيدته إلا ثلاثة عشر بيتا والباقى منحول ولّده عليه الناس:

دأب المؤرخون للأدب والأدباء على وصف قصيدة مالك بن الريب بأنها فى رثاء نفسه أو شاعر يرثى نفسه. ونحن نعرف أن الرثاء هو التفجع على الموتى وذكر مناقبهم. أما إذا طالعنا هذه القصيدة فإننا نرى فيها صورة درامية لموقف الشاعر من الموت بعد أن تأكد من حتمية مصيره الفاجع، وهى بموضوعها تعبر عن الموقف النموذجى للتجربة الشعرية حيث يواجه الشاعر المستحيل والمطلق معا فبين إرادة وحتمية الموت تنصهر كل عواطف الشاعر وأفكاره. وتتفجر من هذا الوضع المأسوى صور القصيدة التى تعبر فى صدق نادر عن حب طاغ للحياة. ولا يكاد اسم الرثاء يصح وصفا لها وإنما هى قصيدة «وداع للحياة» هذا الوداع القاسى ينطوى على الكثير من دلالات الوجود بما فيه من منطق ولا معقولية. بما فيه من سعادة وحزن. وتدور القصيدة بصورها وأفكارها ودموعها ونشيج موسيقاها حول أركان ثلاثة هى صورة الوطن وفجيعة الأهل والإشفاق على النفس من الموت، وقف الشاعر وصاحباه عند مرو فى خراسان بعد أن ثقلت عليه العلة وأيقن من الموت. والمكان يستثير المكان. فكما أن إلحاح صورة المكان – الوطن – القريب من النفس والقلب والوجدان – يبدأ الشاعر القصيدة بتصوير وطنه السمينة – حيث يكثر شجر الغضا فى هذا الوادى الذى يقترب من اليمن، لأنه يذكر سهيلا كمرشد إليه وسهيل نجم يطل من ناحية اليمن كما يقولون. وعجيب أن يذكر الشاعر وطنه بشجر الغضا، وهو شجر خشبه من أصلب

الخشب وجمره يبقى مدة طويلة، والشاعر يبدأ بمناجاته لمطابقة دلالة هذا الشجر لمعنيين يترددان فى نفس الشاعر هما معنى الحياة والشجر رمز جميل للحياة ومعنى آخر هو دوام اتقاد الحسرة فى نفسه على هذا الهلاك المبكر. وما أرق الشاعر وهو يتمنى أن يبيت ليلة بجنب شجر الغضا، أى يتمنى ليلة فى وطنه يواصل حياته العادية، وليت الغضى قد ساير الركب قليلاً حتى لا تنقطع عنه صورة الوطن فقد كان شيئا محببا إلى نفسه أن يزور هذا الوادى الطيب لو كان قريبًا منه، ولكنه ليس بالقريب الآن ليزار. وبعد أن تلمع صورة الوطن فى ذاكرة تجاهد لتعرض أمام الشاعر آخر مشاهد الحياة يقسو باللوم والتقريع لأنه تبع سعيد بن عثمان بن عفان فى هذه الرحلة التى أودت بحياته وغربته عن دياره، لقد بدد ما لديه بعد أن ضل ضلالا شديدا وباع الهدى وأصبح مقاتلاً فى هذا الجيش. والشاعر لا يحدثنا عن هذه الموقعة التى كان فيها ربما لإنه يرى أن ما يواجهه أخطر من أن ينشغل بغيره ويترك ذاكرته تنساق وراء الرجاء والتمنى وخيالات الأوهام التى يدرك هو أنها غير مجدية، وكأنه يحاول التكفير عن ذنبه فيؤكد أنه لو عاد إلى أهله من هذا السفر فسوف لا يعود إلى ذلك مرة أخرى. وبين مشاهد الوطن وتقريع النفس والعزم والتمنى تلوح صورة ابنته التى تقول له أن سفرك هذا يتركنى بلا أب يرعانى. وكأن هذا الصوت هو الذى يغذى فى نفسه الإحساس بالذنب فيعزم على عدم العودة إلى خراسان مرة أخرى، وكأنه يهجس لنفسه: ما كان أبعدنى عن بابى خراسان فما الذى أتى بى إلى هنا. وكما تتناثر صورة الوطن فى القصيدة كذلك تتناثر صورة الأهل. وهو يحدد أهله بأبيه وأمه وابنتيه وزوجته، هؤلاء هم كل أسرته التى يحن إليها ويكاد يجن شوقا وهو يدعو لنفسه وأهله وقومه ونساء قومه ومشاعر الحب التى يدخرها لهم يدعو لكل ذلك وهؤلاء بالخير. وهم يثيرون فى نفسه بقوة صورة نفسه الوحيدة المغتربة وكما يطرح النقيض نقيضه فى القصيدة كلها فإن صورة الجمع تطرح صورة المفرد وصورة الأهل تستدعى صورة الغربة.

تذكرت من يبكى علـى فلـم أجـــد سوى السيفِ والرمح الردينى باكيـــا

إنه يشفق على نفسه إشفاقا رقيقا يتذكر معه صورة الوحشة التى هو عليها فليس ثمة من قريب منه يعرف ما هو إلا سيفه، ورمحه وحصانه الأشقر القوى الذى يسعى إلى الماء للشرب وحيدًا بعد أن أخذ الموت ساقيه هؤلاء هم رفقته الذين يقهرهم بكاؤهم عليه عند موته. ولا تفوتنا صورة الإشفاق على الجواد أيضا حيث يُشير إليه بأنه لم يترك له الموت

ساقيا. وكأن الشاعر قد نبه إلى أن هذه الأشياء التى ينتظر منها الإشفاق عليه لا تحس ولا تعقل فيعود ليشير إلى أن نسوة السمينة يعز عليهن ما هو فيه. ويرسم الشاعر بعد ذلك بالحوار الدرامى مشهد الترقب المرير وهو يطلب من صاحبيه أن يرفعاه قليلاً فقد تبين أن الأمر جد لا هزل فيه، وأن الموت لا محالة نازل به وهو يوصيهما بأن يوسعا له فى القبر. وتثير هذه المشاعر فى نفسه، حيث يبدو عاجزا سهل القياد لا حول ولا قوة ولا ارادة، صورة أخرى – كما قلنا – صورة الرجل القوى الذى كان صعب القياد صبورًا على نده فى الحرب. هنا يذكر شجاعته وسرعته إلى ميدان القتال لنجدة من دعاه وبينما كان قويا على عدوه كان هينا لينا مع أهله وجيرانه.

وقد كنت صبارا على القرن فى الوغى وعن شتمى ابن العم والجـار وانيـا

فهو يتراخى فى الإساءة إلى المقربين ويسرع فى الأذى للأعداء.

تمتد القصيدة لتنسج بالدموع والندم مشاعر الإشفاق على النفس. هذا الإشفاق الذى يتلمس المشاركة والإحساس بأن من تركهم خلفه سوف يعرفون خسارتهم فيه، وهو واثق من مشاعر أهله تجاهه، هذه التى أنبتها وغذاها هو بأفعاله معهم فهو يوصى صاحبيه بأن يذهبا إلى السمينة ويعلنا نعيه على الملأ. وإشارته إلى النساء الجميلات تعكس ولعه بالجمال وأنه كان عاشقا للنساء فقد ورد ذكر هؤلاء الحسان مرارا فى القصيدة:

وقوما علـى بئـر السمينـة أسْمِعـا بها الغر والبيض الحِسان الروانيـا
بأنكمـا خليتمـانـى بقفـرة تهيل علىَّ الريح فيهـا السوافيـا

يود الشاعر من كل قلبه وهو يموت أن يطمئن على أن مشاعر الحب والحنان تغمر قلوب أهله وعشيرته ومعجباته من النساء حزنا على وفاته فى الغربة، وهو يتوسل بهذه الصورة الأليمة للطريقة التى مات بها. ثم يستطرد الشاعر بعد ذلك فى هذا الإشفاق على النفس فنجده يرق ويصفو ويهفو إلى المستحيل.. الحياة. وتمتد عباراته فى صيغة بالغة البساطة والعمق والصدق.

يقولـون لا تبعُـدْ وهـم يدفنوننـى وأيـن مكـانُ البعـد إلا مكانيـا
وأصبحَ مالـى مـن طريـفٍ وتالـدٍ لغيرى وكان المالُ بالأمـس ماليـا

إنه يتفجع على هذا المال الذى سوف يؤول لغيره وقد كان له من قبل، ثم يعرض

لصور الحياة فى قومه وكأنه يودع فيها هذه السعادة والراحة والطمأنينة والحب وهو يولى عن الدنيا ويتشبث مرة أخرى بهذا المعنى الذى يردده طوال القصيدة وهو الاطمئنان إلى مشاعر الحب عند أهله، وهل يضمرون له ما يستحقه فارس مثله من تقدير عظيم واعتزاز جدير بمكانته؟ وهل تتغير شخصية الشاعر الشجاع فيفقد الثقة فى مكانته فى قلوب قومه؟ فهويطلبها دائمًا فى القصيدة. أم أنه يلتمس فى هذه المشاعر لونا من الحياة تكون عوضا عن الحياة الحقيقية التى يودعها الآن؟ أغلب الظن أن الشاعر يبحث وهو يرى فناء الحياة عن لون من الخلود. لون من البقاء، نوع من الوجود فى الخلف الباقى من أهله وعشيرته والمعجبات به. هل هو تشبث بالحياة حتى بعد فناء الحياة ونوع من التعلل بالأوهام؟

فياليت شعرى هل بكت أم مالـــك كما كنت لو عالــوا بنعيــك باكيـــا
إذا مت فاعتــادى القبــور وسلمـــى على الرمس أسقيت السحاب الغواديا

يعود الشاعر إلى أحضان أمه فيوصيها بأن تذهب إلى القبور تلتمس فيها إيناس الوحشة التى خلفها موته. والشاعر يعطى لعقله أحيانا فرصة للسيطرة على مشاعره حتى يصدع بالأمر الذى ليس منه بد فالحقيقة ساطعة والأوهام باطلة.

فيا صاحبى، إما عــرضـت فبلغـــن بنـى مــازن والريــب أن لا تلاقيـــا

هذه هى الحقيقة وما سواها باطل لا جدوى من التشبث به، وما أجمل ختام القصيدة حيث يجمع الأهل والوطن والزمان الذى يضم الاثنين فى زفرة تجمع بين الحسرة والتمنى والتلظى بهذا الفراق الأخير.

وما كان عهد الرمل عنــدى وأهلـــه ذميمــا ولا ودعــت بالرمــل قاليـــا

ينطوى البيت على الندم والحب العظيم لكل شىء فى وطنه إنها نهاية توشك أن تكون عزاء فى الوقت نفسه، والقصيدة خالية من اللفظ الغريب والتركيب المتكلف والصورة المعقدة فهى صورة خالدة لمأساة الإنسان فى مواجهة الموت. وهو إنسان محب للحياة ولكل ما فيها، وهو يضطر للتسليم بالحقائق الأليمة فى الوجود. هذه الحقائق التى يمثل الموت ذورة اليقين فيها جميعا.

«المؤنسة»

لقيس بن الملوح – مجنون ليلى

تذكرتُ ليلى والسنيـــن الخواليـــا ... وأيامَ لا نَخْشَى على اللَّهْـو ناهيَـــا
ويوم كظِّل الرَّمْـح قَصَّـرْتُ ظِلـــه ... بليلى فَلهَّانى ومـا كنـتُ لاهيَـــا
بَثْمدَيِن لاحتْ نار ليْلى وصُحْبتـــى ... بذاتِ الغَضى تُزْجِى المطِىَّ النَّواجيَا
فقال بصيرُ القوم ألمحـتُ كوكبـــا ... بدا فى سواد الليـل فَـــردًا يمانَيـــا
فقلت له: بل نـارُ ليلـــى تَوقـــدت ... بَعَلْيا تَسَامَى ضوءُهـــا فبـــدا ليـــا
فليت ركابَ القوم لم تقطع الغَضَـــى ... وليتَ الغَضى ماشَى الركابَ لياليـــا
فياليل كمْ من حَاجـة لـــى مهمـــةٍ ... إذا جِئتكُم بالليـل لـــم أدْر ماهِيـــا
خليلـىَّ إن لا تبكـــانـــى ألْتَمـــسْ ... خليلا إذا أنْزَفْتُ دمعىَ بَكَـى ليَـــا
فما أشـــرفُ الأيفـــاعَ إلا صبَابـــةً ... ولا أنشُـــدُ الأشْعَـــارَ إلا تـذَوايـــا
وقد يجمعُ الله الشتيتين بعـد مـــا ... يَظُنَّان كـلَّ الظـنَّ أنْ لا تـــلاقيـــا
لحى اللهُ أقوامًـــا يقـــولون إننـــا ... وجدنا طوالَ الدَّهْر للحبِّ شافيـــا
وعهدى بليلى وهـــى ذاتُ مُوَصَّـــدٍ ... تردَّ علينـا بـالعَشِـــىِّ المواشيـــا
فشب بنو ليل وشَبَّ بنـــو ابنهـــا ... وأعلاقُ ليلى فى فؤادى كمـا هيـــا
إذا ما جلسنـــا مجلسًـــا نستلـــذه ... تَوَاشُوا بنـا حتـــى أمَـــلَّ مكانيـــا
سَقى الله جاراتٍ لليلـــى تباعـــدت ... بهن النوى حيث احتلـن المطـــالا
ولم ينسنى ليلى افتقـارٌ ولا غنـــىً ... ولا توبةٌ حتى احتضنت السواريـــا
ولا نسوةٌ صَبَّغْـن كَبْـدَاء جَلعَـــدًا ... لتُشْبهَ ليلـى ثـــم عَرَّضْنَهـــا ليَـــا
خَليلـــىَّ لا والله لا أملـــك الـــذى ... قضى اللهُ فى ليلى ولا ما قضىَ ليَـــا
قَضاها لغيرى وابتلانـــى بحبهـــا ... فهلا بشـــىء غير ليلى ابتلانيـــا
وخَبَّرْتمانـــى أن تيمـــاء منـــزلٌ ... لليلى إذا ما الصَّيف ألقَى المراسيـــا
فهذى شُهورُ الصَّيْفِ عنا قد انقضت ... فما للنوى ترمى بليلـى المراميـــا

فلَــو أنَّ واشٍ بـاليمـامـــة دارُه ... وداري بأعلى حَضْرَمَوْتَ اهتـدى ليا
وماذا لهم لا أحســن الله حالهـم ... من الحظ في تصريم ليلـى حباليـا
وقد كنتُ أعلو حبَّ ليلى فلم يـزل ... بي النَّقضُ والإبرامُ حتـى علانيـا
فيا رب سوِّ الحبَّ بينـي وبينهـا ... يكـون كَفَافـا لا علـيَّ ولا ليَـا
فما طلعَ النَّجْمُ الذي يهتـدى بـه ... ولا الصُّبْحُ إلا هيجَا ذِكْرَهَـا ليَـا
ولا سرتُ ميلاً من دمشق ولا بـدا ... سهيلٌ لأهل الشـام إلا بـدا ليـا
ولا سميت عندي لها مـن سَمِيـة ... من الناس إلا بـلَّ دَمعـي ردائيـا
ولا هبَّت الريحُ الجنـوبُ لأرضهـا ... من الليل إلا بتُّ للـريـح حانيـا
فإن تمنعوا ليلى وتحموا بـلادَهـا ... عليَّ فلنْ تحمـوا علـيَّ القـوافيـا
فـأشهد عنـد الله أنـي أحبُّهـا ... فهذا لها عندي فما عندهـا ليـا
قضى الله بالمعروف منها لغيرنـا ... وبـالشوق مني والغرام قضى ليـا
وإن الذي أمَّلْـتُ يـا أم مالـك ... أشاب فُوَيْـدي واستهـام فؤاديـا
أعدُّ الليالـي ليلـةً بعـد ليلـةٍ ... وقد عِشْتُ دهرا لا أعـد الليـاليـا
وأخرجُ من بين البيـوتِ لعلنـي ... أحدِّثُ عنكِ النفسَ بالليـل خَاليـا
أراني إذا صَلَّيْتُ يَمَّمْت نحـوهـا ... بـوجهي وإن كان المُصَلَّـيَ وَرَائيـا
وما بي إشـراكٌ ولكـنَّ حُبَّهـا ... وعُظْمَ الجـوى أعيا الطبيب المداويا
أحبُّ من الأسماءِ ما وافـق اسمهـا ... أو أشبهـه أو كـان منـه مدانيـا
خليليَّ ليلى أكبرُ الحَاجِ والمنـى ... فمن لي بليلى أو فمن ذا لهـا بيـا
لَعَمْرِي لقد أبْكيْتني يـا حمـامـة ... العَقِيقِ وأبكيتِ العيونَ البـواكيـا
خليليَّ ما أرْجو من العيش بَعْدَمَـا ... أرىَ حاجتي تُشرىَ ولا تُشْتَـرى ليا
وتُجْرِمُ ليلى ثـم تَزْعُـم أننـي ... سلوتُ ولا يخفَى على الناسِ ما بيَا
فلم أرَ مثليْنَـا خليلـيْ صَبَابـةٍ ... أشدَّ على رغـم الأعـادي تصافيـا
خليلان لا نرجو اللقاءَ ولا نـرى ... خليلين إلا يرجـوان تـلاقيـا
وإني لأستحييك أن تعْرِضَ المنَـى ... بِوصْلك أو أن تعرضي في المنى ليا
يقول أناسٌ عِلَّ مجنـونَ عامـرٍ ... يرومُ سُلوا قلـتُ أنَّـي لمـا بيـا
بي اليأس أو داءُ الهَيَام أصـابنـي ... فإياك عنِّي لا يكن بـك مـا بيـا

اذا ما استطال الدهر يـا أم مالـك ... فشأنَ المنايا القاضيـات وشانيـا
إذا اكتحلتْ عيني بعينك لم تـزل ... بخيرٍ وجلَّتْ غمرةً عـن فـؤاديـا
فأنتِ التي إن شئتِ أشقيت عيشتي ... وأنتِ التي إن شئت أنعمتْ باليـا
وأنت التي ما من صديـق ولا عـدا ... يرى نضوَ ما أبقيت إلا رثَـى ليـا
أمضروبة ليلَى علـىَ أنْ أزورهَـا ... وُمتَّخِذٌ ذنبًـا لهَـا أنْ تـرانيـا
إذا سرتُ فى الأرضِ الفضاء رأيتُنِى ... أصانعُ رَحلى أن يميـلَ حيَاليـا
يمينًا إذا كانتْ يمينًـا وإن تكـن ... شِمالا ينازعنى الهوى عَن شَماليـا
وإنى لأستغشى ومـا بـى نَعْسَـةٌ ... لعل خيـالا منـك يلقـىَ خياليـا
هى السحـرُ إلا أن للسحـر رقيـةً ... وأنى لا ألفى لهـا الدهَّـرَ راقيـا
إذا نحـن أدْلجْنـا وأنـتِ أمَامنـا ... كفى لمطايانـا بذكـراك هاديـا
ذكتْ نارُ شوقى فى فؤادى فأصبحت ... لها وهجٌ مستضَـرمٌ فـى فـؤاديـا
ألا أيها الركبُ اليمانـون عَرِّجُـوا ... علينا فقـد أمسـى هوانـا يمانيـا
أسائلكم هل سال نَعْمَـانُ بعدنـا ... وحب إلينا بطـن نعمِـان واديـا
ألا يا حَمَامَىْ بطن نعمـانَ هجْتُمـا ... علـىَّ الهـوى لمَّـا تغنَّيتُمَـا ليـا
وأبكيتمانى وَسْطَ صَحْبى ولم أكـن ... أبالى دموعَ العين لو كنـت خاليـا
ويـا أيهـا القُمْـرِيَّتـانِ تجـاوبـا ... بِلحْنَيكمُا ثم اسْجَعَـا علـلانيـا
فإن أنتما استطـربتمـا أو أردتمـا ... لحاقا بأطلال الغضـى فاتبعـانيـا
ألا ليتَ شَعرِي ما لليلى ومـا ليـا ... وما للصبا من بعـدِ شَيْـب علانيـا
الا أيها الواشى بليلـى ألا تـرى ... إلَى من تشيها أو بمن جئت واشيـا
لئن ظعـنَ الأحبـابُ يـا أمَّ مالـكٍ ... فما ظعنَ الحبُّ الذى فى فـؤاديـا
فيا ربَّ إذ صَيَّرت ليلىَ هى المنـى ... فَزِنِّى بعينيها كمـا زِنْتهـا ليـا
وإلا فبغِّضْهَـا إلـىَّ وأهلَهـا ... فإنى بليلى قـد لقيـتُ الدواهيـا
على مثل ليلى يقتل المـرء نَفسـهَ ... وإن كنتُ من ليلى على اليأس طاويا
خليلىّ إن ضَنـوا بليلـى فَقِّـربـا ... لىَ النعش والأكْفَانَ واستغفرا ليـا

وردتْ هذه القصيدة فى كثير من المصادر منسوبةً لأمير العشاق قيس بن الملوح بن مزاحم بن عدس بن ربيعة المعروف بمجنون ليلى. وكان قد أحب ابنة عمه ليلى بنت سعد بن مهدى بن ربيعة. وأنشد فيها شعرا جميلا عذبا تقبله الأذواق والنفوس بإعجاب شديد فذاع وشاع بين القبائل حتى عرف أمر غرامه بليلى وكلفه الشديد بها. وكان حبه قويا زلزل روحه وأضعف جسده مما دعا أهله إلى محاولة خطبة ليلى له وتزويجه إياها ولكن أباها رفض هذا الزاوج عملا بالتقليد المعروف لدى القبائل فى ذلك الحين بحرمان من يشبب بامرأة من الزواج بها دفعًا للظنون وإسكاتا للألسنة التى قد يجمح بها الخيال إلى تصور أن ما جاء فى القصائد إنما هو حقائق واقعة وأن الزواج ليس إلا سترًا لهذه الحقائق.

وتدخل الشفعاء والوجهاء والأمراء لعل والد ليلى يرق لهذا العاشق ويزوجه ابنته ولكنه أبى إلا العناد. ويروى صاحب الأغانى أخبار هذه المساعى الخائبة لدى هذا الوالد العنيد فيقول إن أبا المجنون وأمه ورجال عشيرته اجتمعوا إلى أبى ليلى فوعظوه وناشدوه الله والرحم. وقالوا له: إن هذا الرجل لهالك، وإنك فاجع به أباه وأهله فنشدناك الله والرحم أن تفعل ذلك فو الله ما هى أشرف منه ومالك مثل مال أبيه وقد حكمك فى المهر وإن شئت أن يخلع عليك ماله فعل. فأبى وحلف بالله وبطلاق أمها أنه لا يزوجه إياها أبدًا وقال: أفضح نفسى وعشيرتى وآتى ما لم يأته أحد من العرب وأسمُ ابنتى بميسم الفضيحة. فانصرفوا عنه. وخالفهم لوقته فزوجها رجلاً من قومها وأدخلها إليه فما أمسى إلا وقد بنى بها: وبلغه الخبر فأيس منها حينئذ وزال عقله جملة فقال الحى لأبيه: احجج به مكة وادع الله عز وجل له. ومره أن يتعلق بأستار الكعبة فيسأل الله أن يعافيه مما به ويبغضها إليه. فلعل الله أن يخلصه من هذا البلاء، فحج ابوه فلما صاروا بمنى سمع صائحا فى الليل يصيح يا ليلى، فصرخ صرخة ظنوا أن نفسه تلفت وسقط مغشيا عليه فلم يزل كذلك حتى أصبح حائل اللون ذاهلا، ثم قال له أبوه: تعلق بأستار الكعبة واسأل الله أن يعافيك من حب ليلى، فتعلق بأستار الكعبة وقال: اللهم زدنى لليلى حبا وبها كلفا ولا تنسنى ذكرها أبدًا فهام حينئذ واختلط عقله فلم يضبط. قالوا فكان يهيم فى البرية مع الوحش ولا يأكل إلا ما ينبت فى البرية من بقل ولا يشرب إلا مع الظباء إذا وردت مناهلها، وطال شعر جسده وألفته الظباء والوحوش فكانت لا تنفر منه، وجعل يهيم حتى بلغ حدود الشام فإذا ثاب عقله سأل من يمر به من أحياء العرب عن نجد فيقال له: وأين أنت من نجد

فقد شارفت الشام؟ أنت فى موضع كذا فيقول فأرونى وجهة الطريق فيرحمونه ويعرضون عليه أن يحملوه أو يكسوه فيأبى فيدلونه على طريق نجد فيتوجه نحوه. جن قيس إذن وضاع عقله وهزل جسمه وتناقل الناس سيرته وشعره وتزوجت ليلى بالرجل الثرى «ورد» الذى اختاره لها أبوها. ويسقط المجنون ميتا بين أحجار الشعاب التى كان يفر إليها من ظلم العادات والتقاليد. يسقط ميتًا لتبقى قصة حبه وشعره أغنية الأجيال. عذبة بقدر ما فيها من حزن. ولتصير ليلى واحدة من أخلد المعشوقات فى تاريخ الأدب، ويظل قيس واحدا من أشهر عشاق العرب الشعراء. ويترك لنا الشاعر ديوانا يوشك أن يكون تجربة واحدة فى الحب والعذاب، حب واحد ومأساة واحدة وعذاب شديد متنوع الصور يبدأ بالفرح العظيم ويتطور إلى الجنون لينتهى بالموت المأسوى بين شعاب الصحراء لا يؤنسه إلا الوحش الذى كان أرفق من بعض البشر. ويشك الكثيرون فى سيرة قيس وفى وجوده أصلا ويتعرض شعره أيضًا للإضافة والحذف، فالبعض يضيف إليه ما ليس له، والبعض الآخر ينسب شعره لغيره. وهذه الاحتمالات التى تحيط بوجود قيس وشعره تثير وتضاعف الجدل حول حياته وتجعل هذه الحياة وهذا الفن مصدر بحث متصل وإعجاب نادر بقصة الهوى والعذاب، بل وتصير هذه القصة مبعث إلهام لأعمال فنية أخرى مثل مسرحية مجنون ليلى لأمير الشعراء أحمد شوقى.

هذا هو الشاعر... أما القصيدة فلها عالمها الرحيب الذى يصور القصة وأبطالها وبيئتها أيضا.

يقول محقق الديوان الأستاذ عبد الستار أحمد فراج: ان هذه القصيدة اسمها المؤنسة وهى أطول قصيدة أنشدها وواظب عليها. قيل أنه كان يحفظها دون أشعاره وأنه كان لا يخلو بنفسه إلا وينشدها. وفى الخزانة أنها أشهر قصائده فإذا تأملنا هذه القصيدة وجدناها تعبر عن تجربة حياة قيس بن الملوح كلها. فهى قصيدة حياة لا قصيدة تجربة. إنها مجموعة من الأنهار الموسيقية والصور الشعرية تتدفق حاملة إلى القلب والنفس والروح هذا الحزن العميق الذى انبثق من الفقد والحرمان والهوى المستحيل، ولأنها قصيدة حياة فهى تبدأ من الطفولة. تبدأ من الذاكرة التى ترحل إلى سنوات البراءة والصفاء واللهو حيث لا يوجد عذّال ينهون عنه. وكأنه وهو فى غمرة الحرمان من ليلى وفى غمرة حصار التقاليد له يتذكر طفولتهما حيث كانت هذه الطفولة تتيح لهما التمتع بحرية ببعضهما البعض دون

رقيب عليهما. وجميل وذو مغزى أيضا أن يبدأ التذكر بليلى، فليلى هى جوهر الآمال، وهى المطلب الأساسى، ثم يأتى الزمان الذى يشكل مسرح القصة، ويقفز الشاعر بعد ذلك مباشرة إلى الزمن الذى يعيش فيه لأنه يتألم ويعانى إلى حد يصبح معه التذكر ترفا، إنه يصور رحلة له مع أصحابه. وها هى ذى الكواكب فى سواد الليل تختلط عليه بنار ليلى. إنه لا يرى فى هذه الكواكب إلا نار ليلى. هو لا يرى ما حوله بل ما بداخله، فبينما يقول أصحابه إنهم يرون كوكبا يقول هو بل هذه نار ليلى. وتتناثر الأبيات فى ذاكرة الشاعر فلا يكاد يقيم لها نظاما منطقيا، فيتحدث مرة عن نبات الغضى وهو نبات سريع الاحتراق وكأنه وجد فيه معادلا نفسيا لما بداخله. وإن كان هذا البيت لا ينتمى انتماء أصيلا إلى القصيدة. ثم يتوجه بالحديث إلى ليلى ليخبرها إن كانت لا تدرى بأهميتها لديه فهو يذهل عن حاجته إذا جاء طالبا لها من تأثير إدمانه التفكير فيها، ويطلب من أصدقائه مشاركته فى البكاء والحزن. ويبدو أن الفراق كان يباعد بين ليلى وقيس فى هذه الفترة، ولكنه فى الوقت نفسه يمنى نفسه باللقاء المأمول.

وقد يجمع الله الشتيتين بعـد مـــا يظنـــان كـــل الظـــن أنْ لا تلاقيـــا

وهو ينكر أن يكون هذا الفراق قد دفعه إلى السلوان أو أنه وجد شفاء لهذا الحب. وكأن الحب مرض أصيب به، ولماذا لا يصوره كمريض وقد أتلف عقله وأضعف جسده وتركه هائما على وجهه لا يدرى من أمره شيئا. وكأن حلم التذكر كامن فى ضميره وفى عمق مخيلته فنراه يعود إليه مرة أخرى ليبرهن على أن حبه لليلى حب قديم نشأ فى طفولته وطفولتها وشب معهما أيضا. وكان قيس قد بلغه أن الوشاة يتحدثون عنه وعن احتمال نسيانه لليلى، فينكر ذلك أشد الإنكار. وهو يعلن بتأكيد وإصرار أن حب ليلى ثابت فى جوانحه لا يمكن أن ينساه. ولا يؤثر فى هذا الحب فقر ولا غنى ولا توبة ولا نسوة مغريات يحاولن إغراءه والتقرب إليه بالتزين على طريقة ليلى لعله يخدع فيهن. جاءت هذا القصيدة بعد فترة طويلة من معاناة حبه بعد أن ظهرت الشائعات عن سلوه وبعد أن تزوجت بغيره فنراه متضجرا من هذه القسمة التى لا يقدر على احتمالها، فقد قدر له أن يعشقها وقدر لها أن تكون لغيره.

قضاها لغيـرى وابتلانـــى بحبهـــا فهلا بشىء غيـر ليلـى ابتلانيـــا

يعود مرة أخرى إلى التذكر والتأمل والحديث الطويل عن الوشاة الذين يعتقبون خطواته وهو لا يدرى لماذا يحرصون على تصريم حبالهما. ويتأمل الشاعر حاله فيرى أن حب ليلى قد غالبه وقهره حتى تحكم فى أمره؛ لقد كان غالبا على حبه مسيطرا على مشاعره ولكن هذا الحب قد تطور حتى غلبه وتحكم فيه إنه يرجو العدل فى الحب. حتى لا يكون مظلوما مغلوبا على أمره.

فيا رب سو الحب بينـى وبينهـــا يكـون كفافـــا لا علـى ولا ليـــا

ونحن نرى الشاعر يذكر دمشق فى قصيدته فأين هو من دمشق، لقد كانت قريته فى أرض نجد فكيف نراه قريبا من دمشق حيث يقول «ولا سرت ميل من دمشق ولا بدا سهيل لأهل الشام إلا بدا ليا».

إن هذا البيت يوحى بأن فيه خروجا منطقيا على مكان القصة. ولكن القارئ لكتاب الأغانى يرى أن المجنون كان يهيم على وجهه حتى يصل إلى أطراف الشام فيسأل عن نجد فيقولون له: وأين أنت من نجد. إن الشاعر فى هذه القصيدة يعطى انطباعا بالغربة فهو يذكر الريح التى تهب نحو أرض الحبيبة والتى تهيج أحزانه. ويخاطب محبوبته محاولا أن يعطف قلبها عليه. ويدخل الشاعر بعد ذلك فى تعبير بليغ عن مدى القداسة التى وصلت إليها الحبيبة فى نفسه. هل هى قداسة حقيقية أم هو ذهول عن نفسه فلا يكاد يدرى ماذا يفعل. وهل يدرك المجنون ماذا يأتى من الأفعال. ولكنه يدفع عن نفسه رغم ذلك تهمة الشرك بالله. إنه على وعى إذن بالحدود التى ينبغى أن يقف عندها. ولكنه غير قادر على ذلك.

أرانى إذا صليت يممـت نحوهـــا بوجهى وإن كان المصلـى ورائيـــا
وما بـى إشـــراك ولكـــن حبهـــا وعظم الجوى أعيا الطبيب المداويـا

تبدأ القصيدة بعد هذه المرحلة التصويرية الباهرة فى الانتقال إلى نوع من المناشدة والحوار مع النفس والبكاء الحزين إشفاقا على النفس مما ألم بها. ويكاد الشاعر أن يدفعنا إلى البكاء وهو يكاد يعلن عن فقدان رغبته فى الحياة بعد أن ذهبت ليلى إلى غيره. إن الحمائم النائحة تهيج أحزانه وهى ليست فى حاجة إلى من يهيجها.

لعمرى لقد أبكيتنـى يـا حمامـــة العقيق وأبكيت العيـون البواكيـــا

إن تعبير العيون البواكى يؤكد أن حزن الشاعر غامر، وأن البكاء الذى أثاره نواح الحمائم هو بكاء جديد يكاد يضاف إلى البكاء المتصل القديم. وتتصاعد الشكوى ويتصاعد العذاب، وتنتقل القصيدة من العتاب الأليم إلى الشكوى إلى الاستعطاف إلى تأكيد الولاء حتى إنه ليتجه براحلته إلى حيث تقيم.

يمينا إذا كانت يمينا وإن تكن شمالا ينازعنى الهوى عن شماليا

وما أعذب جمال هذا البيت الذى يصور فيه الشاعر التظاهر بالنوم لعل حبيبته تأتيه فى الحلم، وكأنه قادر على خداع الأحلام، ولكنه الشوق الغلاب المضنى، وتستمر حملة الشاعر الشعواء على الوشاة الذى لا يتركونه وشأنه، ويؤكد لليلى أنه إذا كانت الأيام لا تكف عن دفعنا إلى الرحيل الهائم وهو أحد العلامات الأساسية والضرورية لحياة البادية، فإن حبه لها ثابت ومقيم:

لئن ظعن الأحباب يا أم مالك فما ظعن الحب الذى فى فؤاديا

ويقترب الشاعر بعد يأسه القاتم من الموت.. هذا الشاطئ الأخير لرحلة المعاناة. إنه شاطئ النهاية المحتومة.

وبالرغم من أنه يعتصم بنوع من الوهم وبصيص من الأمل، لكنه لا يملك إلا اليأس فى ختام محاولاته.

خليلى إن ضنوا بليلى فقربا لى النعش والأكفان واستغفرا ليا

والقصيدة بهذا تصل إلى ختامها مشحونة بالشجن والرحيل والفرح النادر والأمل المستحيل. والقصيدة ليست محكمة البناء ولا تحكمها الوحدة العضوية ولا النمو المنطقى، ولكنها لا تريد أن تقدم تجربة بل حياة كاملة يحملها الشعر على جناحه. وإذا كانت الحياة البشرية قد وجدت فى الفناء والعدم فإن الشعر قد ظل محلقا فى سماء الخلود.

* * *

غزليات

للأحوص

رام قلبى السلوَّ عــن أسمــاءِ ... وتَعَزَّى وما بــه مــن عــزاء
سخنةٌ فى الشتاء باردةُ الصيف ... سراجٌ فــى الليلــة الظلمــاء
كفانى إن متُّ فــى درْع أرْوَى ... وامتحا لى منَ بئر عروةَ مائى
إننى والذِى تحَــجُ قــريــش ... بَيْتَهُ سالكين نقــب كُــدَاء
لملمُ بهـا وإن أبْــتُ منهــا ... صادرًا كالــذى وردْتُ بِــداء
ولها مَرْبــعٌ ببُــرقَة خَــاخ ... ومصيف بالقصر قصــر قُبــاء
قلبت لى ظهرَ المِجَن فأمْسَــتْ ... قد أطاعَتْ مقالةَ الأعــــداء

* * *

وإنى ليدعونى هــوى أمِّ جعفــر ... وجاراتها من ساعــة فأجيــبُ
وإنى لآتى البيــتَ ما إن أحبُّــه ... وأكثِرُ هجر البيت وهــو حَبيــبُ
تطيبُ لى الدنيا مــرارًا وإنهــا ... لتَخْبُثُ حتى مَا تَكــادُ تَطَيــبُ
وإنى إذا مــا جئتكــم متهلــلاً ... بدَا منكمُ وجــهُ علــىَّ قَطُــربُ
وأغضى على أشياءَ منكم تَسُوءنــي ... وأدْعَى إلى ما سَرَّكــم فــأجيــبُ
وأحبس عنكِ النَّفْسَ والنفسُ صبَّةٌ ... بقربك والممشى إليــكِ قرَيــبُ
ومازلتُ من ذكراكِ حتى كأننــي ... أميمُ بأفيــاء الــديــار سليــبُ
أبثك ما ألقى وفى النفسِ حاجــةٌ ... لها بين جِلدِى والعظَام دبيــبُ
هبينى امرأ إما بــريئــا ظلمتــه ... وإمــا مسيئــا مذنبــا فيتــوبُ
لك الله إنى واصلٌ مــا وصلتِنــى ... ومُثن بَمــا أوليتنــى ومثيــبُ
وآخذ ما أعطيتِ عَفْــوا وإننــى ... لأزَورُ عما تَكــرهيــن هيــوبُ

* * *

قالت – وقلت تَحَرَّجى وصِلى ... حبلَ امرئ بوصالكــم صَــبَّ
واصلْ إذن بَعْلى فَقلــت لهــا ... الغدرُ شَىء ليس من ضَــربــى
ثنتــان لا أدنــو لــوصلهمــا ... عِرسُ الخليلِ وجارة الجَنْــب

أما الخليلُ فلستُ فـاجعـهُ ... والجارُ أوصَانـى بـه ربـى
وببطن مكـة لا أبـوحُ بـه ... قرشية غَلَبتْ علَـى قَلْبـى
ولـو انّهـا إذْ مـوكبُـا ... يوم الكَديد أطاعنى صَحبْـى
قلنا لها حيِّيت مـن شَجَـنٍ ... ولركبهَا حيِّيتَ مـنَ رَكـب
والشوقَ أقتُلـه بـرؤيتهَـا ... قتلَ الظِّما بالبَـاردِ العـذب
والناسُ إن حلـوا جميعُهـم ... شِعْبًا، سلامٌ، وأنتِ فـى شعب
لحللت شِعْبَك دون شِعْبهـم ... ولكان قربى منكـم حسبـى
عوجوا كذا نـذكـر لغـانيـة ... بعض الحديث مَطيَّكُم صحبى
ونقلْ لها فيم الصـدودُ ولـم ... نُذْنِبْ بل أنتِ بدأتِ بالذنـب
إن تُقْبِلـى نُقْبِـلْ ونُنْزِلْكَـم ... منا بدار السهـل والرَّحْـب
أو تُدبِرِى تَكْـدُرْ معيشَتُنـا ... وتُصَدَّعَى متلائـمَ الشَّعْـبِ

* * *

أفى كل يوم حبـةُ القلـب تُقْـرَعُ ... وعينى لبين من ذوى الودِّ تَـدْمـعُ
أبا الجد أنى مُبتلىً كـل ساعـةٍ ... بهمٍّ له لـوعـاتُ حـزن تطلـعُ
إذا ذهبتْ عنى غـواش لعبـرةٍ ... أظـلّ لأخرى بَعـدَهـا أتـوقَّـعُ
فلا النفسُ من تَهماما مستـريحـةً ... ولا بالذى يأتى من الدهـر تَقْنَـعُ
ولا أنا بالـلائـى نَسَبْـتُ مـرزَّأً ... ولا بذوى خُلْص الصَّفَـاء مُمَتَّـعُ
وأولعَ بى صَرْف الزمـانِ وعَطفُـه ... لتقطيع وصل خَلة حيـن تقطـعُ
وهاج لىَ الشوقَ القديـمَ حمامـةٌ ... علـى الأيك بين القريتيـن تَفَجَّـعُ
مطوقة تدعو هـديـلاً وتحتـهـا ... له فَنـنٌ ذو نُضْـرةٍ يتـزعـزعُ
وما شَجْوُها كالشجو منى ولا الـذى ... إذا جَزَعْت مثل الذى منـه أجْـزَعُ
فقلتُ لها لو كنتِ صَادقـة الهـوى ... صنعتِ كما أصبحتُ للشوق أصنـعُ
ولكن كتمتُ الـوجـدَ إلا تـرنمًـا ... أطاعَ لـه منـىً فـؤادٌ مُـرَوَّعُ
وما يستوى باكٍ لشجـو وطـائـرٌ ... سـوى أنه يدعو بصـوت وتَسْجَـعُ
فلا أنا مما قد بدا منك فـاعلمـى ... أصبُّ، بعيـدًا منك، قلبـا وأوجـعُ
ولو أن ما أعنى به كان فـى الـذى ... يؤمل من معروفه اليـوم مَطْمَـعُ

ولكننى وكَّلْتُ مـن كـل بَاخـلٍ ... علـيَّ بمـا أعنَـى بـه وأمنـعُ
وفى البخلِ عارٌ فاضـحٌ ونقيصـةٌ ... علىأهله والجودُ أبقـى وأوسَـعُ
أجدك لا تنسى سعادَ وذكـرهَـا ... فيرقأ دمع العين منـك فتهجـعُ
طربت فما يَنْفكُّ يحزنكَ الهـوى ... مُـوَدَّعُ بيـن راحـل ومـودعُ
أبى قلبهـا إلا بعـادًا وقسـوةً ... ومـالَ إليهـا ود قلبـك أجمـعُ
فلا هى بالمعروف منـك سخيـةٌ ... فتبرمُ حبـل الوصـل أو تتبـرعُ
ولا هو إما عاتـبٌ كـان قابـلا ... من الهائم الصبِّ الـذى يَتَضَـرَّعُ
أفق أيها المرءُ الـذى بهمـومـه ... إلى الظاعن النائى المحلةِ ينْـزَعُ
فما كل ما أمَّلْتَـهُ أنـتَ مـدركٌ ... ولا كل ما حاذرته عنـك يـدفـعُ
ولا كلُّ ذى حرص يُزادُ بحـرصـهِ ... ولا كلُّ راج نفعُـه المـرءَ يَنْفُـعُ
وكم سائـل أمنيـةً لـو يَنالهـا ... لظلَّ بسوءِ القول فى القـوم يَقْنَـعُ
وذى صَمَم عند العتـابِ وسَمعُـه ... لما شاء من أمر السفاهـة يسمـعُ
ومن ناطقٍ يبـدى التكلُّـم عِيَّـهُ ... وقد كان فى الإنصات عن ذاك مَرْبَعُ
ومن ساكتٍ حِلما على غير ريبـةٍ ... ولا سوأةٍ مِـنْ خـزيـةٍ يَتَقَنَّـعُ

هذه المختارات من شعر الغزل لواحد من أهم شعراء العصر الأموى وهو الأحوص، يقف مرة إلى جوار مدرسة عمر بن أبى ربيعة بما عرف عنها من غزل صريح وولع بالجمال وتعقبه فى غير حرج ولا تأثم. ومرة أخرى يضعه بعض مؤرخى الأدب بالقرب من مدرسة جميل بن معمر شاعر الغزل العذرى. ولكنه بين هؤلاء شاعر لا تغفله الروايات ولا يهمله التقييم الأدبى. وقد جعله ابن سلام فى الطبقة السادسة من شعراء الإسلام. وجاء موقعه فى تقييم ابن سلام بعد عبد الله بن قيس الرقيات وجميل بن معمر ونصيب، ويقول أبو الفرج الأصفهانى: والأحوص لولا ما وضع به نفسه من دنىء الأخلاق والأفعال أشد تقدما منهم عند جماعة أهل الحجاز وأكثر الرواة. وهو أسمح طبعا وأسهل كلاما وأصح معنى منهم. ولشعره رونق وديباجة صافية وحلاوة وعذوبة ألفاظ ليست لواحد منهم أما نسب الشاعر الكامل فهو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح. وكان جده عاصم رئيس وفد بعثه رسول الله ﷺ إلى إحدى قبائل العرب فقتل غدرا وحمله السيل فأخفاه عن عيون المشركين، ولكن يبدو أن الشاعر لم يكن على شبه بجده من

الصلاح والتقوى، بل هو شاعر أقرب إلى المجون واللهو وخلع عذار الحياء إلى الفسق، وكان لسوء خلقه أثر كبير فى نفور الناس من مصاحبته، كما تعرض للنفى والجلد على يد سليمان بن عبد الملك، وحين ولى الأمر عمر بن عبد العزيز أقصاه عنه وقرب غيره من الشعراء، ويبدو أنه كان دميما فأشاع ذلك فى نفسه نوعا من الحزن العميق قاده إلى التحرر والتحلل والخروج على العرف والدين والأخلاق فى عصره. وكلمة الأحوص مأخودة من صفة الاحمرار فى العينين.

ويبدو أن هذا الاحمرار قد ضاعف من قبح وجهه فكان غير قادر على إقامة علاقات طبيعية مع ربات الحجال، فلم يعرف عنه أنه وفق فى علاقة عاطفية، ولا أنه كان مرغوبا من النساء، ولكن الأحوص كان ذا قدم ثابتة فى مجال شعره، شهد له بذلك الأفذاذ من الشعراء فى عصره، ومنهم الفرزدق الذى يروى صاحب الأغانى أنه قدم المدينة ثم خرج منها فسئل عن شعرائها فقال: رأيت بها شاعرين وعجبت لهما، أحدهما أخضر يسكن خارجا من بطحان (يريد ابن هرمة) والآخر أحمر كأنه وحرة على برودة شعره (يريد الأحوص).

عاش الأحوص حياة النافر من مجتمعه، ولم يجد قبولا من الخلفاء إلا بعد وفاة عمر بن عبد العزيز وتولى يزيد بن عبد الملك بن مروان. ويرى محقق ديوانه الأستاذ عادل سليمان جمال أن الأحوص كان مغرما بسلامة المغنية وأنها هى أيضا كانت مغرمة به فيقول: أما سلامة القس فهى المغنية التى تعلق بها الأحوص تعلقا شديدا، ويبدو أنه أحبها وكلف بها. أما الدكتور طه حسين فبعد أن يشرح موقف الشاعر الدينى ويوافق كما يبدو على الروايات المتعددة التى تصفه بالفسق والفجور يعترف بشاعريته ويستشهد على ذلك بآراء كبار شعراء عصره فيه، يقول الدكتور طه حسين فى كتابه حديث الأربعاء «وكان الأحوص غزلا ولكنه كان مفتنا فى ضروب الشعر كلها، له الفخر الرائع والمدح البديع والهجاء المقذع، وذلك لأنه لم يكن متكلفا ولا متحشما وإنما كان يرسل نفسه على سجيتها وكانت نفسه خصبة غنية بضروب الخير والشر، فكان يكفى أن يعكف على هذه النفس لحظة فيجد فيها كل ما يريد. كان حلو اللفظ متينه قوى الأسلوب رصينه يبلغ الإجادة اللفظية فى غير تكلف ولا مشقة، ولم يكن كغيره من الغزليين المكيين يعنى بالمعنى ويستخف بالألفاظ وإنما كان حريصا على التجويد فى لفظه ومعناه جميعا».

عاش الأحوص بسبب قبح وجهه منحرف النفس، وحين تولى يزيد بن عبد الملك دخل عليه الأحوص فقال له يزيد: والله لو لم تمت إلينا بحرمة ولا توسلت بدالة ولا جددت لنا مدحا غير أنك مقتصر على البيتين اللذين قلتهما فينا لكنت مستوجبا لجزيل الصلة منى حيث تقول:

وإني لأستحييكم أن يقودنـــى إلى غيركم من سائر الناس مطمع
وأن أجتدى للنفع غيرك منهـــم وأنت إمـام للرعايـة مقنـــع

وقد مات الأحوص فى خلافة يزيد بن عبد الملك كما يرى الأستاذ عادل سليمان بعد حياة من المعاناة والقسوة، ولكن الشاعر استطاع أن يضىء هذه الحياة بمصباح شعره الوهاج المتألق. وإذا وقفنا أمام هذه الغزليات رأيناها مطابقة لتلك الصفات التى أطلقها عليه النقاد القدامى، فهو سهل العبارة واضح المعنى جزل الألفاظ.

تكثر الأسماء فى هذه الغزليات، فهو يذكر أم جعفر وسلامة وأسماء وغيرهن، ولكن ذلك لا يخدعنا فنتصور أنه أقام صلات بكل هاته النسوة اللاتى ذكرهن، فتلك الأسماء الكثيرة التى ذكرها الشعراء الغزليين إنما تدل أولا على نمط من هؤلاء الشعراء هم الذين لا يوقفون حبهم على امرأة واحدة، وإنما هم يتبعون هواهم فى تعقب الجمال أينما وجد. وتدل ثانيا على أن تقاليد المجتمع البدوى ما كانت لتبيح للشاعر أن يصرح باسم محبوبته. فكان يتخذ هذه الأسماء بمثابة أقنعة لاسم حبيبته الحقيقية.

والغزلية الأولى من هذه الغزليات تقدم صورة من صور الأزمات العاطفية التى مر بها الشاعر، فحبيبته أسماء سمعت كلام الوشاة فيه فهجرته على ما يبدو مما دفعه إلى اليأس منه والبحث عن العزاء والسلوان، ولكن أنى له بذلك وهى كما وصفها دافئة فى الشتاء باردة فى الصيف سراج فى الليلة الظلماء. كل هذه الصفات التى تجمع بين الحواس المختلفة تعمق فى المتلقى لشعره صورة جذابة لهذه الحبيبة الهاجرة، وهو يقسم على أن يلم ببيتها حتى لو كانت هذه الزيارة مصدر الألم ولا جدوى منها. والقصيدة تؤكد ثلاثة معان أساسية: الوصف الخارجى للشخصية المحبوبة والعزم على المضى فى الحب مهما كانت العقبات ثم توضيح الشخصية الاجتماعية للحبيبة وطبقتها الراقية التى تنتهى إليها، فهى لها مشتى ومصيف. إن الشاعر فى هذه الأبيات القليلة قد بلغ من نفوسنا حد الإعجاب بهذه السهولة والجزالة والدقة فى إصابة المعنى الذى يريد إيصاله لنا.

فإذا انتقلنا إلى الغزلية الثانية رأيناه يقف موقف الاستعطاف والتوبة وطلب الرضا من أم جعفر. ويبدو أن الشاعر كان بعيدًا عن الحظوة من النساء فجاء شعره يطفح بهذا الألم وهذا الجفاء الذى يعانيه من حبيباته. ويروى الدكتور طه حسين قصة أم جعفر هذه فيقول:

زعموا أنه – أى الأحوص – أسرف فى ذكر أم جعفر، وهى أنصارية عفيفة فلما ضاق بها الأمر أقبلت ذات يوم متنكرة حتى وقفت عليه وهو فى جماعة من قومه فقالت له: اقضنى ثمن الغنم التى اشتريتها منى، فأنكر ذلك وألحت وصدقها الناس، وأخذ هو يحلف ما رآها ولا يعرفها، فكشفت عن وجهها، وأصر هو على إنكاره وقد اجتمع حولهما الناس فلما بالغ فى الإنكار قالت أم جعفر: صدقت يا عدو الله، والله ما أعرفك وما تعرفنى، ولكنك تذكرنى فى شعرك فتقول: قالت لى أم جعفر، وقلت لها، ويشيع ذلك فى الناس. فخجل الأحوص. وقارئ الغزلية يوقن من صدق الأحوص فى حبه، أو على الأقل فى ولعه بالجمال، وقد تكون أم جعفر أخرى هى المقصودة.

تجىء هذه الغزلية حافلة بالإحساس بأن الشاعر غير مرغوب فيه وهو وإن كان يرى أن الدنيا تطيب له أحيانا وأحيانا أخرى تخبث فإن أزمة الشاعر أنه يميل إلى من لا يرغب فيه، فها هو يجىء متهللا فلا يجد إلا التقطيب، ويبدو أن الاساءة إليه لم تكن فقط مجرد إهماله بل إنه كان يغضى على الكثير ويلجأ فى بعض الحالات إلى الامتناع عن زيارتها لإثارة اهتمامها، ولكن قربه وبعده لم يسفرا عن تحقيق المرام. وها هو فى النهاية يعلن أنه لم يملك حججا منطقية لإقناعها، فهو يقول لها أما أن أكون مظلوما بسبب هذا الهجر فيحق لها إذن أن تصرف عنه ظلمها أو أنها تعتبره مذنبا، فيؤكد لها أنه على استعداد للتوبة ويبدى لها الرضى بما تجود به مهما كان هذا الذى تسمح به أريحيتها حتى لو صدر منها بلا قصد. هو راض وسعيد بما يرضيها وهو مقلع عن كل ما يغضبها وما يكون الحب سوى هذا.

أما الغزلية الثالثة فيبدو أنها تجربة عابرة لم تبلغ من نفسه حد التوله والهيام، ويبدو أن الشاعر فى هذه الغزلية قد وجد الفرصة سانحة للدفاع عن أخلاقه التى كانت موضع شبهة من الجميع. ولا نكاد نقرأ هذه الغزلية حتى نتعجب للتناقض فيها، فهو يتعرض لامرأة يزعم أنه يحبها وهى زوجة لعوب تمهد له سبيل القرب منها فتنصحه بأن يصادق زوجها وإذا به يصرح بأن أخلاقه لا تقبل هذا الغدر بالصديق فهو يرعى زمام الصداقة والجوار.

ثنتـان لا أدنــو لوصلهمـــــــــا عرس الخليل وجارة الجنـــــــب

والذى يخرجنا من هذا التناقض هو التوهم بأن الأحوص لم يكن يدرى بأن لهذه المرأة زوجا أو أنه اتخذها ذريعة للدفاع عن أخلاقه. والشاعر فى هذه القصيدة بالغ الحذق فى الحوار وفى الكشف عن شخصية حبيبته وفى الحديث عن نفسه وفى ابتداع الصور الشعرية البارعة التى تصور قدرته على الصياغة الفنية لأحاسيسه التى قد تكون عادية ولكن التعبير عنها هو الذى جاء غير عادى وكم هو رائع البيت الذى يقول:

والشـــوق أقتلـــه برؤيتهـــــا قتــل الظمــا بالبــارد العـــذب

بيت حافل بالتجسيد وقوة التصوير وبراعة التركيب بين الأشياء ليقدم لنا إحساسه العارم بحب هذه المرأة وشوقه إليها. فإذا جئنا إلى غزليته الأخيرة وجدناها حافلة بهذا الإيقاع العميق الذى يذكرنا بمجنون ليلى وبقيس بن ذريح، وهذه الغزلية تنفرد بخاصية هامة هى أنها تحمل نوعا من التوجع الشامل الذى لا يقتصر على فشل فى تجربة الحب بل هى تعبير عن فشل واضح فى تجربة الحياة ذاتها. ويبدو أن الشاعر كان كثير الأرزاء فها هو ذا يبدأ قصيدته بالاستفهام التعجبى (أفى كل يوم حبة القلب تقرع) واستخدم لفظ القرع يوحى بأن ما يحدث للشاعر هو نوع من المصائب الكبرى والشدائد الثقال، فهو ما إن ينعم بذهاب غاشية من غواشى الحياة حتى يزعجه توقع غاشية جديدة فنفسه على خشية دائمة مما يقع لها ومما سيقع أيضا. ولكأن الزمان قد أولع به فهو ماضٍ فى تقطيع صلاته. إن الأبيات الستة الأولى توحى بالظلال القاتمة التى تسيطر على مناخ حياة الشاعر وتؤكد أن هذه الحياة تتأرجح بين المصائب لا تحظى بالراحة ولا بالقناعة. ثم ينتقل إلى الحمامة الشهيرة فى الشعر العربى حمامة الشعراء المؤنسة التى تظهر فى القصائد رفيقة مواسية هؤلاء الحزانى الذين إلا يجدون تعاطفا من البشر الذين يحيطون بهم، وهذه الحمامة التى تنادى هديلا كأنها تطلب المستحيل لا تكاد تقترب من حزنها فى شىء من هذا الحزن الثقيل الذى يجثم على صدر الشاعر حتى إنه حين يحاول المقارنة بينه وبينها يرى نفسه يبكى ويراها تغنى، وما أبعد المسافة بين البكاء والغناء، فهو إذن لا يقنع بمشاركة الحمامة له فى حُزنه. وهو يصرح لنا أن حزنه هذا من أجل من لا أمل فى وصله ولا عطائه.

ولو أن ما أعنى به كان فى الـــذى يؤمل من معروفه اليـــوم مطمـــع
ولكنى وكلت مـن كـــل باخـــل على بمـــا أعنـــى بـــه وأمتـــع

وحبيبة الأحوص فى هذه القصيدة ذات اسم جديد هو سعاد.. إن سعاد فى هذه القصيدة مصرة على البعد والقسوة رغم أنه يمنحها وده أجمع. وكلمة أجمع هنا جاءت لتأكيد الهوة بين ما يضمره لها الشاعر وما تفعله به، ولا يجد الشاعر أمامه سوى أن يجرد من نفسه شخصا آخر أكثر حزما ينهره ويزجره عن المضى فى هذا السبيل اليائس الذى لا أمل فيه، فهو يؤكد أنه لن يحظى بكل ما يريد، ومن ذا الذى يحظى بكل ما يريد فى هذه الدنيا، فلا أنت قادر على أن تنال كل ما تريده، ولا أنت قادر على دفع كل ما تحاذر أن يحدث. ثمة قدرية واضحة تلوح لعينى الشاعر حتى تهدأ النفس وتستريح. وهو يفترض أن الرضى لا يتحقق حتى ولو نال المراد، فكم من أمنية تجلب سخط الناس لو تحققت لصاحبها. يلجأ الشاعر إلى حيلة أخرى لتعزية نفسه عن فشلها فى الحب ربما؟. فى الحياة بكل تأكيد؛ فالحكمة الشعرية العربية التقليدية تتوج هذه الغزلية البالغة الجزالة والرقة لتعطى الشاعر راحة متوهمة لم تستطع الحياة أن تمنحه إياها وهو شاعر سيىء الحظ لدى الحسان لم ينفعه معهن شعره الرقيق، ولا ميله العميق وإذا كانت قصائده تؤكد أنه لم يكسب رضا النساء فهى تؤكد أيضا أنه لم يخسر الشعر!!.

* * *

غزليات

لعمر بن أبى ربيعة

- ١ -

ليتَ هندا أنجزْتَنا ما تَعِدْ ... وشَفَتْ أنْفُسَنَا مما تَجِدْ
واستبدتْ مرةً واحدةً ... إنما العاجزُ من لا يَسْتَبِدْ
زعموها سألَت جَاراتَها ... وتعرت ذاتَ يوم تَبْتَرِدْ
أكمَا يَنْعتُنِى تُبْصِرننى ... عَمْركُن اللهُ أم لاَ يقتصِدْ
فتضاحكن وقد قلن لها ... حسن فى كل عين من نودْ
حَسَدٌ حُمِّلنَه من شأنها ... وقديما كان فى الناس الحَسَدْ
غادة يفتر عن أشنبها ... حين تجلوه أقاح أو بَرَدْ
ولها عينان فى طَرْفَيهْما ... حَوَرٌ منها وفى الجيدِ غيَدْ
طَفْلةٌ باردة القيظ إذا ... مَعْمعان الصيف أضحى يتقد
سُخْنةُ المشتَى لِحافٌ للفتى ... تحتَ ليلٍ حين يغشاه الصَّرَد
ولقد أذكر إذ قلتُ لها ... ودموعى فوق خَدَّى تَطَّرد
قلتُ من أنت فقالت أنا من ... شَفَّهُ الوجدُ وأبلاهُ الكَمَد
نحن أهل الخيف من أهل مِنىً ... ما لمقتول قتلناه قَوَد
قلت أهلا انتَمُ بُغْيُتَنِا ... فتسمَّيْنَ فقَالتْ أنَا هنْدْ
إنما خُبِّل قلبى فاجتوى ... صَعْدةً فى سابرىً تطَّرِدْ
إنما أهلك جيرانٌ لنَا ... إنَما نحنُ وهُمْ شىءٌ أحَدْ
حدثونى أنها لِى نفثتْ ... عُقدَا يا حبذا تلك العُقَدْ
كلما قلتُ متَى ميعادُنَا ... ضَحِكَتْ هندٌ وقالت بَعْدَ غَدْ

ضقت ذرعا بهجرها

قال لى صاحبى ليعلم ما بى ... أتُحِبُّ القتولَ أختَ الرباب
قلت وجدى بها كوجدكَ بالماءِ ... إذا مَا مُنِعْتَ بَرْدَ الشَّرَابِ
من رسولى إلى الثريا بأنّى ... ضقتُ ذَرعًا بهجرهَا والكتابِ
أزهقتْ أم نوفل إذ دعتها ... مهجتى ما لقاتلى من مَتَابِ
حين قالت لها أجيبى فقالت ... من دعانى؟ قالتَ أبو الخَطابِ
أبرزوها مثل المهاةِ تهادَى ... بين خمسٍ كواعبٍ أترابِ
فأجابتْ عند الدعاء كما لبّى رجالٌ ... يرجونَ حسنَ الثوابِ
وهي مكنونة تَحَيَّر منها ... فى أديم الخدَّينِ ماءُ الشباب
دميةٌ عند راهبٍ ذى اجتهادى ... صوروهَا فى جَانبِ المحراب
وَتَكتَّفْنَها كواعبُ بيض ... واضحاتُ الخدود والأقْراب
ثم قالوا تحبها قلت بَهْرًا ... عدد النجم والحصى والترابِ
حين شب القتولُ والجيدُ منها ... حُسنُ لون يرف كالزرياب
أذكرتنى من بهجةِ الشمس لما ... طلعتْ من دُجُنَّةٍ وسحاب
فارجحنّتْ فى حسنِ خلق عميم ... تتهادَى فى مشيها كالحبابِ
قلدوها من القرنفلِ والدر ... سخابًا واها له من سخَابِ
غصبتنى مجاجةُ المسكِ نفسى ... فسلوها ماذا احلَّ اغتصابىَ

ياليتنى أفتدى

يا صاحبى أقلاَّ اللومَ واحتسبَا ... فى مستهام رماه الشوقُ بالذِّكر
ببيضة كمهاة الرمل آنسة ... مفتانة الدَّلِّ ريَّا الخَلق كالقمرِ
سيفانة فنق جَمٍّ مَرَافِقُهَا ... مثل المهاة تراعى ناعم الزهرِ
ممكورة الساق غرثان موشحها ... حُسّانة الجيد واللّبات والشعر
لو دبَّ رويدا فوق قرقرها ... لأثَّر الذَّر فوق الثوب فى البر
قالت قريبة لما طالَ بى سقمى ... وأنكرت بى انتقاص السمع والبصر

يا ليتنى أفتدى ما قَدَ تهيمُ به ... ببعض لحمى وبعض النقص فى عمرى
قد يعلق القلب حبا يتركه ... خوف المقال وخوف الكاشح الأشر
دعْ حُبَّهَا وتناس الحُبَّ تلق به ... واصبرْ وكنْ كصريع قام من سَكَرِ
فقلتُ قولا مصيبا غيرَ ذى خطلٍ ... أتى به حُبُّها فى فِطنة الفكَرِ
سمعى وطرفى حليفاها على جَسدى ... فكيف أصبرُ عن سَمْعى وعن بَصَرى
لو يبغيانى على أن لا أكلمها ... إذًا لقضَّيْتُ من أوْطارِها وَطَرى
دلَّ الفؤادَ عليا بعضُ نسوتها ... ونظرةٌ عَرَضْتَ كانت من القَدَرِ
وقولُ بكر ألم تلمم لنسألهم ... وانظرْ فلا بأسَ بالتسليم والنظرِ
لا أنسَ موقفها وَهنًا وموقفنا ... وتربها بتربانا علَى خَطرِ
وقولها ودموعُ العينِ تسبقُها ... فى نَحْرِهَا: دينُ هذا القلبِ من عُمرِ

* * *

شاعر هذه الغزليات هو عمر بن أبى ربيعة أشهر شعراء الغزل فى الأدب العربى، ويكنى «أبا الخطاب»، ولد كما يقول صاحب الأغانى ليلة مات الخليفة عمر بن الخطاب. ويقال فى التعليق على ذلك: أى حق رفع وأى باطل وضع؛ لما عرف عن الشاعر بعد ذلك من ولع شديد بالجمال وتشبيب صريح بالنساء. عاش عمره حياة مترفة لاهية لا هم له إلا مطاردة أجمل نساء عصره واستخدام شعره وسيلة لاصطيادهن والتحدث إليهن وجاء شعره تعبيرا عميقا عن حياة الطبقة الأرستقراطية الحجازية فى ذلك العصر، كما كان هذا الشعر جديدا كل الجدة فى أسلوبه وفى معانيه وألفاظه، ولعله أقرب الشعراء العرب القدامى من ذوق العصر الحديث ببساطته الشديدة وجرأته وإنطاقه عواطف المرأة بمكنون أسرارها. قد نال الشاعر اعتراف كبار الشعراء، قال عنه الفرزدق بعد أن سمع نسيبه «هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار ووقع هذا عليه». وقال جرير «مازال هذا الغلام يهذى حتى قال الشعر» وقال صاحب الأغانى نقلا عن الزبير بن بكار: أدركت مشيخة من قريش لا يزِنون بعمر بن أبى ربيعة شاعرا من أهل دهره فى النسيب ويستحسنون منه ما كانوا يستقبحونه من غيره من مدح نفسه والتحلى بمودته، وروى صاحب الأغانى قال حدثنا الزبير ابن بكار عن عمه مصعب أنه قال:

«راق عمر بن أبى ربيعة الناس وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر وشدة الأسر وحسن

الوصف ودقة المعنى وصواب المصدر والقصد للحاجة واستنطاق الربع وإنطاق القلب وحسن العزاء ومخاطبة النساء وعفة المقال وقلة الانتقال، وإثبات الحجة وترجيح الشك فى موضع اليقين وطلاوة الاعتذار وفتح الغزل ونهج العلل وعطف المساءة على العذال وأحسن التفجع وبخل المنازل، واختصر الخبر وصدق الصفاء، إن قدح أورى وإن اعتذر أبرا وإن تشكى أشجى وأقدم عن خبرة لم يعتذر بغرة، وأسر النوم وغم الطير وأغذ السير وحير ماء الشباب وسهل وقول وقاس الهوى فأربى وعصى وأخلى وحالف بسمعه وطرفه، وأبرم نعت الرسل وحذر وأعلن وأظهر. وألح وأسف وأذل وجنى الحديث وضرب ظهره لبطنه وأذل صعبه. وقنع بالرجاء من الوفاء. وأعلى قاتله واستبكى عاذله ونفض النوم، وأعلن رهن منى، وأهدر قتلاه. وكان بعد هذا كله فصيحا» إن هذا التقييم النقدى القديم لشعر عمر بن أبى ربيعة يعكس تقديرا بالغا لهذا الشعر، ولم يحظ شاعر قبله ولا بعده بقدر كبير من الاتفاق على قيمته الشعرية كما حظى عمر بن أبى ربيعة. وكان الدكتور طه حسين يرى أن الشعر الغزلى فى العصر الأموى أرفع مكانة وأعلى قيمة من الناحية الفنية وصدق الشعور من الشعر العربى فى كل عصوره وكان الدكتور طه حسين يضع عمر بن أبى ربيعة على رأس شعراء الغزل فى العصرى الأموى، وبهذا يكون عمر بن أبى ربيعة أعظم شعراء الغزل العربى فى نظر الدكتور طه حسين كما يقول فى كتابه حديث الأربعاء.

«نعم. هو زعيم الغزليين من أهل الحضر فى عصره لا يختلف فى ذلك الناس، وقد تحس فيما تقرؤه من أخبار هؤلاء الغزليين أن الرواة كانوا يضعون عمر من أهل الحضر بإزاء جميل من أهل البادية، فكأن عمر زعيم الغزل الحضرى حينما كان جميل زعيم الغزل البدوى، ولكن شعر الجميل قد ضاع ولم يبق لنا منه إلا شىء قليل جدا. فلم يبق سبيل إلى المقارنة بينه وبين عمر الذى حفظ الدهر لنا شعره كله أو أكثره، الذى استقامت لنا أخباره وصحت لنا طائفة من الحوادث المتصلة بحياته فأصبح من اليسير أن ندرسه ونعلن رأيا صحيحا أو مقاربا. ومهما تكن مكانة جميل من شعراء البادية والحاضرة فليس من شك فى أن عمر بن أبى ربيعة كان مقدما عليه عند أهل عصره ويجب أن يظل مقدما عليه من الوجهة الفنية. لأنا لا نعرف شاعرا عربيا أمويا افتن فى الغزل افتنان عمر. فعمر إذن زعيم الغزليين الأمويين جميعا لا نستثنى منهم أحدا ولا نفرق فيهم بين أهل البادية وأهل الحاضرة. بل نحن نذهب إلى أبعد من هذا فنزعم أن عمر بن أبى ربيعة زعيم الغزليين فى

الأدب العربى كله على اختلاف ظروفه وتباين أطواره منذ كان الشعر العربى إلى الآن».
وهذه الحقيقة التى يعلنها الدكتور طه حسين تقترب من المجازفة العملية وتتفق مع الآراء التى تلجأ إلى التعميم، وهى سمة بعض النقاد القدامى. ولا شك أن الإعجاب والتعاطف هو الذى يقود مثل هذه الأحكام المطلقة، ولا يملك المعارضون لموقف الدكتور طه حسين كثيرا من الحجج لدحض رأيه، لأن عمر بن أبى ربيعة فى الواقع قد تجاوز بعذوبة شعره وصحة فهمه للشعر والمرأة على السواء كل شعراء عصره. بل لقد استطاع أن يتجاوب مع كل العصور، وهو أقرب إلى ذوقنا وسلوكنا من كل الشعراء الآخرين. وقد صور شعر عمر كما تصور هذه الغزليات التى اخترناها عددا هائلا من العلاقات الغرامية التى تبدو من خلال صدقه الفنى حقيقية على المستوى الواقعى. فأسماء الحبيبات فى شعره يتجاوز الأرقام القياسية لشعراء عصره الذى سبقه فهو يحب كل جميلة وهو يبدو صادقا فى حبه. ولقد أثار هذا الموقف كثيرا من الجدل حول طبيعة عاطفة هذا الشاعر الذى ينتقل كالفراشة من زهرة نضرة إلى زهرة أخرى أشد نضارة دون أن يرى فى ذلك غضاضة أو نوعا من التشكيك فى وفائه، كان إخلاص عمر الحقيقى للجمال أينما وجده كان الحب المطلق قضيته المطلقة. ولم تكن امرأة واحدة بقادرة على صرفه عن هذا الهوى العنيف الجارف لكل امرأة جميلة أخرى. ولقد اتهم عمر بالنرجسية فى غرام ذاته والولع بنفسه حتى ليظن قارئ شعره أنه كثيرا ما كان يتغزل فى نفسه بدل التغزل فى المرأة. ولكن الدكتور طه حسين يرى فى هذا الولع بالذات تجاوبا مع تهافت النساء عليه وولعهن به. يقول الدكتور طه حسين:

«لم يكن عمر مغرورا ولا تياها. كما أنه لم يكن كاذب الحب ولا متكلفه وإنما كان صادق الحب حقا قويه أيضا، ستقول: فكيف يلائم ذلك ما زعمت من أنه كان عذريا ولم يكن يذهب مذهب جميل؟ بل كيف يلائم ذلك ما ذكرت من أنه كان يتابع النساء جميعا بحبه لا يكاد يدع امرأة إلا ليعرض لأخرى، وربما اشتغلت نفسه فى وقت واحد بغير امرأة؟ كان هذا كله حقا، وكان عمر بن أبى ربيعة مع ذلك صادق الحب قويه أيضا. ذلك لأنه لم يكن عذريا. لم يكن يحب بعقله ولا بقلبه وإنما يحب بحسه وبحسه ليس غير. كما قلت آنفا، لم يكن حسه يطيع قلبه فيرى الجمال فى عشيقته ويميل إليها وإنما كان قلبه طوع حسه فكان يكفى أن يرى جمال المرأة ليخلع عليها ما شاء له الشعر من الصور الرائعة الخلابة.

وليجد بها ما شاء له الحب من وجد لا حد له. كان عمر يرى كلما أحب امرأة أنه لم يحب قط امرأة كما أحبها، وأنه لن يسلو عنها مهما تتبدل الأحوال وتختلف صروف الحياة. وكان صادقا فى هذا كله. ولكنه لم يلبث أن يقول هذا الشعر حتى يحب امرأة جديدة حبا ليس له بمثله عهد ولن يكون له بمثله عهد ولن يجد سبيلا إلى الانصراف عنه. ومصدر هذا أن قلبه كما قلت يتبع حسه وأن النساء كن مفتونات به فكان لا يكاد يقف عند مظهر من مظاهر الجمال حتى يخلبه مظهر آخر. وكان لا يكاد يسمع ثناء امرأة حتى يستهويه ثناء امرأة أخرى فكان طمعه متصلا وأمله لا حد له».

يتضح من الغزلية الأولى «هند» مذهب عمر بن أبى ربيعة كاملا فى الصياغة الشعرية فهو يعمد إلى اختيار أرق الألفاظ وأسهلها أيضا ليصور بها تجربته الشعرية التى تتخذ من المرأة محورها. كما أنه ابتكر فن الحوار مما جعل القصيدة تتدفق حيوية وتتخذ طريقا إلى النمو المستمر بحيث نستطيع أن نقول أن البناء الدرامى هو من أبرز خصائص شعر ابن أبى ربيعة. إنه لا يفرض مشاعره الخاصة على الموقف وإنما هو يعرض الموقف كله كاملا أمامك لتتأثر به كما تشاء وتفسره كما تهوى فهو بهذا يعد أقرب الشعراء إلى المفهوم العصرى للشعر. فلا تستطيع أن تقول أنه شاعر رومانسى يجعل من شعره صورة لهمومه الذاتية بل هو شاعر واقعى يجعل من شعره مرآة بارعة تعكس صورة المرأة العربية وبيئتها، ويكشف بخياله الخصب عالم هذه المرأة وخصائصها وحيلها ودهاءها وافتتانها به أيضا. إنه أول شاعر يواجه المرأة بحقيقة مشاعرها، ولذا فقد نال إعجابها لأنه فهمها ونطق بهذا الفهم. فهذه الصورة المألوفة التى تصورها القصيدة الأولى تعكس خبرة حقيقية بعالم النساء. فها هن يجتمعن معا ولا يكون لهن من حديث إلا الحب والهوى. وتسأل هند أترابها عن محاسنها كما يصفها الشاعر وتريد أن تستوثق أن هذا الوصف الجميل وصف صادق وحقيقى لتطمئن نفسها إلى جمالها، ويكون لها الحق فى الفخر بهذا الغزل الذى يوجهه لها عمر بن أبى ربيعة. والحبيبة تبدو ساذجة لأنها لا تدرك أن مشاعر النساء تغلب عليها الحسد. هى تسألهن هل هى جميلة حقا كما يصفها عمر؟ ولكن النسوة يتضاحكن ويقلن لها أن الحب هو الذى يجعل المحبوب «حسن فى كل عين من تود» أى أن حسنها هو حسن خاص لا يراه إلا عمر وليس حسنا موضوعيا يراه الجميع، وقبل أن تفجع هند بهذا الرأى يكشف لها عمر عن خبيئة أسرار هؤلاء النسوة فيقول لها إن الحسد هو الذى دفعهن إلى هذا الانتقاص من جمالها.

حسد حملنه من شأنها وقديما كان فى الناس الحسد

ثم استمر الشاعر فى وصفها بهذه الأوصاف الحسية المؤثرة التى يعرفها البدوى والحضرى على السواء فهى باردة فى القيظ وساخنة فى البرد فيالها من متعة رائعة تمنحها له الحبيبة. والشاعر فى هذه القصيدة يستخدم أسلوبا عصريا تستخدمه القصة والشعر والمسرح والسينما فى عصرنا أيضا، فهو يعود إلى الماضى ليلتقط منه المشاهد التى تساعد على تطور الحركة الدرامية ونموها، ولذا نراه فى الختام يعود إلى الموقف الأول عندما تعرف عليها وحاول أن يؤكد لها قرابة أهله من أهلها والصداقة التى تربط الأسرتين وكأنه يحتال بتلك الحيلة للحصول على رضاها وطمأنتها من ناحية أخرى. ثم يختتم قصيدته بهذا اللهو العابث الذى بدأ به القصيدة وهو طلب موعد معها ومراوغتها فى ذلك.

كلما قلت متى ميعادنا ضحكت هند وقالت بعد غد

وكما قال الشاعر فهى دائما مخلفة للوعد. إنك تخرج من القصيدة بمتعة حسية تروِّح عن نفسك فهو لا يبكى ولا يتأوه لأنها أخلفت وعده، لأنه يعرف أنها لابد أن تجىء فى النهاية، وأن هذا دلال المرأة الطبيعى. إنه إذن شاعر يتميز أساسا بفهمه العميق لطبيعة المرأة ودلالها ومراوغتها، وأنها تحب هذا اللهو منه، وهذا العبث، ولذا كان الإعجاب به عظيما.

أما الغزلية الثانية فقد كرسها الشاعر للوصف وإن كان الشاعر لم ينس أن يعبر عن مشاعره أيضا حين يقول إن وجده بها كوجدك بالماء البارد، ولا ينسى الشاعر أن يدير حوار بينه وبين صاحبه وبينها وبين جاريتها وها هو ذا يصف عظيم حبه لها حين يقول.

ثم قالوا؟ تحبها؟ قلت: بهرا عدد النجم والحصى والتراب

إن القتول هنا محجوبة إلى حد ما، وهى لا ترى إلا محاطة بالحسان من أترابها. والشاعر مولع بتصوير مجتمعات النساء حيث يتيح هذا فرصة لنمو الحركة الدرامية أكبر، ويكون الكشف عن مكنون أسرارهن أعظم لأن النساء إذا اجتمعن تصارحن. أما الغزلية الثالثة فهى تتحدث عن دفاع الشاعر عن نفسه أمام عذاله. وقد نصحته قريبة له بأن يترك هذا الحب خوف المقال وخوف الكاشح الأشر فإذا به يفصح عن إصراره وعزمه على التسمك الشديد بهذا الحب وهنا نلتفت إلى معنى جديد تماما. فالناصحة له تصور حبه

كسكرة ينبغى أن يفيق منها، ودلالة هذا المعنى أنه ربما وقع فى هذا الحب دون وعى منه. وهى تشير بهذا أو توحى بأنه مجرد وهم عله أن يتركه، ولكن الشاعر ينتفض بعد أن فهم العنى فيؤكد أن هذا الحب قد أتاه وهو فى قمة اليقظة والوعى والفهم فهو حب اليقظة التامة، ومعناه أنه حقيقى إلى أبعد الحدود. لأنه يعرف بوعيه مزايا هذه الحبيبة وحقيقة جمالها، فما أجمل قول الشاعر:

قالت قريبة لما طـال بـى سقمـى ... وأنكرت بى انتقاص السمع والبصـر
يا ليتنى أفتدى ما قد تهيـم بـه ... ببعض لحمى وبعض النقص فى عمرى
قد يعلق القلـب حبـا يتركـه ... خوف المقال وخوف الكاشح الأشـر
دع حبها وتناس الحب تلـق بـه ... واصبر وكن كصريع قام مـن سكـر
فقلت قولا مصيبا غيـر ذى خطـل ... أتى به حبها فـى فطنـة الفكـرِ
سمعى وطرفى حليفاها على جسـدى ... فكيف أصبر عن سمعى وعـن بصـرى

وربما كانت أوصاف عمر للمرأة أوصافا خارجية حسية، ولكنها فى الواقع تعكس حرارة قوية، تعكس صدقا نفسيا وفنيا يتأكد فى هذه الصياغة الشعرية الرفيعة وفى هذا الإحساس العميق مشاعر المرأة وصبواتها ونزواتها.

لقد كانت خبرة الشاعر بعالم النساء وفهمه لنفسيتهن ودرايته العظيمة بالشعر. كانت كل هذه العناصر سببا فى هذا التوفيق الذى لاقاه معهن وإعجابهن الشديد به. ولقد كان لعمر بن أبى ربيعة أسلوب جديد ومنهج مبتكر عرف به ومنحه لتراث الشعر العربى وللأجيال اللاحقة له. فكان فتحا جديدا فى عالم الشعر وفى عالم فهم المرأة على السواء، فقد كان حظه العظيم من الحب والإعجاب عادلا على الدوام.

* * *

فى الحب

للعباس بن الاحنف

غَضِبَ الحبيبُ فهاجَ لى استعبارُ ... واللهُ لـى ممـا أحـاذرُ جـارُ
كَنَّا نُغايط بالوصَـال مَعَـاشـرًا ... لهم الغداة بصرمِنَـا استبشـارُ
إذْ لا أرى شكْلاً يكـون كشكلنـا ... حُسْنَاً ويجمعنا هنـاك جـوارُ
وكأننا لم نجتمع فـى مجلـس ... فيه الغنـاءُ ونرجـسٌ وبَهَـارُ
ما كان أشأمُ مجلسًـا كنَّـا بـهِ ... تلك العشيَّـة والعـدا حُضَّـارُ
مدنية أمسى العـراقُ مَحَلهـا ... ولهـا بـزوراءِ المدينـةِ دار
أدنى قَـرابتنَـا إليهـا أننـا ... شخصان يجمعـان إليـه نِـزارُ
يا أيها الرجـلُ المعـذَّبُ قلبـه ... أقصـر فـإن شفَـاءَك الإقْصَـارُ
نزف البكاءُ دموعَ عينك فاستعـرْ ... عَينـا لغيـركَ دمعهـا مـدرارُ
من ذا يعيرك عينه تبكـى بهـا؟ ... أرأيـت عينَـا للبكـاء تُعـارُ
الحبُّ أولُ ما يكـون لجـاجـةً ... تأتى به وتسـوقُـه الأقـدارُ
حتى إذا اقتحم الفتى لججَ الهوى ... جاءتْ أمـورٌ لا تطـاقُ كبـارُ
وإذا نظرتَ إلى المحبَّ عَرَفْتَـهُ ... وبدت عليـه مـن الهـوى آثـارُ
قل ما بدا لـك أن تقـول فـربمـا ... ساق البلاء إلـى الفتـى المقـدارُ
يافوزُ هل لك أن تعـودى للـذى ... كنَّا عليـهِ منـذُ نحـنُ صِغَـارُ
فلقد خصصتكِ بالهوى وصرفتُـهُ ... عمـن يحـدث عنكـم ويغـارُ
هل تذكرين بدار بَكـر لهـونـا ... ولنـا بـذاكَ مخـافـةٌ وحِـذارُ
متطاعمين بريقنـا فـى خلـوةٍ ... مثـلَ الفراخ تـزقُهـا الأطيـارُ
أم تذكرين لـدُلجتـى متنكـرا ... وعلـىَّ فَـرْوَا عـاتـق وخِمَـارُ
فـوددتُ أن الليـل دامَ وأنَّـه ... ذهبَ النهارُ فـلا يكـونُ نهـارُ
أفما لذلـك حرمـة محفـوظـةٌ ... أف لمـن هـو قـاطـعٌ غَـدَّارُ
سأقر بالذنب الـذىلـم أجنِـهِ ... إن كـانَ ينفـعُ عنـدك الإقـرار

ما تأمرِيَن فَدتْك نفسى فى فتــى ... ما تلتقــى لجفــونــهِ أشْفــارُ
من كان يبغضكم فبــات مبيتــه ... إن الهوى لذوى الهــوى ضَــرَّارُ
صَـرَمَ الأحبـةُ حَبْلـه فكـأنــه ... اذ غــادروه وضــره الإضــرار
رجلٌ تطاولَ سُقْمُـه فــى غربــة ... نزحت به عــن أهلــه الأسفــارُ
لا يستطيعُ من الضــرورة حيلــةً ... أمسى تُرَجَّــمُ دونَــه الأخبَــارُ
حتــى أتيــحَ لــــه وذاك لحينــــه ... ركب رَمتْ بِهمُ الفجــاحُ تِجَــارُ
حملوهُ بينهــمُ نَحيــلاً جسمــه ... عارى العظــام ثيــابُــه أطمــارُ
فثــوى تقلبــه الأكُــفّ ملقفــا ... ولـه تُشَــدُّ وتـوضــعُ الأكــوَارُ
حتى إذا سلكوا به فــى مهمــهٍ ... قَفْرٍ تَضــلُّ بــهِ القَطَــا وتَحَــارُ
غَرِضُوا من النِّضو النحيل فعطلـوا ... منه الركــابَ وخلَّفُــوه وســاروا

***

هذه القصيدة واحدة من أعذب شعر العباس بن الأحنف مع أن معظم أشعاره عذبة ورقيقه تخالط النفس فتبهجها، ورغم حزنها فهى تسرى عن الحزين. عرف العباس بالولع الشديد بالجمال ولكنه ولع يختلف عن ولع غيره من الغزليين أمثال عمر بن أبى ربيعة وأبى نواس والأحوص وغيرهم فلم يكن متقلبا فى حبه رغم أنه ذكر أسماء بعض النساء غير فوز التى عرف بها، فقد ورد فى شعره ذكر ظلوم وذلفاء ونرجس ونسرين وسحر وضياء وريما. كانت هذه الأسماء كلها أقنعة لفوز نفسها التى حظيت بمعظم شعره، وحتى فوز هذه إنما هى الأخرى قناع لامرأة بغدادية أحبها العباس بن الأحنف ومنعه العرف الاجتماعى وأسباب كثيرة أخرى من التصريح بها. ولقد اشتهر العباس ابن الأحنف بالعفة فى الغزل كما يقول مؤرخو حياته ومنهم صاحب الأغانى حيث يقول «وكان العباس شاعرًا غزلا ظريفا ومطبوعا من شعراء الدولة العباسية وله مذهب حسن ولديباجة شعره رونق ولمعانيه عذوبة ولطف، ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء، ولا يتصرف فى شىء من هذه المعانى، وقدمه أبو العباس فى كتابه الروضة على نظرائه وأطنب فى وصفه وقال: رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه، قال: وكان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخلعاء وكان غزلا ولم يكن فاسقا وكان ظاهر النعمة ملوكى المذهب شديد التترف«من الترف» وذلك بين فى شعره. وكان قصده الغزل وحده ولم يكن هجاء ولا مداحا» وواضح من هذا

النص الذى أورده صاحب الأغانى أن العباس كان من شعراء الطبع لا من شعراء الصنعة، له منهج شعرى متميز يروق لأهل عصره يجعل لشعره بهاء ولألفاظ عذوبة. وأنه كان ينتمى من الناحية الاجتماعية إلى الطبقة الراقية التى يصرفها الغنى عن التماس الكسب من الوجوه التى كان يعرفها الشعراء فى ذلك العصر. فلم يكن العباس فى حاجة إلى مدح ولا إلى هجاء، ذلك أنه كان مترفا لديه ما يغنيه شأنه شأن غيره من عشاق الشعراء الذين كان لهم من رفعة المكانة الاجتماعية ووفرة المال ما يدفعهم إلى التفرغ للحب والشعر مثل عمر بن أبى ربيعة على بعد ما بينهما فى الأسلوب الشعرى ومنهج الأداء وطبيعة التكوين. ويبدو أنه كان وسيما لبقا محبوبا من الناس، كانوا يقولون عنه «كان والله ممن إذا تكلم لم يحب سامعه أن يسكت وكان فصيحا جميلا ظريف اللسان لو شئت أن تقول كلامه كله شعر لقلت». وإذا كانت هذه هى خصال الشاعر فإنها كانت الخصال الضرورية لنجاح شاعر فى بغداد وفى عصر الرشيد. لقد تهيأت له كل المواهب التى ترشحه شاعر الطبقة المترفة اللاهية وكان أحرى به أن يكون متقلبا فى حبه استجابة للإقبال عليه نظرا لصفاته ولكنه كان عفيفا أحب امرأة واحدة وأبدع فى التشبيب بها كل شعره تقريبا فهو إذن قد خرج على سنة غيره من الشعراء ممن وهبوا مثل ما وهب. فهل كان ذلك لضعف فيه أم لقوة أخلاقية؟ وما تعليل هذه العفة التى تصرح بها معظم أبيات شعره فى عصر احتفى بالمجون واللهو والغزل الحسى والغناء ومجالس الطرب. يرى الدكتور زكى مبارك إن عفة العباس لم تكن علامة ضعف حيث يقول «المعروف علميا أن الشهوة قوة لأنها اقتحام وانتهاب، وأن العفاف ضعف لأنه زهد وانسحاب، والعاشق المنتهب أقوى شعورا من العاشق المنسحب، فهو بذلك أقدر على الغزل الساحر والتشبيب الفتان فكيف نعد العفاف من مزايا الشاعر أو العاشق؟ أفترع الحقيقة فأقول: إن العفاف لا يكون من علائم الضعف إلا إن كان عفاف العاجزين، وأنه يكون أعظم قوة حين يصدر عن الرغبة فى التصون ومن حق الرجل أن يجاهد هواه ليضاف إلى الأشراف وتلك غاية يتطلع إليها أكابر الفتيان ومن هنا تظهر قيمة الصدق العذب فى هذين البيتين:

أتأذنون لصب فى زيارتكم ... فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمر السوء إن طال الجلوس به ... عف الضمير ولكن فاسق النظر

هذه عذوبة الصدق، وهى نهاية السمو، فالعشق الذى يصدر عن النظر غير دنس وهو

ليس بآثم عند ضمان عفة الضمير. وأن العباس فصل فى قضية أخلاقية كانت فى جميع العهود ما يشغل رجال الأخلاق. والمهم هو النص على أن عفاف هذا العاشق عفاف أوحت به نية صحيحة والنيات الصحاح هى الأصل فى التماسك الأخلاقى وبدونها لا يقوم للأخلاق بنيان» إذا فالعباس لم يكن ضعيفا وإلا لما قاوم غرائزه، وأغلب الظن أن العصور التى تموج بالتيارات الحسية وجد فيها للهو مرتع فسيح للنزوات البريئة وغير البريئة وكثيرا ما تطرح الجانب الآخر المضاد للمزاج السائد، فرغم غلبة مزاج أبى نواس على عصر الرشيد فقد كان هذا العصر فى حاجة إلى توازن لا يقيمه إلا ظهور مزاج مضاد. وتلك مزية هامة للعصور الذهبية التى تسمح دائما بوجهة النظر الأخرى، نظرا لأن العصر نفسه يتسع حضاريا ويتعمق كلما تنوعت داخله الأنماط الإنسانية والسلوكية والإبداعية. لقد جاء العباس بن الأحنف ليواجه مزاج أبى نواس وأمثاله، ولأن العباس كان من طبقة غنية مترفة فقد جاء سليلها غنى النفس. وليست هذه قاعدة بالطبع ولكن المعروف عن هذه الطبقة فى عصر الرشيد أنها كانت تعنى أتم العناية بتعليم وتهذيب أبنائها رغم أن العباس بن الأحنف لم يسلم من المتزمتين فى عصره الذين رأوا فى نجاح شعره نوعا من الفتنة للشباب والفتيات. والحقيقة أنه بدون شعر العباس بن الأحنف لكانت لوحة الحياة الاجتماعية والفنية فى العصر العباسى الأول شديدة النقص والاختلال. فقد كان شعره أرق من شعر غيره وأعذب وقد رشحته هذه الرقة والعذوبة للغناء. والعصر العباسى كان عصر غناء وطرب. فقد زود الموسيقيين والمطربين بأغانيهم الجميلة التى كانت فى الوقت نفسه لا تجاهر بالخروج على مواضعات المجتمع وتقاليده. وكثيرا ما كان هذا الشعر ينشد فى المجالس على شفاه المغنين والمغنيات كما كان يستخدم فى المصالحات والمعاتبات بين العشاق. ثم إن هذا الشعر قد جاء ليقف فى المنتصف بين شعر الزهد الذى اشتهر به أبو العتاهية وبين شعر الحس الذى اشتهر به بشار بن برد وأبو نواس. فهو واسطة بين طرفين تباعد ما بينهما، ولهذا استقبلته الأذواق أحسن الاستقبال. وإذا كان العباس لم يسخر شعره للتكسب فقد جلب عليه هذا الشعر الكثير من الإعجاب والحب وبعض الهدايا أيضا. وإذا كان العباس بن الأحنف قد وقف شعره على الغزل فقد رأى البعض فى ذلك فقرا فى أفانينه الشعرية ولكن الحقيقة أن تخصصه لم يمنعه من التفنن فى الموضوع الأثير لديه وهو الحب، وأن هذا القول الذى يزعم بإن عدم تنوع الموضوع

يحرمه من الإجادة يشبه من يقول بأنه من يخلص حبه لامرأة واحدة فقد حرم متعة الحب.
إن تجربة الشاعر الأساسية غالبا ما تكون تجربة واحدة تتفرع إلى محاور جانبية، ولم يقل أحد بأن العبرة بتنوع التجربة مادامت التجربة الفنية بالغة النضج والعمق والعذوبة وهى سمات أساسية فى شعر العباس بن الأحنف. إذا تأملنا هذه القصيدة التى تحمل فى الديوان عنوانا مختلفا هو «أنهار عين البكاء؟» والتى اخترنا لها الحب عنوانا لأنه أصبح دلالة مراده. إذا تأملنا هذه القصيدة بهرتنا هذه العذوبة التى تفيض بها الفاظها وإن كانت البداية تحمل لنا صورة من الغضب والخوف دفعا بالشاعر إلى أن يستجير بالله من غضب حبيبه. وخوف الحبيب الذى يصل إلى حد الجزع والهلع من غضب حبيبه يطلعنا على مدى ما تكنه جوانحه لهذا الحبيب. إنه الحب العظيم الذى يخشى عليه من الهجر ولعل هذا يذكرنا بالبيت الذى يقول:

أهابك إجلالا وما بك قـدرة علىَّ ولكن ملء عين حبيبها

هو خوف الحريص لا خوف الكاره. يرسم الشاعر صورة لشماتة حساده فيه بعد أن كان يغيظهم بالوصل وأراد الشاعر أنه لم يكن يسلم من مضايقتهم له أيضا، وذلك باستعمال لفظ «يغايظ» التى تدل على المفاعلة ويبدو أن الغضب قد حدث أثناء جلوسهم مع بعض حسادهم الذين ربما أوقعوا بينهم فها هو يتشاءم من هذا المجلس الذى كان فيه. ويبدو أن الشاعر قد عانى بسبب خوفه على حبيبه عذابا وأهوالا وكأنه أصبح يشفق على نفسه بعد أن كان يشفق من هجر الحبيب فنراه يخاطب نفسه خطابا جهيرا يستخدم هذه الكلمات الشديدة الدلالة على النداء والتنبيه «يا أيها» كأنه ينادى شخصا بعيدا عنه وهذا يعنى أنه كان ذاهلا عن التفكير بالجزع الذى أصابه فاستخدم أداة قوية ليجذب وعيه إلى التدبر فى الأمر. وها هو يستخدم مرة أخرى فعل الأمر «أقصر» بلهجة قاطعة تتلوها جملة تقريرية مباشرة أقرب إلى النثر لأنه يخاطب بها العقل فهى كلمة قاطعة صارمة «إن شفاءك الإقصار» ثم عدل عن فعل الأمر إلى رسم صورة مؤثرة تبدأ بالفعل الماضى «نزف» وهى كلمة توحى بنفاد الدمع وبدء انسكاب الدماء. إنه بعد أن يرسم الصورة يوحى لنا بنوع من السخرية الخفيفة أمام إصراره على البكاء. إن كنت مصرا على البكاء فإن عينك لم تعد تصلح لذلك فاستعر عينا لغيرك تكون كثيرة الدموع. يالها من سخرية موجعة تأتى بنا إلى أجمل أبيات القصيدة، وكأنه بهذا الاستفهام الإنكارى ينبه إلى السخرية السوداء التى يوجهها نحوه وكأنه يريد أن يوقظ عقله مرة أخرى ليتدبر ما هو فيه فيقول:

من ذا يعيرك عنيه تبكـى بهـــا أرأيـت عينـــا للبكـــاء تعـــــار

إنه يفترض أن المخاطب قد صدقه وأنه سوف يستعير عينا يبكى بها فيباغته بهذا الاستفهام الإنكارى الذى يهدف إلى التوبيخ والزجر. ثم بدأ يصف الحب ليكشفه لعينه وكأنه لا يعرفه. إن الشاعر يجرد من نفسه شخصا آخر يتوجه له بالنصح ولكنه ما يلبث أن يضيق بهذه اللعبة التى لا جدوى من الاستمرار فيها فيتجه إلى فوز محبوبته يحاول أن يستميلها إليه بدلا من محاولة الإقلاع عن حبها، وهى محاولة يعرف هو قبل ناصحه فشلها. هو يذكرها بأسعد الأيام «أيام الطفولة» وأكثرها فتنة، ويستعير من عالم الطير صورته الشعرية:

متطاعمين بريقنـــا فـــى خلـــوة مثـل القـــراخ تزقهـــا الأطيـــار

وما أجمل هذه الأمنية التى يعلنها الشاعر كما أعلنها قبله كل الشعراء، إنها أمنية دوام الليل الذى يجمع العشاق وغياب النهار الذى يفرقهم:

فـــوددتُ أن الليـــل دامَ وأنَّـــه ذهبَ النهارُ فلا يكـــونُ نهـــارُ

إنه لا يرجو غياب نهار واحد بل يتمنى غياب جنس النهار كله، وبعد أن يمعن فى عرض الصور الجميلة يبدأ فى العتاب ثم يصل إلى الإقرار بالذنب ويظل فى خضوعه إلى أن يضع نفسه فى خدمتها. إلى أن يأتى إلى نهاية القصيدة فيجسد لنا صورة بالغة الهول والوحشة تزلزل الكيان، إنها صورة يضمنها ما بداخله من إحساس قوى بفقدها، وكأنها بتخليها عن حبها له تشبه ذلك المريض الذى ثقل على رفاقه فى الطريق فأخذوا منه راحلته وتركوه فى الفلاة وحيدا لأنهم يئسوا من شفائه. وكأنه يقول لها إنها تشبه هؤلاء الرفاق الذين تركوا رفيقهم للموت، وبهذه النهاية تصل القصيدة إلى قمة الاستعطاف وقمة الاستغفار لهذا الذنب الذى جلب عليه الغضب. هذا هو العباس بن الأحنف لا يدل بشاعريته ولا بوسامته ولا بجاهه الاجتماعى وترفه على حبيبته وإنما هو عاشق يخضع لقانون الحب وسلطانه يكون حيث شاء له الهوى أن يكون يحمل شعره كل خصائصه النفسية وتكوينه الروحى الذى جعله يذوب رقة ونحولا. وإذا كان قد أخلص حبه لامرأة من النساء فقد جاء شعره هو الآخر مرآة لهذا الإخلاص العميق الذى يندر حدوثه معبرا عن شاعرية نادرة الوجود.

ته دلالا فأنت أهل لذاكا

لعمر بن الفارض

ته دلالاً فأنت أهلٌ لذاكا ... وتَحَكَّمْ فالُحسنُ قد أعْطَاكا
ولكَ الأمرُ فاقض ما أنت قاض ... فعلىّ الجمالُ قدْ ولاَّكَا
وتلافى إن كانَ فيه ائتلافى ... بك عَجِّلْ به جُعِلتُ فداكَا
وبما شئتَ فى هَوَاكَ اختبرنى ... فاختيارى ما كان فيه رضَاكَا
فعلى كلِّ حالة أنتَ منِّى ... بِى أولَى إذ لمْ أكنْ لولاكَا
وكفانى عزًا بحُبكَ ذلى ... وخضوعى ولستُ من أكفاكا
وإذا ماَ إليكَ بالوصلِ عَزَّت ... نِسْبتى عزة وصحّ ولاكا
فاتهامى بالحبِّ حسبى وأنى ... بين قومى أعَد من قتلاكا
لك فى الحى هالكٌ بَكَ حَىٌّ ... فى سبيل الهوى استلذ الهلاكا
عبد رِقٍّ ما رق يومًا لعتق ... لو تَخليتَ عنه ما خلاَّكا
بجمالٍ حجبتَه بجلال ... هام واستعذبَ العذابَ هُنَاكا
وإذا ما أمْنُ الرَّجَا منه أدنَاك ... فَعنهُ خوفُ الحِجى أقصاكَا
فبإقدام رغبةٍ حين يغشاك ... بإحجام رهبةٍ يخشاكا
ذاب قلبى فأذنْ له يتمناك ... وفيه بقيَّةٌ برجاكا
أو مر الغمض أن يمر يجفنى ... فكأنى به مطيعا عصاكا
فعسى فى المنام يعرِضُ لى الو ... هم فيوحى سرا إلىَّ سُراكا
وإذا لم تنعش بروح التمنى ... رمقى واقتضَى فنائى بَقَاكا
وَحَمتْ سُنَّةُ الهوى سِنةَ الغُمْض ... جفونى وحَرَّمتْ لقياكَا
أبق لى مقلة لعَلِّى يومًا ... قبل موتى أرى بها من رآكا
أين منى ما رمتُ هيهات بل أين ... لعينى بالجفن لثمُ ثَرَاكا
فبشيرى لو جاءَ مِنك بعطف ... ووجودى فى قبضتى قلتُ هاكا
قد كفى ما جرى دما من جفون ... بك قَرْحَى فهل جرى ما كفاكا

فأَجِرْ من قِـلاك فيـك مُعَنّـىً ... قبل أن يعرف الهـوى يهَـواكا
هبك أن اللاحى نهـاهُ بجهـل ... عنك قل لى عن وصله من نهـاكـا
وإلـى عشقـك الجمـالُ دعـاهُ ... فإلى هجره ترى مـن دعـاكـا
أترى من أفتاك بالصـدّ مُعَنّـىً ... ولغيـرى بالـود مـن أفتـاكـا
بانكسارى بذلتى بخضـوعـى ... بافتقـارى بفاقتـى بغنـاكـا
لا تكلنى إلى قوى جَلَـدٍ خـان ... فإنـى أصبحـتُ مـن ضُعَفَـاكـا
كنت تجفو وكان لى بعض صبـر ... أحسن الله فى اصطبـارى عـزاكـا
كم صدودا عساك ترحـم شكـواى ... ولو باستمـاع قـولـى عساكـا
شنع المرجفون عنـك بهجـرى ... وأشاعوا أنى سلـوت هـواكـا
ما بأحشائهم عشقـت فأسلـوا ... عنك يوما دع يهجـروا حاشاكـا
كيف أسلو ومقلتـى كلمـا لاح ... بـريـقٌ تلفتـتْ للقَـاكَـا
إن تبسمتَ تحتَ ضـوء لثـام ... أو تنسمت الريح مـن أنبـاكَـا
طِبتُ نفسًا إذ لاحَ صُبْحَ ثنايـاك ... لعينى وفـاحَ طيـبُ شَـذاكَـا
كلّ من فى حماك يهـواكَ لكـنْ ... أنا وَحدى بكل من فـى حمـاك
فيك معنى حَلاك فى عين عقلـى ... وبه ناظرى مُعنّـى جِـلاكـا
فقتَ أهلَ الجمالِ حُسْناً وحسنـى ... فبهِمْ فاقـةٌ إلـى معنـاكـا
يُحشَرُ العاشقونَ تحـتَ لوائـى ... وجميعُ الملاح تحـتَ لـواكَـا
ما ثنانى عنـك الضنَـى فبمـاذا ... يا مليح الـدّلال عنـىَّ ثَناكـا
لك قربٌ منـى ببعـدكَ عَنّـى ... وحنوٌّ وَجـدتُـه فـى جَفَـاكَـا
علم الشوقُ مقلتى سهَـر اللـيـل ... فصارتْ من غيـر نـوم تـراكَـا
حبذا ليلةٌ بها صِـدْتُ إسـراك ... وكـان السهـاد لـى أشراكـا
ناب بدر التمام طيـف محيـاك ... لطرفى بيقظتـى إذ حكـاكـا
فتراءيتَ فـى سـواك لعيـن ... بك قرت ومـا رأيـت سواكـا
وكذاك الخليـل قلّـب قبلـى ... طرفه حيـن راقـب الأفـلاكـا
فالدياجـى لنـا بـك الآن غـر ... حيث أهديت لى هدى من ثناكـا
ومتـى غبت ظاهرا عـن عيانـى ... ألفـه نحـو باطنـى ألقاكـا

أهل بدرٍ ركبٌ سريـــتَ بليـــلٍ ... فيه بل سار فى نهـار ضيـــاكـــا
واقتباسُ الأنوار من ظاهرى غيـرٌ ... عجيـــب وبـــاطنـــى مـــأواكـــا
يعبق المسكُ حيثما ذُكـرَ اسمـــى ... منـــذ ناديتنـــى أقبِّـــل فاكـــا
ويضوع العبيرُ فـــى كَـــل نـــادٍ ... وهو ذكرٍ مُعَبّـــرٌ عـــن شَـــذَاكـــا
قال لى حسنُ كلِّ شـــىء تجلـــى ... بى تملّى فقلت قصـــدى وراكـــا
لى حبيـــبٌ أراكَ فيـــه مُعَنّـــىً ... غُرَّ غيرى وفيـــه معنـــىً أراكـــا
إن تولى علـى النفـــوس تولـــى ... أو تجلـــى يستبعـــد النســـاكـــا
فيه عوضت عن هـــداى ضـــلالا ... ورشادى غيا وسِتْـرى انتهـــاكـــا
وحد القلـــب حبَّـــه فالتفـــاتـــى ... لكَ شـــركٌ ولا أرى الإشـــراكـــا
يا أخا العذل فى من الحسن مثلى ... هام وجدا بـــه عدمـــتُ أخـــاكـــا
لو رأيت الـــذى سبـــانـــى فيـــه ... من جمـال ولـــن تـــراه سبـــاكـــا
ومتى لاح لى اغتفـــرت سهـــادى ... ولعينـــىَ قلـــت هـــذا بـــذاكـــا

* * *

شاعر هذه القصيدة هو سلطان العاشقين أبو حفص عمر بن الحسن على بن المرشد بن على ويعرف بابن الفارض، وينعت بشرف الدين، ولد عام ٥٧٦ هـ بمدينة القاهرة وتوفى بها عام ٦٣٢ هـ. نشأ نشأة صوفية دينية فى كنف والده ابن الفارض الذى كان أحد كبار علماء الدين فى عصره، وقد ولى مناصب هامة متعددة منها نيابة الحكم وعرض عليه منصب قاضى القضاة ولكن والد الشاعر رفض هذا المنصب الخطير وآثر عليه التصوف والتعبد لله بقاعة الخطابة بالجامع الأزهر، وظل كذلك إلى أن أدركته الوفاة، وكان والد الشاعر وافدا من حماة إلى مصر، وفى ظل مثل هذا الأب الزاهد كانت البيئة الأولى التى بثت فى وجدان الشاعر حب الله والزهد فى متاع هذه الدنيا. وينقل الدكتور محمد مصطفى حلمى عن ابن العماد فى كتابه شذرات الذهب صورة لهذه النشأة الأولى فيقول: «نشأ تحت كنف أبيه فى عفاف وصيانة وعبادة وديانة، بل زهد وقناعة وورع أسدل عليه لباسه وقناعه فلما شب وترعرع اشتغل بفقه الشافعية وأخذ الحديث عن ابن عساكر وعن الحافظ المنذرى وغيره ثم حبب إليه الخلاء وسلوك طريق الصوفية فتزهد وتجرد وصار يستأذن أباه فى السياحة فى الجبل الثانى من المقطم، ويأوى إلى بعض أوديته مرة وفى بعض المساجد

المهجورة فى خرابات القرافة مرة ثم يعود إلى والده فيقيم عنده مدة ثم يشتاق إلى التجرد ويعود إلى الجبل وهكذا حتىألف الوحشة وألفته الوحوش فصار لا ينفر منه، ومع ذلك لم يفتح عليه بشيء حتى أخبره شيخه البقال أنه إنما عليه بمكة فخرج فورا فى غير أشهر الحج ذاهبا إلى مكة فلم تزل الكعبة أمامه حتى دخلها». وتروى كتب تاريخ الأدب أن ابن الفارض قد رحل إلى مكة لكى يفتح الله عليه كما نصحه شيخه البقال. وفى مكة تسامت روحه إلى آفاق الصفاء الإلهية وفتح الله عليه ومكث بها خمس عشرة سنة امتلأ فيها بنور الحب الإلهى. وتصاعد به عشقه للذات الإلهية حتى أصبحت حاله غير أحوال الناس فقد عمرت قلبه البهجة وأضاءت روحه بإشراق التجليات عليه كما قال فى هذه الفترة أجمل شعره، والتقى بالسهروردى وكان لهذا اللقاء أثر كبير على فكره وشعره.

أقام ابن الفارض بالأراضى الحجازية حتى جاءه هاتف يدعوه للعودة إلى مصر فعاد إليها ليحضر وفاة شيخه البقال عام ٦٢٩ هـ. ثم لازم قاعة الخطابة بالأزهر يحن إلى أيامه بمكة عاكفا على العبادة والتقوى بعيدا عن المغريات والماديات إلى أن وافاه أجله عام ٦٣٢ هـ. قضى معظم حياته فى ظل عصر الملك الكامل الذى ولى الملك بعد وفاة والده صلاح الدين الأيوبى عام ٥٩٨ هـ. وكان ملكا محبا للشعر والشعراء والأدب والأدباء. وقد جهد هذا الملك فى تقريب ابن الفارض إليه وجذبه إلى مجلسه ووصله بالعطايا والذهب ولكن عمر بن الفارض فر من هذه المغريات وآثر الزهد وصفاء النفس ولذة الفناء فى محبة الله.

هذه سيرة رجل تقترب به من المتصوفة والزهاد أكثر مما تقترب به من الشعراء، ولكن قارئ شعره سيرى أنه شاعر بازخ العظمة فى قوة الأداء الشعرى وعمق الموهبة وبلاغة التعبير وحرارة العاطفة واتساع الخيال، مما يجعل الناقد مضطرا إلى الحكم عليه بالشاعرية المطلقة. ولا شك أن زهده وروحانية مشاعره قد أمدت قصائده بهذا الوهج الذى ينبع من قلب العشاق الصادقين، وصنعت من هذه الحرارة سبائك ذهبية تجلت فى صياغته الشعرية الآسرة. ولقد عرفت الآداب كلها هذا النمط الفريد من العشاق الذين ادخروا كل حبهم وعشقهم وشوقهم للذات الإلهية فجاء شعرهم كما جاء شعر عمر بن الفارض غزير العطاء منيرا بالصفاء الشامل تلمع فى دقائقه جواهر الحكمة. وما أعظم هذه الحكمة التى تأتى من الحب وما أعظم الحب الذى يتجرد من العارض الفانى ليتعلق بالباقى الخالد. يقول

الدكتور محمد مصطفى حلمى فى كتابه «ابن الفارض سلطان العاشقين» كان ابن الفارض الصوفى شاعرا تجلت دقة حسه ورقة نفسه ورهافةُ شعوره فى شعره كما تمثلت فى ذوقه ووجده فهو قد جمع فى شخصه بين نبعين صافيين ينهل منهما ويصدر عنهما. أحدهما نبع الوجد الروحى وثانيهما نبع الطبع الشعرى، وهو قد اتخذ من الشعر أداة للتعبير عما تعاقب عليه من رياضات ومجاهدات وما عرض له من أذواق ومواجيد وما انتهى إليه من مكاشفات ومشاهدات، ولا يكاد يصطنع النثر فى التعبير عن شىء من هذا كله أو بعضه عندما كان يقص واقعة وقعت له أو يعقب على كلام ألقى بين يديه، أما ذات نفسه وأما حياته الروحية فيما بينه وبين ربه ونفسه وأما حبه الإلهى الذى ظل طوال حياته مرتلا لأنشودته ترتيلا جميلا ومسبحا فيه بمجال محبوبته تسبيحا طويلا فكل أولئك كان الشعر مرآته المصورة له وأدواته المعبرة عنه.

والقصيدة التى نحن بصددها «ته دلالا فأنت أهل لذاكا» تجسد بصورة مثالية هذه العاطفة الغلابة التى ملكت على الشاعر عمر بن الفارض جوانب نفسه وقلبه وروحه فهى غزلية تفيض رقة وجمالا وفتنة من هذه الغزليات المتتابعة التى ينتظمها ديوان الشاعر. ولقد اختصر الشاعر حياته بكل ما اشتملت عليه أو امتدت إليه واشتاقت له فى جوهر واحد وعاطفة واحدة رآها جذر الوجود ونوره ومعناه وحقيقته والحكمة البالغة من خلقه. هذه العاطفة هى «الحب» وحب عمر بن الفارض تجلى فى كل ما كتب من شعر، وهو أعظم ما يكون تجليا فى هذه القصيدة الرائعة «ته دلالا» والقارئ العادى لهذه القصيدة يرى أنها مثال يقترب من الكمال للصدق فى العاطفة وللإطار الغزلى فى الشعر. فهى تبدو قصيدة غزلية من قصائد الغزل الإنسانى. ولكن دراسة حياة الشاعر كما قدمنا هى التى تقدم البرهان على جوهر هذه الغزلية. إن بعض قصائد الشاعر لا تكاد تفترق فى تصويرها لمظاهر العشق وعلامات الهوى عن قصائد الحب الإنسانى ولكن سيرة الشاعر هى التى تنفى بشكل قاطع ابتعاد هذه القصائد عن ساحة الشعر الصوفى.

كان الشاعر يحمل روحا ترى الجمال فى كل خلق الله. فالله هو مصدر الجمال وخالقه، ومن هنا ترك الشاعر نفسه تسمو إلى أفق من المحبة الإلهية زالت عنده الفواصل والحدود والإشارات. واستغرق الشاعر فى جوهر عشقه غير عابئ بدلالات اللغة الإنسانية التى يدرك هو قبل غيره عجزها عن تجسيد وتصوير ما هو فيه وما يحس به ويشعر.

من هنا كان همه الأول هو التعبير باللغة التى يملكها. كان غارقا من ظفره لرأسه فى الحب وأراد التعبير عن حبه فجاءت قصائده نابضة بملامح التعبير الإنساسى ولكنها مشحونة فياضة بوجوده الإلهى. كانت اللغة إنسانية ولكن دلالاتها تجاوزت ذلك إلى آفاق أعلى من ذلك وأرحب وأعمق، وكان المتصوفة الآخرون مثل ابن عربى وغيره يصطنعون لغة خاصة ذات رموز كثيفة غامضة فى محاولة لخلق تعبير مطابق لأحوالهم.ولكن ابن الفارض خرج على هذه القاعدة. كان يحيا وجدا خاص به وحالة بالغة الخصوصية، ولكنه كشاعر آثر أن يستخدم لغة عامة، هذه اللغة التى فتنت الناس، وتركت أثر واضحا على مشاعرهم. ولا شك أن هذه القصيدة وغيرها من القصائد قد خلقت تيارا دافقا فى عصرها تعبيرا عن الإعجاب والتأثر بهذا المنهج الذى فضل ابن الفارض أن يبث من خلاله عشقه للذات الإلهية. ولعل أول ملاحظة على هذه القصيدة تكمن فى هذه البساطة الشديدة التى تتدفق بها أبياتها فى يسر وعذوبة. وهذه البساطة تعود إلى ثلاثة مصادر: المصدر الأول هو مصرية الشاعر ونشأته فى بيئة سهلة واضحة. فالمصرية فى التعبير – وما تزال هذه الميزة باقية حتى فى الإنتاج الأدبى المعاصر – تعد البساطة والوضوح والسهولة من أبرز سماتها. ولا شك أن هذه العناصر تعكس خصائص الشخصية المصرية ذاتها. المصدر الثانى هو وضوح العاطفة وتركزها وتمكنها من روح الشاعر حتى أصبح الشاعر بفرحه الغامر بما هو فيه يجيش بالتعبير السهل الواضح فهو غنى بعاطفته غنى بلغته مقتنع بمنهجه الشعرى لا يعانى صراعا من أى نوع. الفرح هو الذى يصنع مثل هذه البساطة. المصدر الثالث هو الغنائية الخالصة التى ترتكز عليها أبيات القصيدة. وهو يعبر عن اعتزازه بمصريته حين يقول:

وطنى مصر وفيها وطـرى ولعينى مشتهاها مشتهاها
ولنفسى غيرها إن سَكِنَتْ يا خليلىَّ سلاها ما سلاها

ولعل أبرز ملاحظة فنية على هذه القصيدة تكمن فى هذا الاستخدام الرفيع الذى ينطوى بلا شك على بعض المبالغة للمحسنات البديعية مثل الجناس والطباق ورد العجز على الصدر وغير ذلك. وقد نشأ الشاعر فى عصر كان الولع فيه بهذه المحسنات قد بلغ ذروته. وكثير من القصائد قد غرقت إلى أذنيها فى زركشة هامشية قد أفقدتها روحها الحقيقية ولا شك أن الكثير من الشعراء قد استعذبوا هذا الاتجاه الفنى الذى كان سائدا حتى سقطوا

أسرى لجاذبيته الخادعة حتى ماتت قصائدهم ودفنت في حينها، ولكن عمر بن الفارض كان على ولعه بالمحسنات يتميز أولا بموهبة شعرية حقيقية تمثلت في تمكنه من ناصية اللغة التي يستخدمها ويحسن استخدامها، وثانيا – وهذا هو الأهم – أن عمر بن الفارض كانت لديه العاطفة الحارة والوجدان العامر والخيال الوثاب والأفق الواسع مما يجعله قادرا على السيطرة على أدواته من ناحية وعلى النظر إلى هذه الأدوات كوسيط لتجربته الصوفية والشعرية من ناحية أخرى، وليست اللغة بديلا عن هذه الحالة بأى شكل من الأشكال. وإلى جانب هذه الملاحظة الأساسية حول استخدامه الواسع للمحسنات البديعية هناك هذه القدرة الهائلة على بناء الصورة الشعرية بناء يوحى بالجدة والقوة. والصورة تتولد عنده من هذا الاستخدام الجديد لقوة الألفاظ وبعث الحركة من خلال المقابلة بين المعانى، إنه يحقق نوعا من إثارة الدهشة بإعادة ترتيب دلالات الحركة من خلال أبياته، وهو يهز بهذا الاستخدام الجديد رسوخ المعانى القديمة وثبات الصور البديهية لينهض من جديد تصور قادر على استيعاب المعانى التي يريد توصيلها إلى الآخرين. هو قادر على شحن الألفاظ من خلال تغيير دلالاتها بواسطة خلق علاقات جديدة لها بوهج جديد وحركة نفسية وروحية لم تكن لها قبل هذا الاستخدام. فها هو يعطى نموذجا جديدا لأسلوبه هذا فى مثل هذه الأبيات:

فاتهامى بالحب حسبى وأنـــى بين قومى أعـد مـن قتلاكـا
لك فى الحى هالك بـك حـــى فى سبيل الهوى استلذ الهلاكـا
عبد رق مـا رق يومـا لعتـق لو تخليت عنـه مـا خلاكـا

ورغم أن هذه الأبيات تطفح حتى الحافة بالمحسنات البديعية إلا أنه لا يسقط عبدا لهذه المحسنات كما صنع غيره من الشعراء، وكما يقول الدكتور محمد مصطفى حلمى معلقا على هذه الصناعة اللفظية.

ومهما يكن من أمر الصناعة اللفظية التي تبدو واضحة فى بعض المواطن من شعر ابن الفارض فإنه لا ينبغى مع ذلك أن ننكر على ابن الفارض أنه كان فى أكثر شعره لا سيما الصوفى منه شاعرا مطبوعا بصفة عامة وشاعرا صوفيا ملهما بصفة خاصة. امتاز شعره فى جملته وفى أكثر تفاصيله برقة اللفظ ودقة المعنى وعمق الفكرة وجمال الصورة التي كثيرا ما يتخيلها الشاعر تخيلا. نستطيع أن نرى بوضوح أن لغة الشاعر كانت عذبة تستوعب

تراث الشعر الغزلى السابق عليه فهو يستخدم كثيرا كلمات الوصل والعذل والفراق والهجر والذل والخضوع، ولكن الموقف العام للقصيدة يؤكد أن الشاعر فى مقام الرجاء والتسليم. وهذا الموقف أول العلامات الفارقة بين الحب الإنسانى والحب الإلهى، هو شاعر صوفى من الأبيات الأولى فهو يتخلى فى أول ما يتخلى عنه عن ذاته المتمثلة فى إرادته.

ولك الأمر فاقض ما أنت قـــاض فعلـى الجمـال قـد ولاكـــا
وتلافى إن كان فيـه ائتلافـــى بك عجل بـه جعلـت فداكـــا
وبما شئت فى هَـوَاكَ اختبرنـــى فاختيارى ما كان فيـه رضاكـــا

هذا التسليم المشفوع بالرجاء والمبطن بالتضحية بالإرادة تفصح عنه القصيدة فى أبياتها الأولى. ولا شك أن هذا الموقف الواضح البسيط هو موقف عاشق من نوع خاص فمهما كانت عاطفة العاشق التقليدى – ولا يوجد عاشق تقليدى – والعاشق عشقا إنسانيا فإن إرادته وذاته تظل كامنة تحت خضوعه وتوسله. والشاعر فى خضوعه يتداعى ليكون حيثما يريد المحبوب وطوع مشيئته فهو يلوذ بالرجاء والتمنى فإذا لم يسفر الرجاء والتمنى إلا عن الهلاك فهو يطمع فى بقاء عينه لعلها تشاهد من شاهد الحبيب.

أبق لـى مقلـة لعلـى يومـــا قبل موتى أرى بها مـن رآكـــا

وكما يكثر العاشق الذى يعشق عشقا إنسانيا من الحديث عن متاعبه الخاصة من المرجفين والوشاة فعمر بن الفارض يفعل كذلك لأنه يريد أن ينقل إلينا بلغته الشعرية تجربته الصوفية: الشاعر فيه يغالب الصوفى فيغلبه أحيانا وأحيانا يستولى الصوفى على الشاعر فلا يدع له فرصة للفكاك.

شنع المرجفون عنـك بهجـــرى وأشاعوا أنـى سلـوت هواكـــا
ما بأحشائهم عشقت فأسلـــو عنك يوما دع يهجروا حاشاكـــا

ولا يقصر الشاعر فى كثير من أبيات القصيدة فى التعبير عن المرتبة العالية والمنزلة الرفيعة لطبيعة عشقه، وهذه أيضا من العلامات الفارقة بين حبه للذات الإلهية وحب غيره لغيره من الفانين.

كلٌ من فى حماكَ يهواكَ لكـــنْ أنا وَحدى بكل من فـى حمـــاك

وهو بالطبع لا يقصد بهذا البيت نوعا من تفضيل نفسه على الجميع، ولكنه يشير إلى أن حبه فوق حب الجميع وعاطفته أقوى من عواطف الجميع، ويجد هذا البيت تأكيدا شاملا له فى البيت الذى يقول فيه الشاعر:

يُحشَرُ العاشقونَ تحتَ لوائـــــى وجميعُ الملاح تحـــتَ لواكَـــــا

هو سيد العشاق ومحبوبه سيد المعشوقين. إن الشاعر الذى يضحى بذاته وحريته وإرادته يجد تعبه هينا عليه وسهاده ثمنا عادلا لظهور طيف الحبيب.

ومتى لاح لى اغتفرت سهـــــادى ولعينى قلـــت هـــذا بذاكـــــا

هذه القصيدة نشيد من أناشيد الحب الإلهى تنزلت إلى نهر الجمال فهى لا تطيق أن تفارق شاطئيه. تؤكد أن الحب الحقيقى هو السعادة الحقيقية وهو الحكمة والكون كله. فاض قلب الشاعر بأبياته فغمر أرواحنا بهذا الصفاء الذى كان يعمر قلبه. ولن نستطيع أن نصل إلى أغوار الدلالات الروحية التى أرادها الشاعر عمر بن الفارض إلا إذا تسلحنا بهذا الكنز الغامر من الإشراق الذى كان يصدر عنه، فبمثل حاله نصل إلى فهمه وليس لنا إلا السباحة القريبة من شواطئ نهره الغزير وإلا الشوق إلى المعرفة الواسعة التى لا نملك فك رموزها، وحسبنا قطرة من بحره.

* * *

غزليات

لأبى تمام

- ١ -

يا لابسا ثوبَ الملاحة أبْلِهِ ... فلأنت أولى لابسيه بلبسه
لم يعطك اللهُ الذى أعطاكه ... حتى استخفّ ببدره وبشمسِهِ
رشأ إذا ما كان يطلِق نفسَه ... فى فتكه أمر الحياءُ بَحبسِهِ
وأنا الذى أعطيته محضَ الهوى ... وصميمَه وأخذتُ عُذْرةَ أنُسِهِ
فلئن جنيتُ ثماره وغرستُه ... ما كنتَ أول من جَنى من غَرسِهِ
مولاك يا مولاى صاحبُ لوعةٍ ... فى يومه وصبابةٍ فى أمسِهِ
دَنِفٌ يجود بنفسه حتى لقد ... أمسَى ضعيفا أن يجودَ بنفْسِهِ

- ٢ -

بنفسى حبيبٌ سوف يُثْكلنُى نفسى ... ويجعل جسْمى تحفة اللَّحدِ والرَّمسْ
جحَدت الهوى إن كنتُ مذ جَعل الهوى ... محاسنه شمسى نظرتُ إلى الشمسِ
لقد ضاقت الدنيا علىَّ بأسرها ... بهجرانه حتى كأنِّى فى حبسِ
أسكِّن قلبًا هائما فيه مأتمٌ ... من الشوق إلا أن عَيْنَى فى عُرْسِ
وإنى لأخشى إن تراقت أمُورُه ... به أن يثورَ الجِن فيه على الإنس

- ٣ -

معتدلٌ لمْ يعتدلْ عَدْلُه ... فى عاشق طالَ بهَ خبْلُهُ
أطرفُهُ أحسنُ أم ظرفُهُ ... أو وجهه أحسنُ أم عَقْلُهُ
انظرْ فما عاينتَ فى غَيرِهِ ... من حَسَن فهو له كُلُّه
لو قيل للحسن تمنَّ المنى ... إذن تَمنَّى أنهُ مثْلُهُ

أيُّ خِصالٍ حازهـــا سيـــدى لـــو لـــمْ يكَـدرْ صَفْوهَـا مَطْلـــهُ

- ٤ -

استزارتـــه فكرتـــى فـــى المنـــام فأتانـــى فـــى خُفيـــة واكتتـــام
الليالـــى أحفـــى بقلبـــى إذا مـــا جرحتـــه النـــوى مـــن الأيـــام
يـــا لهـــا لـــذةً تنـــزهـــت الأرواح فيهـــا ســـرا مـــن الأجســـام
مجلسٌ لم يكـن لنـا فيـه عيـبٌ غيـر أنّـا فـى دعـوة الأحـلامِ

- ٥ -

الهـــوى ظـــالـــمٌ وأنـــت ظلـــومُ كيـــف يقـــوى عليكمـــا المظلـــومُ
للهـــوى جـــرأةٌ ومنـــك صـــدودٌ ليس لـــى منكمـــا محـــبٌّ رحيـــمُ
قد برانـــى الهـــوى ودلَّـــه عقلـــى حل بـــى منكمـــا البـــلاءُ العظيـــمُ
إنما يعرف السهـادَ وطـول الليـل مـن حبـلُ وصلـهِ مصـرومُ

- ٦ -

رقادُكَ يـا طرفـى عليـك حَـرامُ فخـلِّ دموعـاً فَيضهُـنَّ سِجـامُ
ففى الدمـع إطفـاءٌ لنـارِ صبابـةٍ لها بيـن أثنـاءِ الضلـوع ضـرامُ
ويا كبدى الحرى التى قـد تصدعـتْ من الوجد ذوبى مـا عليـكِ مَـلامُ
قضيتُ ذِمَامًا للهوى كـان واجبـا علـىَّ ولـى أيضـا عليـه ذِمَـامُ
ويا وجهَ من ذَلـتْ وجـوهِ أعـزة لـه وسطَـا عـزا فليـس يـرامُ
أجرْ مستجيرًا فى الهوى بكَ باسطـا اليـك يديـه والعيـونُ نِيـامُ

- ٧ -

الحسن جزء مـن وجهـكَ الحسـنِ يـا قمـرًا مُوفيـا علـى غُصـنِ
إن كُنْتَ فى الحسن واحـدا فأنـا يا واحـد الحسـن واحـد الحـزنِ
كـلّ سَقِـام تـراهُ فـى أحـدٍ فذاك فـرعٌ والأصـلُ فـى بدنـى

كوامن الحب قبلَ كونكَ فـــى أفئـدة العـــاشقيـــن لـــم تَكـــنِ

- ٨ -

لا تصـــدى فالصـــدُّ أمـــرٌ عظيـــم وارحمـــى فالمحـــبُّ بـــرٌّ رحيـــمُ
أمِـــنَ العـــدلِ أن قلبـــكِ ســـالٍ والهـــوى ثابـــتٌ بقلبـــى مقيـــم
ثم ألحقت بـــى الإســـاءة والظلـــم وغيـــرى هـــو المســـيءُ الظلـــومُ
ما اجترمنا إليك جُرْمَـــا ولكـــن حبُّ هـــذا الزمـــان ليـــس يـــدومُ

* * *

شاعر هذه الغزليات هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائى واحد من أبرز ثلاثة شعراء عرفهم العصر العباسى كم يقول صاحب الوسيط فى الأدب العربى، والأخران هما البحترى والمتنبى. وأبو تمام صاحب مذهب شعرى، جدد به ديباجة القصيدة العباسية وأصبح علما على منهج تفرد به. ولد عام ١٩٠ هـ. بقرية جاسم قرب دمشق ورحل إلى مصر صغيرا وكان يعمل سقاء بجامع عمرو بن العاص. تأثر بعلماء المسجد وأدبائه فتعلم العربية وحفظ ما لا يحصى من شعر العرب، ونبغ فى قوله ثم خرج إلى بغداد حيث دبج المدائح فى المعتصم ووجد عنده حظوة عظيمة، وأكثر من مدائح الكتاب والوزراء والعمال والولاة، وتقرب إلى كبار المسؤلين حتى ولاه عبد الحسن بن وهب بريد الموصل فأقام بها إلى أن مات عام ٢٣١ هـ. يقول عنه صاحب الأغانى «شاعر مطبوع لطيف الفطنة دقيق المعانى غواص على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره، وله مذهب فى المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء وإن كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه فإن له فضل الإكثار فيه والسلوك فى جميع طرقه، والسليم من شعره النادر شيء لا يتعلق به أحد. وله أشياء متوسطة ورديئة رذلة جدا، وفى عصرنا من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف، وأقوام يتعمدون الردىء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعملون القحة والمكابرة فى ذلك». ولقد أفرط أبو تمام فى المدائح حتى حصد بها مغانم غيره من الشعراء وأخملهم حتى إنهم يقولون بأنه لم يترك شيئا من الجوائز لشاعر غيره لجودة شعره فلما مات قسمت الجوائز التى كان يأخذها على باقى الشعراء. ولعل فنه الجديد الذى يقوم على

الخيال المركب وتوليد الصور الشعرية الغريبة ونبذ المألوف من المعانى والصياغة القوية غير المألوفة لشعراء ذلك العصر هى التى أدهشت الأمراء وحببتهم فى شعره. وقد كان أبو تمام لمعرفته بمستوى شعره وطمعه أيضا – انتقاما لأيام الفقر الأولى فى حياته حيث كان أبواه فقيرين – يترفع عن الجوائز التافهة ولا يرضيه إلا المال الغزير. ويروى صاحب الأغانى: لما شخص أبو تمام إلى عبد الله بن طاهر وهو بخراسان أقبل الشتاء وهو هناك فاستثقل البلد وكان عبد الله وجد عليه وأبطأ بجائزته لأنه نثر عليه ألف دينار فلم يمسسها بيده ترفعا عنها فأغضبه وقال: يحتقر فعلى ويترفع على. فكان يبعث إليه الشىء كالقوت فقال أبو تمام:

لم يبق للصيف لا رسم ولا طلل ... ولا قشيب فيُسْتَكْسى ولا سَمَلُ
عدل من الدمع أن يبكى المصيف كما ... يبكى الشباب ويبكى اللهو والغزل
يمنى الزمان انقضى معروفها وغدت ... يسراه وهى لنا من بعدها بدل

فبلغت الأبيات أبا العميل شاعر عبد الله بن طاهر فأتى أبا تمام واعتذر إليه لعبد الله بن طاهر. وعاتبه على ما عتب عليه من أجله. وتضمن له ما يحبه ثم دخل إلى عبد الله فقال: أيها الأمير أتتهاون بمثل أبى تمام وتجفوه؟ فو الله لو لم يكن له ما له من النباهة فى قدره والإحسان فى شعره والشائع من ذكره لكان الخوف من شره والتوقى من ذمه يوجب على مثلك رعايته ومراقبته فكيف وله بنزوعه إليك من الوطن وفراقه السكن وقد قصدك عاقدا بك أمله معملا إليك ركابه متعبا فيك فكره وجسمه وفى ذلك ما يلزمك قضاء حقه حتى ينصرف راضيا ولو لم يأت بفائدة ولا سمع فيك منه ما سمع إلا قوله:

تقول فى قومس صحبى وقد أخذت ... منا السرى وخطا المهرية القود
أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا ... فقلت كلا ولكن مطلع الجود

فقال له عبد الله: لقد نبهت فأحسنت وشفعت وعاتبت فأوجعت ولك ولأبى تمام العتبى، ادعه يا غلام، فدعاه فنادمه يوما وأمر له بألفى دينار وخلع عليه خلعة تامة من ثيابه وأمر بحراسته إلى آخر عمله. ولم يكن المدح هو الفن الأوحد الذى برّز فيه أبو تمام بل إن مراثيه وفى مقدمتها مرثيته الشهيرة فى محمد بن حميد الطوسى تؤكد أنه كان شاعرا يجيد الرثاء إجادة تضعه فى قمة شعراء هذا الغرض القديم، وكان تصويره للطبيعة

جديدا فى أدائه فقد أبدع فى هذا الجانب الهام والذى يكاد الشعر العربى يبدو فيه فقيرا بجانب الأغراض الأخرى، ولا شك أن شعره الغزلى قد ارتوى من خبرته الفنية الطويلة فجاء هو الآخر ناضجا رقيقا بالغ الغذوبة رصينا جزل العبارة نضير الصورة. ولقد تأثر أبو تمام فى شعره وحياته بثقافة عصره. هذه الثقافة التى شاعت فيها روح الترجمات من الآداب الأجنبية وخاصة الآداب اليونانية والهندية، وظهرت فى شعره هذه الأفكار الفلسفية والأقيسة المنطقية التى تؤكد أن عقله وروحه قد انغمسا بقوة فى هذه الثقافات الجديدة النشيطة والتى ذاعت وأثرت لا فى علماء الكلام والفقهاء وحدهم وإنما تمثلها الشعراء أيضا. يقول الدكتور «شوقى ضيف» «وشعر أبى تمام زاخر بما يدل على أنه انقض على معارف عصره انقضاضا، وتمثلها تمثيلا دقيقا وخاصة التاريخ وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق. أما التاريخ فيتضح فى كثير من جوانب مديحه، وخاصة حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها وأمجادها فىالجاهلية والإسلام على نحو ما يلقانا فى قصائده لخالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ومالك بن طوق التغلبى، وكذلك حين يقرن وقائع بعض الأبطال ودويها فى الخافقين إلى وقائع جاهلية وإسلامية مشهورة». ثم يقول الدكتور شوقى ضيف «وجعلته صلته بالمنطق والفلسفة يكثر من استخدام الأدلة المنطقية وهى عنده تستمد من نفس إحساسه العميق بتشابك حقائق الكون فإذا بعضها يرى من خلال بعض. بل إذا بعضها يتخذ دليلا وحجة على بعض. ويتسع التأثر بالفلسفة عنده حتى ليشيع الغموض فى كثير من أبياته، وهو غموض الطبيعة فى الصباح والغروب إذ يجلله دائما شفق يأخذ بالألباب. ونعجب إذ نجد القدماء يحملون عليه من أجله كما حملوا على إكثاره من اللفظ الغريب ومن التصاوير وألوان البديع حتى قالوا إنه أفسد الشعر وهو لم يفسده بل هيأ له ازدهارا رائعا تسنده فيه ثقافة واسعة بالفلسفة والمنطق وبالشعر العربى قديمه وحديثه، كما تسنده قوة ملكاته التى جعلته يعد بحق حامل لواء الشعر العربى فى عصره. بل جعلته صاحب مذهب مستقل بخصائصه العقلية والزخرفية».

يستقيم لنا من قراءة شعر أبى تمام فى مراثيه ومدائحه ووصفه للطبيعة منهج شعرى متميز تتضح خصائصه فى غرابة صوره هذه الغرابة الناشئة عن تجاوز العلاقات الفنية داخل هذه الصور لحدود البلاغة القديمة وغموض معانيه لجموح خياله وشططه الفلسفى وكثرة الأقيسة العقلية والمنطقية فى شعره وانتقاء الغريب من الألفاظ استجابة للمبالغة

الخيالية والنفسية التى كانت من أهم سماته. فهل ينطبق هذا المنهج الشعرى عند أبى تمام على غزلياته التى نتعرض لها الآن؟ إذا تأملنا الغزلية الأولى برزت لنا على الفور الصورة العقلية المنطقية وراء صورها. فها هو يأمر حبيبه باستهلاك ثوب الحسن، ومعنى هذا الاستهلاك هو التمتع به فهو ينصحه بالتمتع بهذا الجمال الذى هو أولى به وها هو المنطق يبرز فى هذه المقارنة بين تقوق جماله الساحق وبين بهاء الشمس والقمر فالبيت كله يعكس قياسا منطقيا ونظرة عقلية وها هى المطابقة فى البيت الثالث بين الإطلاق والحبس وها هو يرى أن ما جناه من غرسه كان منطقيا، ثم تخف قبضة الصورة العقلية ليظهر التقسيم البلاغى ورد العجز على الصدر حين يقول:

دنف يجـود بنفسـه حتـى لقـد أمسى ضعيفـا أن يجـود بنفسـه

إن اللغة فى هذه الغزلية واضحة لا غموض فيها، وربما كان الدافع إلى ذلك هو إلحاحه على توضيح موقفه من هذا الحبيب الذى يضن عليه بجماله، وهو يحاول أن يقنعه بأنه إنما يعانى من أجله فى يومه وينصحه بالتمتع معه بهذا الحسن الباهر الذى يجاوز بهاء الشمس والقمر. ولا نملك إلا الإعجاب بهذه الصور البارعة التى تتحرك فى إطار مألوف من قيود البلاغة القديمة والمحسنات البديعية المعروفة، ولكن تظل هذه الصور وهذه الغزلية أكثر إثارة لموقف العقل من موقف الحس. فإذا انتقلنا إلى الغزلية الثانية وجدنا الشاعر مازال يشكو من هجران حبيبه، هذا الهجران الذى تركه فى الغزلية الأولى على حدود المرض، ولكنه فى الغزلية الثانية يقترب من الموت نفسه. بل إن هذا الحبيب القاسى سوف يقدم حبيبه تحفة للحد والقبر. وها هو الشاعر يلجأ إلى براعته وذكائه فى استمالة قلب حبيبه، هذا التودد الذى يصعد به إلى المبالغة. وهو مرة أخرى يضع حبيبه فوق مرتبة الشمس المضيئة فهو يعلن جحوده للهوى إن كان منذ اتخذ محاسن الهوى شمسا له قد نظر إلى هذه الشمس الحقيقية. وأى تعبير جميل غير مباشر يتضمنه هذا البيت إنه يبدو كما لو كان بيتا تقريريا مباشرا ولكنه فى الواقع بيت شديد التركيب غنى بالمعانى الكثيرة. فهو فى بدايته يتهم نفسه بجحود الهوى. وهذا التقديم للجحود يعنى أنه يراه فادحا وجليلا وغير محتمل، وهو يمزج بين الحب والمحبوب حين يتحدث عن المحاسن فهو قد اتخذ هذه المحاسن الرائعة شمسا له. والشمس هنا أعظم وأجل قدرا من القمر. فهو يرى فيها قوة الحياة ذاتها: النور والدفء وقوة النماء، ويدفع الهجران الشاعر إلى

إعلان الضيق بالدنيا كأنه فى سجن بسبب الهجر إلا أنه يقفز إلى بيت جميل تلعب فيه المقابلة دورا دراميا بديعا. فها هى كلمة – أسكّن – تحمل الكثير من الدلالات الموحية بالهياج والجزع والقلق واللوعة، كل هذا فى كلمة واحدة وكأنه يمسك بجواد جامح يريد أن يطير ويركض ثم يأتى المقابلة بين القلب الجاثم فى مأتم الأحزان والعين المبتهجة بالعرس الذى خلقه جمالها. فقلبه حزين لعدم طمأنينته وخوفه وفزعه، وعينه سعيدة كأنها فى عرس. المقابلة بين المأتم والعرس ليست وحدها التى خلقت جمال الصورة، وإنما الفصل اللامنطقى بين القلب وبين مدركات الحواس. هذا الإيهام الشعرى الذى يهدف إلى بيان حالين متناقضين بل ويهدف إلى تجاوزهما وإلى تصوير قوة الهجر وجمال المحبوب لتكون اللوعة تامة التصوير. ثم يأتى إلى بيت تفسده المبالغة حتى تقتله حين يرى أن الجن ستثور على الإنس بسببه. هى مبالغة فاترة لأنها تأتى من خارج تجربة الشاعر وعناصرها الذاتية. وفى الغزلية الثالثة نجد الشاعر وقد فرغ من بث لواعجه إلى تصوير أحوال المحبوب وهو تصوير تلعب فيه المحسنات البديعية والتلاعب بالألفاظ دورا أساسيا. فها هو المحبوب معتدل لم يعتدل عدله ورغم كثرة الجناس فالبيت لا يفقد جماله فالمعتدل الأول هو اعتدال القوام، ولم يعتدل عدله تعبير عن ظلمه فى حبه وفى حكمه على هذا العاشق الذى طال به الجنون، ثم يتجه الشاعر إلى التقسيم أطرفه أحسن أم ظرفه. أو وجهه أحسن أم عقله. يريده تاما كاملا فى الحسن والظرف والعقل. وما يكون الكمال البشرى إذا خرج عن جمال الهيئة والطبع وصحة العقل. إنه فى هذا البيت الراقص يعطى انطباعا بمعنى تام مؤكد. وإذا كانت المبالغة قاتلة لبعض الأبيات مثل ثورة الجن على الإنس فإنها هنا فى البيت الذى يقول فيه:

لـو قيـل للحسـن تمـن المنـى إذن تمنـى أنـه مثلـه

هى هنا مبالغة مقبولة تشع فتنة ورقة. إن أبا تمام يستخدم البلاغة التقليدية ببراعة المكتشف الأول، لقد كان واحدا من مؤسسى علم البديع بحيله الشعرية، ولكن الشعراء الذين أفسدوا هذه المحسنات كانوا لا يملكون عبقرية هذا الشاعر الفذ. ثم ينتقل إلى الغزلية الرابعة فإذا تعبيره عن الحلم يأخذ شكلا متوسطا ليس فيه براعة التجربة الحسية ذلك لأنها تأمل عقلى خالص. أما الغزلية الخامسة فهى تمضى فى نفس منهج أبى تمام الشعرى؛ فها هو يواجهنا من البداية بهذه الحجة العقلية القوية، فالهوى ظالم بطبيعته

والحبيبه أشد ظلما من الهوى ولذا يتساءل الشاعر تساؤلاً إنكاريا يائسا باطلا كيف ينجو المظلوم من بطش ظالميه. الهوى يدفعه إلى الإقدام والإلحاح وهى هاجرة تصده فكأنه مدفوع بقوة قاهرة هى الهوى لا يملك لنفسه فكاكا منها، وهى ممتنعة لا تنصفه فيخفف ذلك حزنه وألمه. ثم يشكو سقمه وبلاءه وسهر الليالى والسهاد، أما الغزلية السادسة فهى أشد هذه الغزليات لوعة وحزنا وها هو فيها لا يتجلد. بل يدعو عينه إلى ترك النوم وانهمار الدموع فقد يطفىء الدمع نار الهوى المتأجج فها هى نار الحب مشتعلة فى جوانح نفسه وبين ثنايا الضلوع وها هو يقول لكبده التى تصدعت ذوبى، ما عليك ملام. هو يدرك ما فى كبده من حرارة الحب وعنائه فلا لوم على هذه الكبد بعد أن تصدعت من أن تذوب، فالعبء ثقيل والهم لا يطاق. وكأن الشاعر قد انتهى إلى يأس لا شفاء منه بعد أن قضى ما عليه من واجبات وأعباء تجاه هذا الهوى وانتظر الجواب فلم يجد الآخرين يرعون ذمامه كما رعاه لهم. هل هى غزلية أم شكوى أليمة من الهجر. إن هذه المقطوعة تبتعد عن المحسنات البديعية والصور العقلية لأن قوة الإحساس والانفعال بها قد صاغتها بعيدا عن ترف العقل وأقيسته وتأملاته، فدموعه المنهمرة لم تترك له فرصة لاختيار المنطق. ويعود فى الغزلية السابعة إلى لعبته المفضلة، إلى صوره العقلية ومقابلاته. هذه الغزلية تعكس رؤية فلسفية واضحة، هو هنا يقيم مقارنة متصلة بين الحسن الكلى والحسن الجزئى، بين وجه الحبيب الذى يمثل الكلى وبين معنى الحسن الذى يمثل الجزئى، فها هو الجمال بعض هذا الوجه الجميل وها هو الشاعر يقارع واحد الحسن بواحد الحزن، يعنى نفسه، ويقدم للحبيب سقامه برهانا على حبه. هذا الحب الذى لم يكن موجودا قبل حصول هذا المحبوب الزائد الحسن. أما الغزلية الأخيرة فهى نصيحة رقيقة من عاشق يرى الظلم قد حاق به دون ذنب جناه. يتوسل الشاعر بالمنطق والحجج العقلية مرة أخرى فى محاولة لإقناع المحبوب بالعدول عن صده، يدعو إلى الرحمة به فليس من العدل أن يكون قلب المحبوب خاليا ساليا وقلبه ثابتا على المودة. ولماذا وهو لم يذنب ولم يسئ فأى جرم أتى به الشاعر حتى يلقى كل هذه الإساءة والصدود؟! وكأنه فى الختام يحذر المحبوب من أن الحب فى هذا الزمان عابر لا دوام له فهو تحذير يتضمن دعوة للاستمتاع بمباهج الحب ونعيمه. إن أبا تمام يظل فى كل شعره محتفظا بخصائصه التى تميز بها وصار بها إماما بين شعراء عصره وأعطانا صوتا جديدا فريدا فى الشعر العربى كله.

لامية العجم

للشاعر الطغرائى

أصالةُ الرأيِ صانتنى عن الخَطَلِ ... وحليةُ الفضل زانتنى لدىَ العطَلِ
مجدى أخيرًا ومجدى أولا شَرَعٌ ... والشمس رأد الضحى كالشمس فى الطَّفَلِ
فيم الإقامةُ بالزوراء لا سكنى ... بها ولا ناقتى فيها ولا جَملى
ناء عن الأهل صفْرُ الكَفِّ منفردٌ ... كالسيف عُرِّىَ متناهُ من الخَلَلِ
فلا صديقَ إليهِ مشتَكى حَزَنى ... ولا أنيسَ إليهِ منتهى جَذَلى
طال اغترابى حتى حنَّ راحلتَى ... ورحلُها وقرى العسّالة الذُّبلِ
وضَجَّ من لغَبٍ نضْوى وعَجَّ لِمَا ... يلقى ركابى ولجَّ الركبُ فى عَذَلى
أريدُ بسطةَ كفٍّ أسْتَعينُ بها ... على قضاء حقوقٍ للعُلى قِبَلى
والدهرُ يعكسُ أمالى ويقنعنى ... من الغنيمةِ بعْدَ الكدِّ بالقَفَلِ
وذى شطاط كصدر الرمح معتقلٍ ... بمثله غير هياب ولا وَكِلِ
حلو الفكاهة مُرّ الجد قد مزجتَ ... بقسوة اليأس فيه رقة المقلِ
طردتُ سَرْحَ الكَرى عن ورد مقلته ... والليلُ اغرى سوامَ النومِ بالمقُلِ
والركبُ ميلٌ على الأكوارِ من طَرَبٍ ... صاح وآخرُ من خمرِ الكرى ثَمِلِ
فقلت أدعُوكَ للجُلَّى لتنصرنى ... وأنت تخذلنى فى الحادثِ الجَلَلِ
تنام عينى وعينُ النجم ساهرةٌ ... وتستحيلُ وصَبْغُ الليلِ لم يَحُلِ
تُعينُ نفسى على غىٍّ همَمتُ به ... والغىُّ يزجر أحيانا عن الفشلِ
إنى أريدُ طروقَ الحى من إضَمٍ ... وقد رماهُ رماةُ الحى من ثِقَلِ
يحمون بالبيض والسمرِ اللدان بهمْ ... سودَ الغدائرِ حمرَ الحَلى والحُلَلِ
فسر بنا فى ذمام الليل مهتديا ... بنفخةِ الطيبِ يهدينا إلى الحِلَلِ
فالحبُّ حيث العدى والأسدُ رابضةٌ ... نصالُها بمياه الغنج والكَحَلِ

قد زاد طيب أحاديث الكرام بها ... ما بالكرائم من جبن ومن بَخَلِ
تبيت نارُ الهوى منهن فى كبدٍ ... حرَّى ونارُ القرى منهم على القُلَلِ
يقتلن أنضاءَ حُبٍّ لا حَراك بها ... وينحرون كرامَ الخيلِ والإبلِ
يُشفى لديغ الغوانى فى بيوتهم ... بنهلةٍ من لذيذ الخمرِ والعسلِ
لعل إلمامةً بالجزع ثانيةً ... يَدبُّ فيها نسيمُ البُرءِ فى عَلَلِ
لا أكره الطعنة النجلاءَ قد شَفَعتْ ... برشْقة من نبالِ الأعْيُن النُّجُلِ
ولا أهاب صِفاحَ البيض تسعدنى ... باللمح من صفحات البيض فى الكلَلِ
ولا أخل بغزلانٍ أغازلها ... ولو دهتنى أسودُ الغيل بالغيلِ
حبُّ السلامة يثنى هم صاحبه ... عن المعالى ويغرى المرءَ بالكسلِ
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقا ... فى الأرض أو سُلما فى الجَوِّ فاعتزلِ
ودَع غمارَ العُلَى للمقدمين على ... ركوبها واقتنعْ منهن بالبَلَلِ
يرضى الذليل بخفضِ العيش يخفضه ... والعزُّ عند رسيم الأينق الذللِ
فادرأ بها فى نحور البيد جافلة ... معارضات مثانى اللُّجْم بالجُدُلِ
إن العلى حدثتنى وهى صادقة ... فيما تحدِّث أن العز فى النَّقَلِ
لو أن فى شرف المأوى بلوغَ منًى ... لم تبْرح الشمسُ يوماً دارةَ الحَمَلِ
أهبتُ بالحظ لَو ناديتُ مستمعا ... والحظ عنِّى بالجُهَّالِ فى شغلِ
لعلهُ إن بَدا فضلى ونقْصُهُمُ ... لعينه نامَ عنهم أو تنبه لى
أعلِّلُ النفس بالآمالِ أرقُبُهَا ... ما أضيقَ العيشَ لولا فُسْحةُ الأمَلِ
لم أرتضِ العيشَ والأيامُ مقبلةٌ ... فكيف أرضَى وقدْ ولَّت على عَجَلِ
غالَى بنفسى عرفانى بقيمتها ... فصُنْتُها عن رخيص القَدْر مبتذلِ
وعادةُ النصلِ أن يُزْهَى بجوهره ... وليس يَعْمَلُ إلا فى يَدَىْ بَطَلِ
ما كُنتُ أوثرُ أن يمتدَّ بى زَمَنى ... حتى أرَى دولة الأوغاد والسِّفَلِ
تقدمتنى أناسٌ كان شَوْطُهم ... وراء خَطْوىَ إذْ أمشى عَلى مَهَلِ
هذا جزاءُ امرئٍ أقرانه دَرَجُوا ... من قبله فتمنَّى فُسحَة الأجَلِ
وإن علانى مَنْ دونى فلا عَجَبٌ ... لى أسوةٌ بانحطاطِ الشمس عن زحَلِ
فأصبرْ علَيْها غيرَ محتال ولا ضَجِر ... فى حادث الدهر ما يُغْنى عن الحيلِ

أعـدَى عَـدُوك مـن وثَقْـتَ بـــه ... فَحَاذر النَاسَ واصحبهم علـى دَخَـلِ
وإنمـا رجـلُ الدنيـا وواحدهـا ... من لا يعوِّل فى الدنيـا علـى رَجُـلِ
وحسـنُ ظنـك بالأيـام مَعْجَـزَةٌ ... فظن شرًا وكنْ منهـا علـى وَجَـلِ
غاضَ الوفاءُ وفاضَ الغـدرُ وانفرجـت ... مسافةُ الخُلف بيـن القَـولِ والعَمـلِ
وشان صدقَك عنـدَ النـاس كذْبهُـمُ ... وهـل يطابـقُ معـوجٌّ بمعتـدَلِ
إن كان ينجعُ شـيء فـى ثباتهـم ... على العهود فسبـقُ السيـف للعَـذَلِ
يا واردا سـؤر عيـش كلـهُ كـدرُ ... أنفقت عمـرَك فـى أيامـكَ الأولِ
فيم اعتراضك لـجَّ البحـرِ تركُبـه ... وأنت تكفيـك منـهُ مصـة الوَشَـلِ
ملك القناعـة لا يخشـى عليـه ولا ... يُحتاج فيـه إلـى الإبصـارِ والحـولِ
ترجو البقـاء بـدارٍ لاثبـاتَ لهـا ... فهـل سمعـتَ بظـلَ غيـر منتقـلِ
ويا خبيـرا علـى الأسـرارِ مطلعـا ... اصمتْ ففي الصمتِ منجَاةٌ من الزَّلـلِ
قد رشحوك لأمـرٍ إن فطنـت لـه ... فاربأ بنفسكَ أن تَرعـى مـع الهَمَـلِ

* * *

شاعر هذه القصيدة هو أبو إسماعيل مؤيد الدين الحسين بن على بن عبد الصمد الذى اشتهر بلقب «الطغرائى». هو صاحب الطغراء وهى الطرة التى تكتب فى أعلى الرسائل فوق البسملة بالقلم الغليظ ومضمونها نعت الملك الذى صدر عنه الكتاب. وكان للطغراء ديوان خاص بها فى دولة السلاجقة التى حكمت بغداد وبلاد العجم فى الفترة من عام ٤٤٧ هـ حتى عام ٥٢٥ هـ، ويضم هذا الديوان: الرسائل والإنشاء.

ولد الشاعر عام ٤٥٣ هـ فى جى من أصبهان فى أسرة من ولد أبى الأسود الدؤلى. ولم يدخر جهدا فى تثقيف نفسه ثقافة واسعة جعلته عارفا بأحداث عصره متقنا لأدوات فنه: الكتابة والشعر. كان طموحا إلى المناصب العالية، يرى نفسه أهلا لأعلى المناصب فى دولة السلاجقة فانخرط فى سلك الكتاب يسعى إلى إقامة أوثق العلاقات مع الرؤساء والوزراء، وبعد أن تقلب بين السراء والضراء أصبح نائبا لديوان الطغراء ولم يلبث أن أصبح رئيسا لهذا الديوان نفسه. ولكنه كان يرى فى هذا الديوان مجرد مرحلة على الطريق إلى الوزارة، وقد بدأ يعمل لهذا الهدف مثابرا لا يكل، وقد لاحظ المحيطون به من كبار موظفى

دولة السلاجقة هذا الطموح الغلاب الذى يشتعل فى صدره كما كانوا خير من يعرف مواهب الطغرائى فى الشعر والنثر مما يجعل هدفه قريبا منه. وكان أن حاصرته الكراهية والحسد والكيد وها هى الدسائس تسد عليه طرقه متخذة من الكذب والافتراء وسيلة للقضاء على هذا الشاعر الطموح. وقد انتصرت الأحقاد فعزل عن ديوانه فى الوقت الذى كان يخطط فيه للوصول إلى الوزارة، ولا شك أن الإحباط قد أصاب نفسه المرهفة بجرح غائر فى سويداء قلبه مما دفعه إلى الرحيل والهجرة إلى أصفهان، ولعله أمضى فترة معتزلا ومنصرفا إلى الكيمياء والتأليف كما يقول محققا ديوانه الدكتور على جواد الطاهر والدكتور يحيى الجبورى. ولكن الشاعر يعود من جديد إلى ديوان الطغراء فى أصفهان عام ٥٠٩ هـ ولكن لعنة حساده تطارده فيكيد له أحد هؤلاء الحاقدين فيتهم بالسحر ويعزى إلى سحره مرض السلطان محمد، ولم تلبث الأوساط القريبة من بيت الحكم أن صدقت الشائعات عن سحره فعزل مرة أخرى ولكنه عاد مرة ثالثة إلى الديوان بعد وفاة السلطان محمد وتولى ابنه محمود السلطنة من بعده ولكن اللعنة تطارده حتى تضطره مرة ثالثة إلى الاعتزال وملازمة بيته. ولم يهدأ باله لهذه العزلة رغم أنه كان فى التاسعة والخمسين من عمره، ولكن شهوة الطموح والوصول إلى كرسى الوزارة كانت ما تزال متأججة فىصدره. فرحل إلى الموصل حيث الملك مسعود بن السلطان محمد الذى استوزره. وكان صغيرا فى الحادية عشرة من عمره، يدبر له أمر مملكته قائد جيشه. ولم يلبث هذا القائد أن فكر فى انتزاع السلطنة من السلطان محمود وضمها إلى سلطنة مسعود حتى تكون تحت يده، وتبدأ المواجهة بين جيوش السلطان محمود وأخيه السلطان مسعود ويكتب النصر للأول ويؤسر الشاعر بعد هزيمة حامية ويواجه أعداءه مرة أخرى، أعداءه الذين حاصروه وأقعدوه وها هم الآن يمسكون به كالطائر الجريح لا يملك من أمر نفسه شيئا، ويتهم الشاعر بالإلحاد وهو فرية كانت مجرد ذريعة للقضاء عليه، وقتل الشاعر ظلما فى ربيع الأول من عام ٥١٥ هـ. ولم يمكث الشاعر فى المنصب الخطير الذى أفنى حياته طلبا له أكثر من عام وشهر واحد. وهكذا فتك به طموحه الغلاب فى زمن كانت الدسائس والمؤامرات فيه هى نظام العصر وطبيعته. ولا شك أن مأساوية العصر الذى عاش فيه الشاعر هى التى طبعت فى نفسه الصورة القاتمة للناس من حوله وجعلته سيئ الظن بهم. فالحلقة المفرغة من الولاية والعزل والإقامة والرحيل والوصول إلى الهدف والبعد عنه قد ألقت به فى جحيم حقيقى من الشك والريبة والخوف،

وكان الشعر هو حليفه الدائم الذى صب فى قواريره الزاهية عصارة تجاربه القاسية ومرارة أيامه التى كانت تزداد قتامة. ويبدو أن تجدد الأمل فى حياته هو الذى جعله يحرص على المثابرة وتجاوز اليأس فى نفسه. فقد كانت حظوظ حياته المتقلبة مراوغة فلا هى تدعه فى النجاح الذى شقى فى الحصول عليه ولا تلقى به فى فشل نهائى يدفع به إلى يأس مريح.

والقصيدة التى نحن بصددها لامية العجم واحدة من عيون الشعر العربى فى كل عصوره، وبها اشتهر الشاعر فى مختارات الشعر العربى ولدى الشراح والباحثين والنقاد والبلاغيين. ولعل هذه القصيدة أن تكون أكمل نموذج لحياته وشعره ففيها كل عناصر المأساة التى حكمت حياة الشاعر رغم أنه قالها فى بغداد عقب عزله الأول عام ٥٠٥ هـ ولكنها توشك أن تكون نبوءة كاملة بمستقبل أيامه كما كانت صوره تقترب من الكمال لماضيه الذى قضاه فى صحبة هواجسه ومخاوفه وشكوكه وحزنه ويأسه وأمله.

والقصيدة من الناحية الفنية توحى باتجاه الشعر العربى فى هذا القرن السادس الهجرى إلى الدخول فى شحوب الأفول على أبواب عصور الانحطاط الطويلة التى سادت الأدب العربى بعد سقوط الخلافة الإسلامية فى أيدى الأجناس الأعجمية. هذه العصور التى تتميز بالاحتفال الشديد بالمحسنات البديعية من جناس وطباق ورد العجز على الصدر ولعب بالألفاظ إلى آخر هذه الأنواع التى عكف البلاغيون المتأثرون بعلم المنطق على صياغة قواعدها، وأقبل عليها الشعراء السطحيون تعويضا عما افتقدوه من مواقف كبرى فى مواجهة الحياة التى كانت تتردى بهم إلى حيث لا يعلمون ولا يقدرون على مقاومته. وكان عصر المتنبى وأبى العلاء وأبى فراس قد انقضى وبدأت عصور الضعف، ولكن ذلك لا يعنى أن القصيدة تعانى من هذه الأمراض الفنية. ولأن القصيدة قد كتبت فى لغة تمت إلى عصر العمالقة من الشعراء بأوثق الأسباب فهى جزلة، متينة الصياغة حافلة بالصور القوية الأخاذة تقترب من القصيدة الجاهلية فى وصفها للرحلة، وتندمج فى القصيدة العباسية وهى تتحدث عن الخمريات، وكلنها تؤكد بكل وضوح أنها بنت عصرها الذى كتبت فيه وأنها جسدت مأساويته وارتفعت فى أسلوبها إلى التعبير الشامل الذى يبدأ من التجربة الجزئية الخاصة ويصل إلى العام. وتلمع خلالها أبيات قد نختلف معها من الناحية الفكرية حين نفهم الصلة بين الإنسان والعالم على أساس من الشك والخوف والريبة فى إطار من العزم واليأس ولكن الشاعر فى النهاية ليس مفكرا، إنه شاعر يستخدم أدوات بالغة الحساسية لينفذ إلى صميم وجداننا.

اشتهرت لامية العجم كواحدة من أفضل قصائد الشعر العربى، واشتهر بها الطغرائى فهل هى قصيدة فى الحكمة كما يوحى نصفها الأخير؟ هل هى قصيدة فى الشكوى كما توحى معظم أبياتها؟ أم هى قصيدة متعددة الأغراض وإن كانت تعبر فى حذق ومهارة وصدق نادر عن أزمة حادة يعيشها الشاعر؟ هى أزمة حياته كلها، بل الصحيح أنها أزمة العصر الذى عاش فيه الحكم السلجوقى الذى أنهى دولة بنى بويه وأقام أساس ملكه على شريعة النظم المأساوية التى أقامها الغدر والمكيدة والطمع وشهوة التسلط والسلطان. إن أعظم أسباب نجاح هذه القصيدة وذيوعها هى أنها صادقة كل الصدق فى خلق صورة حية رنانة من الحكمة التى تذكرنا بمجد أبى الطيب المتنبى وسوداوية أبى العلاء المعرى، وإنما هى عمل من الأعمال النادرة التى يقيض لها أن تكون شاهدا يطفح بالمرارة على قسوة العصر الذى قيلت فيه. وذاتية الشاعر واضحة منذ الافتتاحية المباشرة التى توشك أن تزج بالقصيدة فى غرض تقليدى من أغراض الشعر وهو الفخر حين يقول:

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل وحلية الفضل زانتنى لدى العطل
مجدى أخيرا ومجدى أولا شَرع والشمس رأد الضحى كالشمس فى الطفل

المباشرة التى تسود التعبير لا تنفرنا ولا تبعدنا عن التعاطف مع القصيدة لأنها صيغت فى بناء متماسك يذكرنا بافتتاحيات المتنبى الجهيرة وصوره الشعرية القوية.

ويبدو أن الشاعر الذى عانى القسوة والكراهية والحسد من المحيطين به قد شعر بضعفه وإحباط مساعيه، ولأنه شاعر طموح قوى النفس بعيد الهمة لا يستسلم ولا ييأس فقد آثر أن يرفع فى وجه فشله سيف الفخر والثقة فى النفس. ولكن هذا الصوت المتفاخر الشامخ لا يلبث أن يهوى فجأة إلى هاوية الإحساس بالغربة والوحشة والفقد وإن كان فى تشبيه نفسه بالسيف الذى يخلو من العيب ما يشير إلى أن حاله التى هو عليها بما فيها من شقاء لا تعزى لعيب فيه وإنما لخلل فى زمانه. لقد رسم فى بداية القصيدة صورة درامية لأزمة نفس عالية الهمة. نفس بطل لا يقبل الهزيمة ولا الفشل، فهو رجل ماجد ولكن الأزمة تمسك بخناقه فهو غريب فقير وحيد، كل شىء فى حياته يعانى من غياب ما يكفيه ويسعده بينما هو رجل همه فى طلب المعالى. إن هدفه واضح:

أريد بسطةَ كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلى قبلى

هو يريد أن يقوم بالتزاماته تجاه المجد فعليه واجبات أسانية للعلى لابد من القيام بها ولكن الدهر يعاند ويعكس له الآمال ويضطره إلى التراجع للرضى من الغنيمة بالإياب. إن شخصية الشاعر تتبدى قوية حازمة مصرة على تحقيق هدفها فى الحياة. ورغم قوة ما يعانيه إلا أنه عازم على المضى وعدم الاستكانة إلى حيث ترغمه الأقدار التى يسميها الدهر. فها هو يأخذ بزمام راحلته جسورا مقداما إلى حيث يهوى وماذا يفعل وقد كتب عليه أن يكون حبه فى موضع به أعداؤه ويا له من اختيار صعب أن يكون الحب فى مكان واحد مع البغض أوتكون العداوة حارسة للحب، ها هو يخاطب جواده:

فسر بنا فى ذمـــام الليـــل مهتديـــــا بنفخة الطيب يهدينـا إلـــى الحلـــــل
فالحب حيث العدى والأسـد رابضـــــة نصالها بميـــاه الغنـــج والكحـــــل

والحقيقة أن الشاعر قد أدخل حديث الحب فجأة وهو يسرع براحلته إلى طلب المعالى كحيلة شعرية للتخفيف من صرامة الاسترسال فى حديث الجد وقعقعة السلاح، فرأى أن يروح عن متلقى شعره بهذه الفاكهة الحلوة التى تطيب بها النفوس والتى كان الشعراء القدامى يصدرون بها قصائدهم طلبا لإقبال الآذان على شعرهم ولا شك أن هذا الإحساس يؤكد رهافة مشاعر الطغرائى وبراعته فى صياغة عمله الفنى. ولكن ذلك الجزء من القصيدة لا يعد مجرد فاصل رقيق من المشاعر الناعمة للتخفيف من احتدام الأزمة القاسية التى تحاصره وإنما هى جزء رمزى يشير إلى أن هدف الشاعر وأمانيه وأحلامه تتبدى له غراما تولع به النفس وعشقا تسعد به القلوب وتبذل من أجله التضحيات وتسهل من أجله الصعاب. وإذا كان الشاعر قد كرس الجزء الأول من القصيدة لكشف مأساته ومعاناته كبطل تراجيدى يدخل فى صراع مرير مع الواقع من أجل تحقيق أحلامه فقد كرس الجزء الأخير لما يمكن أن نطلق عليه شعر الحكمة. ويالها من حكمة بالغة القسوة تلك التى تمخضت عنها تجاربه الأليمة. لقد حاول الشاعر أن يضع نتائج تجاربه فى قاعدة شعرية عامة تقف على حدود الفلسفة وعلى أبواب الشعر متخذة من النعيم صورتها النهائية. وهذه الأبيات تبدأ بالبيت الذى يقول:

حب السلامـة يثنـــى هـــم صاحبـــــه عن المعالى ويغـرى المـــرء بالكســـــل

هذه الأبيات تحتفل بها كتب الأدب كجزء عزيز من أدب الحكمة. ولا شك أن هذا البيت يقف كموعظة بليغة صادقة فى التعبير عن موقف من الحياة يحكم عليها بالسلبية

والموت. فلا شك أن إيثار السلامة هو الذى يقود إلى الجمود والسلبية فى الحياة وقد يكون سببا قويا فى حرماننا من الحياة نفسها. ثم يحدد الشاعر طريق الكرامة والمجد فى الرحلة والترحال والحركة الدائمة. وهكذا كانت حياته وهو يعلى بصورة قوية من دوافع الأمل فى الحياة. فهذا الأمل هو خيط الفجر الذ يؤذن بانتهاء الليل.

أعلـــل النفـــس بالآمـــال أرقبهـــا ما أضيق العيش لولا فسحـــة الأمـــل

إن أبيات هذا الجزء من القصيدة تمزج الشكوى بالحكمة بالفخر بالموعظة فى إطار من إدانة العصر متهما الحظ – هذه الصيغة الغامضة للأقدار والظروف المحيطة – بأنه هو الذى يتنكر له ويمشى فى ركاب من هم أقل منه فى كل شىء.

تقدمتنـــى أنـــاس كـــان شوطهـــم وراء خطوى إذ أمشى علـــى مهـــل

ولأول مرة فى القصيدة يلوم الشاعر نفسه وإن كان هذا اللوم يأتى فى صيغة عامة تصلح لكل امرئ يعاتب نفسه فى لحظة الفشل:

هذا جزاء امـــرئ أقرانـــه درجـــوا من قبله فتمنـــى فسحـــة الأجـــل

والشاعر يلجأ إلى نوع من الأقيسة المنطقية الهشة التى ندرك من أول وهلة تهافتها ولكنها مجرد عزاء غير مؤكد لهمّ نفس أصابها الفشل. وإذا كانت تجربة الشاعر قد حركت روحه إلى ينابيع الحكمة فى بعض الأبيات فارتوت منها وحاولت أن تقربنا من منهلها العذب فإن تجربة الشاعر أيضا قد دفعت نفسه المفعمة بالمرارة إلى نوع من القسوة التى تفتقد إلى الإنصاف فى الحكم على الحياة والأحياء. وإذا كان الشاعر قد حاول أن يخلص من ذاته إلى إطار عام من القواعد العامة والحكم الجليلة فإن ذاته قد عادت لتسيطر بسوداوية قاتمة على صورة العالم المحيط به. هذا العالم الذى رأى فيه الشاعر عدوا ماكرا لئيما دائم الغدر والكذب، ورأى فى الناس صورة من الشر والقسوة والغض، فانتفى فى هذا العالم وفى هؤلاء الناس الوفاء والحب والتكافل والثقة حتى لنجد الشاعر يدلى بأحكامه اليائسة فى وجه الجميع فيتهم الأقربين ويشك فى الجميع ولا يجد سندا له إلا فى قوته الذايتة وحدها.

ها هو بجانب الإنصاف والموضوعية ويستسلم للغضب وعدم الثقة فيقول:

أعـدى عـدوك مـن وثقـــت بـــــه فحاذر الناس واصحبهم علـــى دخـــل
وإنمـــا رجـــلُ الدنيـــا وواحدهـــا من لا يعول فى الدنيـــا علـــى رجـــل

وتدخل القصيدة من هذا المنعطف إلى اليأس فقد اسودت الدنيا فى وجهه وها هو يرى أن حسن الظن بالناس نوع من العجز، ويعلن غياب الوفاء وتفشى الغدر ومخالفة القول للعمل. وكان لابد أن يقوده عدم الموضوعية والغضب والسخط والتبرم إلى أن يشعر باليأس يطوق خطواته. ذلك لأنه بعد أن أحكم الحصار حول أعناق الناس فكأنه فى الواقع قد أحكمها حول عنقه هو نفسه أولا. من هنا يواجه الشاعر حياته خائر القوى يائسا لا قبل له بما هو مقبل عليه. لقد ضاع الأمل من الشاعر فثقل عليه كل شىء.

فيم اعتراضك لـج البحـــر تركبـــه وأنت تكفيك منـه مصـة الوشـــل

بدأ الشاعر يحدث نفسه بالاقتناع بالقليل بدلا من الطمع فى الكثير، فالقناعة لا تحتاج إلى الأنصار الذى يخذلون ولا إلى الأعوان الذين يغدورن وها هو يصل إلى قمة الدراما إنها التخلى عن الحياة ذاتها:

ترجو البقاء بـــدار لاثبـــات لهـــا فهـل سمعـت بظـل غيـر منتقـــل

إن القصيدة تتطور بطريقة درامية من موقف الأزمة إلى موقف الهزيمة لتصور محنة شاعر التف حول ذاته وسيطر عليه طموحه ورأى فى هذا العالم كله أعداء له. إنه بطل تراجيدى يواجه قدرا صنعه بنفسه ليسقط فى النهاية ضحية له. وإذا كانت القصيدة تحفل بقيم إيجابية كثيرة فى مقدمتها إعلاء شأن الأمل فإن موقف الشاعر الأساسى كان من أعظم سلبياتها، هذا الموقف هو رؤية العالم من زاوية خاصة جدا، رؤية تقول إما أن يكون هذا العالم فى خدمتى أو فليذهب إلى الجحيم، ولا نستطيع بالطبع أن نصل إلى حكم قاس على هذا الشاعر وحده الذى قتله طموحه لأن هذا الحكم ينبغى أن يشمل العصر الذى عاش فيه وغرس فى نفسه هذه البذور المريرة التى تجلت فى هذه الحكمة القاسية التى حدثتنا عنها قصيدته.

إن شخصية الطغرائى مثل شخصية المتنبى. مأساوية فى جوهرها لأنها وجدت نفسها محاصرة بين واقع لا تريده وآمال لا تقدر عليها، ويا له من مصير فاجع مشترك بين المتنبى والطغرائى.

أبو الهول

لأمير الشعراء احمد شوقى

أبا الهول: طالَ عليك العُصـــر ... وبُلِّغْتَ فى الأرض أقصى العُمُـرْ
فيالدةَ الدهر: لا الدهرُ شَـــبَّ ... ولا أنتَ جاوزتَ حدَّ الصَّغـــر
إلامَ ركوبُـك متـنَ الرمـــال ... لطيِّ الأصيل وجوب السَّحَـــرْ
تسافرُ منتقلا فـى القـــرون ... فأيان تلقـى غُبَـــارَ السَّفَـــرْ
أبينك عهـدٌ وبيـــن الجبـــال ... تزولانِ فى الموعـدِ المنتظـــرْ

* * *

أبا الهـول ماذا وراء البقـــاء ... اذا ما تَطـاولَ غيرُ الضَّجَـــرْ
عجبتُ لُقْمانَ فـى حِرصِـــهِ ... علـى لبـدٍ والنسـورِ الأخَـــرْ
وشكوى لبيد لطـول الحيـــاة ... ولو لم تطل لتشكـى القصـــرْ
ولو وَجدتْ فيكَ يا ابن الصفـاةِ ... لحقـتَ بصانعـك المقتـــدِرْ
فإن الحيـاةَ تَفُـلُّ الحديـــد ... اذا لبستـه وتبْلـى الحَجَـــرْ
أبا الهول ما أنت فى المعضلات ... لقد ضَلَّت السبلَ فيك الفِكـــر
تحيرت البدوُ مـاذا تكـــونُ ... وضلَّت بوادِى الظنون الحَضَـــرْ
فكنت لهم صـورة العنفـــوان ... وكنت مثالَ الحِجى والبَصَـــرْ
وسرك فـى حجبـه كلمـــا ... أطَلت عليه الظنـون استتـــر
وما راعهم غيرُ رأس الرجـــالِ ... على هيكلٍ من ذوات الظُّفُـــرْ
ولو صوروا من نواحى الطبـــاع ... توالوا عَلَيك سبـاعُ الصـــور
فيا رُبَّ وجه كصافى النميـــرِ ... تشابـهَ حـاملُـه والنَّمـــرَ
أبا الهول ويحـك لاَ يُستقَـــلُّ ... مَع الدهر شـىء ولا يُحْتَقَـــرْ

تهزأت دهرًا بديكِ الصبـــــاح ... فَنَقَّـرَ عينيـكَ فيمـا نَقَـــرْ
أسالَ البياضَ وسلَّ الســـــوادَ ... وأوغلَ منقارُه فـــى الحُفَـــرْ
فعدت كأنـكَ ذو المحبسيـــــن ... قطيع القيام سليـب البصـــــر
كأن الرمال علـــى جانبيـــــك ... وبين يديك ذنـــوبُ البشـــــر
كأنك فيهـــا لـــواء القضـــــاء ... علـى الأرض أو ديدبان القـــدر
كأنك صاحـب رمـــل يـــــرى ... خبـايا الغيوب خلال السطـــــر

* * *

أبا الهول أنت نديمُ الزمـــــان ... نجيُّ الأوان سميـــرُ العُصُـــرْ
بسطت ذراعيـــك مـــــن آدم ... ووليت وجهك شطـر الزمـــــر
تطلُّ علـــى عالـــم يستهـــــل ... وتُـوفى علـى عالـم يُحْتَضـــرْ
فعينٌ إلى من بـــدأ للوجـــود ... وأخرى مشيعَـةٌ مـــن غبـــرْ
فحدث فقد يُهتدى بالحديـــث ... وخبِّر فقد يؤتسـى بالخبـــر
ألم تبل فرعـونَ فـــى عِـــزِّهِ ... إلى الشمس معتزيـا والقمـــــر
ظليلُ الحضارة فـى الأوليـــن ... رفيع البنـاء جليـلُ الأثـــرْ
يؤسس فـى الأرض للغابريـــن ... ويغـــرس للآخريـــن الثمـــرْ
وراعك ما راعَ من خَيلِ قمبيـــز ... ترمـــى سِنابكهـــا بالشـــررْ
جوارفُ بالنار تغـزو البـــلاد ... وآونـــة بالقنـــا المشتجِـــرْ
وأبصرتَ إسكندراً فـــىالمـــلا ... قشيبَ العُلا فى الشباب النَّضـرْ
تَبَلَّـجَ فـــى مصـــر إكليلـــه ... فلم يعد فى الملك عمر الزَّهـــرْ
وشاهدت قيصَر كيف استبـــد ... وكيـف أذلَّ بمصـــر القَصَـــر
وكيـــف تَجَبَّـــرَ أعوانُـــه ... وساقُوا الخلائق سَوْقَ الحُمُـــرْ
وكيف ابتلوا بقليـل العديـــد ... من الفاتحيـن كريـم النَّفَـــرْ
رمى تاجَ قيصر رَمْىَ الزّجـــاج ... وفَلَّ الجمـوعَ وثَـل السُـــرُرْ
فدع كـلَّ طاغيـــةٍ للزمـــانَ ... فإن الزمـــانَ يقيـمُ الصَّعَـــرْ
رأيتَ الدياناتِ فـى نظمهـــا ... وحين وَهَى سلكُهَـــا وانتثـــر

تشـادُ البيوتُ لَها كـالبروج ... إذا أخذَ الطرفُ فيهـا انْحَسَرْ
تلاقى أساسـا وشـمَّ الـجبال ... كما تتلاقى أصـولُ الـشَّجَرْ
وإيزيسُ خلـف مقاصيرهـا ... تَخطَّى الملـوكُ إليهـا السُّتُرْ
تضيء على صفحـات الـسمَاءِ ... وتشرقُ فى الأرضِ منهـا الحُجَرْ
وآبيس فـى نيره العـالمون ... وبعضُ العقـائد نيـرٌ عَسـرْ
تساسُ به معضـلاتُ الأمـورِ ... ويرجـى النعيمُ وتُخَشى سَقَرْ
ولا يَشـعرُ الـقومُ إلا بـه ... ولو أخذتْه الـمدى مـا شَعَرْ
يقل أبـو الـمسك عـبدًا له ... وإن صاغ أحـمدُ فيه الـدُّرَرْ
وآنسـت موسـى وتـابوته ... ونور العصى والوصـايا الغرر
وعيسـى يَلُمُّ رداء الحيـاء ... ومـريم تجـمعُ ذيـلَ الـخَفَرْ
وعمرو يسوق بمصـر الصحابَ ... ويزجى الكتابَ ويحدو السُّرُرْ
فكيف رأيتَ الـهدى والضلالَ ... ودنيا الملـوك وأخـرى عُمَرْ
ونبذ المقوقـس عـهد الفجور ... وأخذ المقوقس عهـد الـفجرْ
وتبديلَه ظلمـات الـضلال ... بصبح الـهداية لمـا سَـفَرْ
وتأليفـه الـقبطَ والمسلـمين ... كمـا ألفـت بالـولاء الأسَـرْ
أبا الـهول لـو لـم تـكن آيـةً ... لكـان وفاؤك إحـدى الـعبرَ
أطلْتَ علـى الهرمين الوقوف ... كثاكـلة لا تـريمُ الـحفر
تُرجّـى لبانيهمـا عـودةً ... وكيف يعود الـرميمُ الـنخِرْ
تجوسُ بعين خـلالَ الـديار ... وترمى بأخرى فضاءَ الـنَّهَرْ
تـروم بمنفيس بيـض الـظبا ... وسمر القنـا والخميـس الدثر
ومهد العلـوم الخطير الجلال ... وعهد الفنـون الجليـل الخطر
فـلا تستبينُ سـوى قريـة ... أجـدُّ محاسنهـا ما اندثـر
تكاد لإغراقهـا فى الـجمود ... إذا الأرض دارت بهـا لم تدر
فهل من يبلِّغ عنـا الأصـول ... بأن الـفروع اقتدت بالـسير
وأنّا خطبنـا حسـان العـلا ... وسقنا لهـا الغـالى الـمدخر
وأنّا ركبنـا غمـار الأمـور ... وأنّا نزلنـا إلـى الـمؤتمر

بكل مبين شديـــد اللـــداد وكل أريـــب بعيـــد النظـــر
نطالب بالحـــق فـــى أمـــة جرى دمهـا دونـــه وانتشـــرْ
ولـــم تفتخـــر بأساطيلهـــا ولكـن بدستورهـــا تفتخـــرْ
فلم يبق غيرُك من لـم يخـــف ولم يبق غيرُك من لـم يطـــرْ
تحرك أبا الهول هذا الزمـــان تحركَ ما فيه حتـى الحَجَـــرْ

وعلى لسان أبى الهول جاءت هذه الأبيات:

نجىَّ أبى الهـــول آن الأوان ودان الزمـــان ولان القـــدر
خبأت لقومك مـا يستقـــون ولا يخبأ العذب مثل الحجـــر
فعندى الملـــوك بأعيانهـــا وعندى التوابيت منها الأثـــر
محا ظلمة اليأس صبح الرجـاء وهذا هـو الفلـــق المنتظـــر

شاعر هذه الخريدة هو أمير الشعراء أحمد شوقى الذى شغل الناس فى هذا العصر الحديث كما شغلهم أبو الطيب المتنبى فى القرن الرابع الهجرى والقرون التالية له: ذلك لأن كلا الشاعرين قد بهر الناس بهذا الشعر الرفيع الذى جعل من اللغة مادة سحرية تنفذ إلى الوجدان الراكد فتحركه وتدفعه إلى السمو بأحلامه إلى عنان السماء. ومهما يكن من أمر المقارنة بين المتنبى وشوقى وتقديم كل منهما على الآخر فإن الأمر الذى لا يمارى فيه أحد أن شوقى والمتنبى عملاقان شاهقان أوتى كل منهما موهبة كبيرة على صياغة رؤاه بأقصى مهارة تقدر عليها اللغة وتستجيب لها. وإذا كان حظ المتنبى قد مضى له الحرمان والشقاء والاحباط فكأن الأقدار قد أرادت التكفير عن ظلمها للمتنبى أو ظلم المتنبى لنفسه فمنحت شوقى الرفعة والرخاء والقرب من الملوك مشمولا بالرضى، ولعل هذا أن يقضى قضاء حاسما على فكرة شاعت طويلا بين بعض الأدباء بإقامة علاقة متعسفة بين الحرمان والإبداع الرفيع. فها هو شوقى يبدع بلا حرمان وها هو المتنبى يبدع وسط حرمانه. إن المعول دائما إنما هو على الموهبة والإرادة الصادقة التى تقف وراء هذه الموهبة.

ولد أحمد شوقى فى ١٦ أكتوبر عام ١٨٧٠ لأسرة اختلطت فيها الدماء المصرية التركية اليونانية، وكان رب هذه الأسرة يعمل فى معية الخديوى. والتحق بمدرسة الحقوق عام ١٨٨٥ وبقى بها حتى عام ١٨٨٩ وفى عام ١٨٩٠ عينه الخديوى توفيق فى قلم السكرتارية

الخديوية بقسم الترجمة حتى عام ١٨٩٣ حيث سافر فى بعثة على نفقة الخديوى توفيق إلى فرنسا ليكمل دراسته فى الحقوق قضاها بين مونبليه وباريس وزار خلالها إنجلترا وكثيرا من قرى ومدن الجنوب الفرنسى. وفى عام ١٨٩٦ أوفدته الحكومة المصرية ممثلا لها فى مؤتمر المستشرقين فى جنيف حيث ألقى قصيدته الطويلة «كبار الحوادث فى وادى النيل»، ثم سافر من هناك فى رحلة إلى بلجيكا، وقد نشر الجزء الأول من ديوانه الشوقيات عام ١٩٠٠، ونفى إلى أسبانيا فى الفترة من ١٩١٥ حتى ١٩١٩ وفى عام ١٩٢٤ عين عضوا بمجلس الشيوخ، وبايعته وفود الدول العربية فى ٢٩ أبريل عام ١٩٢٧ أميرا للشعراء، وكان الاحتفال بتنصيبه أميرا للشعراء قد أقيم فى دار الأوبرا بالقاهرة ولقى ربه فى الرابع عشر من أكتوبر عام ١٩٣٢ عن اثنتين وستين سنة.

تعتبر الشوقيات هى العمل الشعرى الرئيسى لأحمد شوقى وهى ديوان من أربعة اجزاء يتناول الجزء الأول رؤيته السياسة والتاريخية والاجتماعية، وفى هذا الجزء الهام يتضح اهتمام شوقى الكبير بأحداث عصره، أما الجزء الثانى فيضم قصائده فى الوصف والنسيب وبعض الأغراض الأخرى، ويكاد الجزء الثالث أن يكون مكرسا كله لشعر الرثاء وقد طبع الجزء الرابع بعد وفاته، ويشتمل على قصائد فى السياسة والتاريخ وبعض القصائد التى أطلق عليها جامعها اسم الخصوصيات، وكذلك بعض الحكايات الشعرية تدور على لسان الحيوانات شبيهة بقصص «كليلة ودمنة» وقصص لافونتين فى اللغة الفرنسية. وقد صدر عام ١٩٦١ و ١٩٦٢ عن الهيئة العامة للكتاب ما عرف باسم الشوقيات المجهولة فى جزءين جمعها وعلق عليها الدكتور محمد صبرى السربونى.

كان شوقى رائدا فى مجال المسرح الشعرى، فهو الذى أسس لهذا الفن مدرسة هامة فى الشعر العربى المعاصر. وقد كتب شوقى عددا من المسرحيات الشعرية هى: على بك الكبير، ومصرع كليوباترة، ومجنون ليلى، وقمبيز، وعنترة، وأميرة الاندلس. والست هدى وهى ملهاة واقعية.

يقول أحمد شوقى فى مقدمة الشوقيات:

«إنى قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم ولا أجد أمامى غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها، وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء. ثم يتحدث عن وظيفة الشعر فيقول:

على أن الشعر ليس من حاجات العمران المادى الذى تتوقف عليه سعادة الإنسان فى هذه الحياة الدنيا ولكنه من كماليات العمران الأدبى الذى تسأم النفس عنده الحقيقة المجسدة والمادة المجردة وتميل فى بعض أوقاتها إلى التنقل بشعورها من عالم إلى آخر ومن فضاء إلى سواه، ولعل هذه هى الحكمة فىكون الشعراء قليلا عديدهم فى كل زمان ومكان لا تعطى الأمم منهم إلا بقدر حاجتها إليهم».

وقد تعرض شوقى لكثير من النقد، وهذا النقد نفسه كان يقدر قيمة شوقى كشاعر بلغ بالإطار التقليدى القمة فى الصياغة والأداء وأسفرت الحملات النقدية بالطبع عن تطور حتمى فى مسيرة الشعر، وكانت مدرسة الديوان – العقاد والمازنى – من أشد النقاد الذين تعرضوا لشوقى بالنقد الذى تطرق إلى التجريح فى بعض الأحيان. وإذا كان هذا النقد قد صحح بعض المعايير الفنية لدى الأجيال الطالعة فإنه فى الوقت نفسه لم يهدم هذا الصرح الفنى العظيم الذى شاده شوقى بعبقريته النادرة، وإذا كان شوقى يتعرض للنقد فما ذلك إلا لإفساح الطريق أمام إبداع معاصر يلائم روح العصر حتى يتمكن الشعر من التخلص من التقليد الأعمى والمسايرة الفنية التى درج عليها أنصاف الموهوبين.

قصيدة أبى الهول التى نحن بصددها واحدة من روائع أمير الشعراء التى اكتملت فيها عناصر شاعرية هذا الشاعر العظيم، ففيها تتجلى هذه الرؤيا التاريخية الشاسعة الأطراف اتساعا وعمقا مما يدل على ثقافة الشاعر من ناحية وارتباطه الوجدانى بهموم وطنه من ناحية أخرى. وفيها هذا الجنوح إلى تأمل رحلة الزمان تأملا ذا مستويين: المستوى الأول هو المظهر الخارجى التاريخى. وذلك من خلال سرد الأحداث وتتبع ظهور الممالك واختفائها، والمستوى الثانى هو المستوى الميتافيزيقى، وهو الذى يعلو على الحدث المباشر لحركة الحياة من الميلاد إلى الموت ومن القوة إلى الضعف. كل هذا من خلال هذا التمثال الباهر الذى يقوم شاخصا إلى الصحراء وكأنه يشهد شهادة صامتة ساخرة على ما يحدث وما يجرى. ما يقوم وما يسقط.

الشاعر يبدأ بالاستفهام الذى ينبئ عن الدهشة والإعجاب والحيرة، وكأن الشاعر بهذا يسلكه فى الأحياء وكيف لا وهو يحمل وجه إنسان وجسد أسد، إنه يشير بتكوينه إلى أعظم ما فى الحياة – العقل، وذلك بالمظهر الإنسانى الذى يتماثل فى وجهه، والقوة التى تتمثل فى جسده، وكأن أبا الهول بمظهره المجيد الخالد يؤكد أن الطريق إلى المجد

والخلود إنما يكون عن طريق واحد هو مزج القوة بالحكمة، وهل قالت الفلسفة والشعر والعلوم والفنون والحضارة أكثر من هذا؟ وكما قال الشاعر الإنجليزى شيلى إنما ينقص الأقوياء الحكمة وينقص الحكماء القوة. شوقى يسلك أبا الهول فى عداد الأحياء ولكنه يتساءل عن طول الرحلة فى قلب الزمان، وهذا المفتتح ليس أكثر من دهشة ومدخل إلى التأمل العظيم فيما وراء البقاء فى الزمان.

أبا الهـول مـاذا وراء البقـــــاء إذا ما تطــاول غير الضجـــــر

ويدخل الشاعر من دهشة البقاء فى الزمان إلى دهشة التناقض الإنسانى – فها هو لقمان الحكيم يحرص على طول عمره الذى ارتبط بأعمار سبعة نسور يهلك بعد هلاك آخرها، وكان آخرها هو لبد الذى كان لقمان أشد حرصا عليه من النسور الأخرى، وعلى الجانب الآخر من هذا الحرص نرى لبيد بن ربيعة يشكو طول عمره حيث يقول:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيـد

ولكن شوقى – الذى بدأ بالإيهام بأن أبا الهول حى وذلك بالحديث معه عن الضجر – يسفر عن وجه الحقيقة يؤكد لأبى الهول أن خلوه من الحياة هو الذى منحه البقاء. لأن الحياة تفل الحديد وتبلى الحجر إذا لبسته. وها هو يؤكد المعنى الذى ترمز له هيئة أبى الهول.

ورغم أنه يصور حيرة الناس من بدو وحضر فى تفسير لغز هذا الماثل المهيب فى الصحراء إلا أنه يعبر فى الواقع عن حيرته هو نفسه، إنه يتساءل عن الأسرار المحجبة، وها هو يعود إلى التأمل بعد التساؤل فى الوضع الإنسانى كما حدث بالضبط فى مقدمة القصيدة. بدأ بالتساؤل ثم ثنى بالتأمل. وها هو يرد على دهشة الناس وحيرتهم بالدخول إلى أعماق البشر. لماذا ينكرون هذه الهيئة الحيواينة الإنسانية؟ أليسوا هم أيضا كذلك: لو أن أجسادهم أخذت شكل صفاتهم لجاءت صورهم هكذا فى صورة الإنسان الحيوان، فلماذا يندهشون. ألا يحسون بالحيوانية بداخلهم، فكأنه يوحى بأن أبا الهول ليس إلا تفسيرا تشريحيا لمفهوم الإنسان، تفسير تشريحى يتضمن إجابة أخلاقية عن الوضع الإنسانى فى الوقت نفسه:

فيا رب وجه كصافى النميـــــر تشابــه حــاملــه والنمـــــر

لا عجب إذن أن تجىء يا أبا الهول على هذا النحو الغريب. فأنت لست إلا إنسانا ظهر على جسده ما كمن فى باطنه من صفات.

وها هو الشاعر أحمد شوقى يلتمس فى خياله الشعرى مددا على تفسير هذه الخربشات الواضحة فى وجه أبى الهول مستدعيا فى ذهنه أبا العلاء المعرى وعراف الرمال وما شاءت له ظنونه أن تستدعى لمعرفة لغز هذه الحقيقة الكامنة فى هذا الصخر، ثم يحاول بعد أن أعطاه صفة العراف أو المؤرخ أو الشاهد على كل العصور أن ينطق بما يرى وبما رأى وأن يفرض بالطبع رؤيته التاريخية مستخلصا من هذه الرؤية العظة الكبرى وهى فى الواقع هدف القصيدة، فقد كان شوقى شاعرا وطنيا أخلاقيا كبيرا، وتبدأ المسيرة الشعرية التاريخية بفرعون عزيزا فى ملكه ينتسب إلى الشمس والقمر، وها هو قمبيز والإسكندر وجنودهما ثم يأتى من بعد ذلك قيصر روما، عجل أبيس – إيزيس. وتمضى مسيرة الغزاة بمصر إلى أن يتوقف الشاعر وقفته الكبرى عن الفتح الإسلامى لمصر.

هنا يرى شوقى فى الإسلام نهاية لظلام الفجور وصبحا للهداية، يطلع تحت رايات عمرو بن العاص. ولا ينسى الشاعر بعد هذه الوقفة مع الفتح الإسلامى، لا ينسى دليله التاريخى أبا الهول فيناشده من جديد:

أطلت على الهرمين الوقـــوف كثاكلـــة لا تريـــم الحفـــــر
ترجـــى لبانيهمـــا عـــــودة وكيف يعود الرميـــم النخـــــر

إذن فأبو الهول يقف منتظرا عودة الفراعنة ولكن شوقى يستبعد هذه العودة، هل أحس الشاعر بلوعة التمثال وكأنه غريب فى الزمان يهاجر إلى زمنه الأول محلقا بحثا عن المجد والرخاء والقوة؟ لا شك أن هاجس القوة كان يحتل فى نفس الشاعر مكانا واضحا. فمصر كانت تبحث عن ذاتها فى ذلك الوقت، ومن الطبيعى أن يقوم الشاعر بهذا التشريح التاريخى مركزا على قيمتين أساسيتين هما: القوة – والعقل، وكأنه بهذا يشير إلى وطنه موضحا من خلال التاريخى أن طريق النهوض والبعث لابد له من هاتين القيمتين.

ولعل الحسرة تتبدى له وهو ينظر إلى عاصمة المجد القديمة ممفيس وقد انحطت إلى قرية أجد ما فيها ما قد اندثر. وما أروع هذه الصورة الباهرة للجمود. جمود هذه القرية التى كانت فى الماضى عاصمة للحضارة الفرعونية.

تكاد لإغراقها فـى الجمـــــود إذا الأرض دارت بها لم تـــدر

ثم يدعو الشاعر إلى النهضة والاقتداء بالأجداد:

فهل من يبلِّغ عنـا الأصـــول بأن الفروع اقتـــدت بالسيـــــر

هو فى الواقع ينهى قصيدته بنوع من الرضى عن أمته وعن خطواتها الشابة على مدارج الحضارة المعاصرة. وقد ألقيت هذه القصيدة فى حفل افتتاح مسرح الأزبكية «المسرح القومى حاليا» وكان تمثالا لأبى الهول قد أقيم فى فناء هذا المسرح فلما أتم الصوت الأول الذى ألقى القصيدة الأبيات التى قالها شوقى مسائلا أبا الهول، نهض صوت ليعلن أن الصبح طلع ثم انشق صدر أبى الهول عن فتى وفتاة مثلا أمامه وأنشدا نشيدا مطلعه:

اليوم نسـود بوادينـــا وتعيـد محاسـن ماضينـــا

تؤكد هذه القصيدة أول ما تؤكد ثقافة شوقى الواسعة ووطنيته وغيرته على بلاده، وهى تعطى صورة حية عامرة بالإحساس لهذه العبقرية الشعرية التى تألقت ولم تخب أبدا؛ فبحر المتقارب يستجيب لهذا السرد التاريخى الذى حاول الشاعر أن يلتقطه من العصور المختلفة، ولكن هذا البحر نفسه يتوتر ويصعد فى لحظات التأمل الميتافيزيقية ليلائم اللحظة النفسية التى يمر بها الشاعر. كما أن اللغة تكتسب مرونتها وقوتها من مهارة الموهبة التى تستخدمها، وقد كان شوقى عبقريا حقا فى صقل ديباجته الشعرية حتى صعد الشعر على يديه إلى ذروة عالية. وإذا كان شوقى قد أنشد الإنسانية هذه القصائد الباقية فإن هذه القصائد نفسها لن تكف عن إعطاء أبهى الصور وأزهاها لشاعرية أمير الشعراء أحمد شوقى.

***

الخريـــــف

للشاعر الدكتور إبراهيم ناجى

يا حبيبى غيمةٌ فـى خاطـــرى ... وجفونى وعلى الأفق سحابـــهْ
غفـرَ الله لهـا مـا صنعـــتْ ... كلما شاكيتهـا تَنـدَى كآبـــهْ
صـرخ القفـر لهـا منتحبـــا ... وبكى مستعطفا ممـا أصابـــهْ
فأصـمّ الغيـث عنـه أذنـــه ... ما على الأيام لو كـان أجابـــهْ

* * *

كثر الهجر على القلـب فهـــل ... مـن سلـو أو بعـاد يرتضيـــه
أنت فجر من جمـال وصبـــا ... كـل فجـر طالـع ذكرنيـــه
كيف جانبتـك أبغـى سلـــوة ... ثم ناجيتك فـى كـل شبيـــه
أيهـا الساكن عينـى ودمـــى ... أين فى الدنيا مكان لست فيـــه

* * *

عندما أزمـعَ ركـبُ العمـــرِ ... رحلة نحـو المغانـى الأخـــرِ
ظهرت تجلوك كـف القـــدرِ ... صورةٌ أروع مـا فـى الصـــورِ
نتراءى فى الشبـاب العطـــرِ ... نفحةً تحملُ طيـبَ السَّحَـــرِ
وقـفَ العمـر لهـا معتـــذرا ... وثنى الركـبُ عنـان السفَـــرِ

* * *

عندما أقفرت الدنيـا جميعـــا ... لحتَ لى تحمل عمـرا وربيعَـــا
إن يكن حلمـا تولـى مسرعَـــا ... أجملُ الأحلام ما ولـى سريعَـــا
إن يكن ما كان دينـا يقتضـــى ... خلنى ادفعـه عنـك دموعَـــا
قـد شربنـاه عَزيـزًا غاليًـــا ... إن تكن بعتَ فإنى لـن أبيعَـــا

يا ندامى الحب سمارَ الهـــوى اسكبوا لى السُّهْدَ فى ذاكَ الشرابْ
ارقونى أجـرع السقـم وبـــى صفرة الكأس وأوهام الحبـــابْ
كلمـا تُقبـل أيـام المنـــى تنجلى النعماءُ عن ذاك الســرابْ
وترى أيامى الحيـرى علـــى عرسها الضاحكِ أحزانُ الضبـابْ

* * *

لم أقيدكَ بشىء فـى الهـــوى أنت من حبى ومن وجدى طليـقْ
الهوى الخالص قيـد وحـــده رب حر وهو فى قيـد وثيـقْ
مزقت كفيك أشـواك الهـــوى وأنا ضقت بأحجـار الطريـق
كـم ظمـىٍّ بظمـىٍّ يرتـــوى وغـريـق مستعيـن بغريـق

* * *

ياليالى العمر ما ســر الليالـــى البطيئـات الممـلات الطـوال
مسرعـات مبطئـات ولهـــا خفة الموت وأثقـال الجبـال
كاسفات البال عرجـاءُ المنـــى عـاثراتُ الحظ شوهـاءُ الظـلالْ
عجبا للعمر يمضـى مسرعَـــا للمنـايـا بُسلحْفَـاةِ المـلالْ

* * *

يا قُمَارى الروض فى أيك الهـوى جفت الروضةُ من بعـد النديـمْ
حل بالأيـك خريـفٌ منكَـر وظـلال قـائمـاتٌ وغيـومْ
مـاتـتْ الروضـةُ إلا طائفـا مـن هوى حىٍّ على الذكرى يقـومْ
فـإذا أنكـر مـا حـل بهـا فـر يبغى سربَـه بيـن النجـومْ

* * *

شاهت الدنيـا وجوهـا ورؤى وتـولاهـا سهـومٌ ووجـومْ

يا عذارىَ الحسن فى ظل الصِّبَـــا كلُّ حسنٍ بعــد ليــلاى دميـــمْ
يا نعيمَ العيش فى ظــل الرضـــا آه لو أعرفُ مـا طعــمُ النعيـــمْ
أنكــر الجنَّـــة قلــب ضجـــر أبدىُّ النار موصــول الجحيـــم

* * *

طالما موهت بالضحــك فمـــا غَيَّرَ التمويهُ رأيــا لــك فيَّـــا
كلما تنظرُ فــى عينـــى تـــرى سرى الغافى ومعنــاى الخفيَّـــا
وترى فى عمق روحـــى زهـــرةً قد سقاها الحزنُ دمعًـــا أبديّـــا
ويــراه النـــاسُ طـــلاً وتَـــرى أنت دمعًا غائما فـــى مقلتيَّـــا

* * *

يافؤادى ما ترى هـذا الغـــروبْ ما ترى فيــه انهيــارَ العُمـــــر
ما ترى فيه غريقـا ذا شحـــوب يتلاشــى فـــى خضــم القـــــدرِ
ما تراها اتأدتْ قبـلَ المغيـــبْ ورمتْ مـن عرشهـــا المنحَـــــدر
لفتة الحسرة للشـــطِّ القريـــبْ قبل أن تسقَط خلــفَ النهـــــرِ

* * *

يا فـؤادى قاتـــل اللهُ الضَّجـــرُ وعذابــى بيـــن حِـــلّ وسَفَـــرْ
ما تـرى قنطـــرة مـــن بعدهـــا راحة ترجــى وبـــال يستقـــر
ذلـك الجـــرحُ ومـــا أفدحَـــه ما عليه لو إلى السلـــوى عَبَـــرْ
قد طـواه اليـــومُ فـــى بُردَتـــهِ وأتى الليـــلَ عليـــه فانفجَـــرْ

* * *

مر يومى فارغـا منـــكَ ومـــن أمل اللقيا فما أتعـــسَ يومـــى
أنت يومى وغدِى أنـــتَ ومـــا من زمان مر بى لـم تلُ هَمّـــى
آه كم أغـدو صغيـــرا حاجتـــى لك كالطفل إلـــى رحمـــة أمِّ
ولكم أكبـر بالحـــب إلـــى أن أغتدى مستشرفا أفـــاق نجـــم

أى سر فيك إننى لســـــت أدرى كل ما فيك من الأسـرار يُغـــرِى
خطرُ ينسابُ من مفتـــر ثغُـــر فتنةٌ تعصفُ من لفتـــة نَحْـــرِ
قدر ينسج من خُصلـــة شعـــرِ زورقٌ يسبحُ فى موجـــةِ عطـــرِ
عبابٍ غامضٍ التيـــارِ يجـــرى واصلا ما بين عينيكِ وعُمـــــرى

* * *

ذات ليـل والدجـــى يغمُرنـــــا أترى تذكرُ إذ جزنـــا المدينـــه
كلما روعت مـــن نـــار شـــج حر ما يصلى تلمسـت جبينـــه
بيد شفافة مثل الندى الرطـــبً تعيـد النـــار بـــردا وسكينـــه
أيهـا الآســى لنـــارى هـــذه ما الـذى تصنع بالنـار الدفينـــه

* * *

أخيـــالا كـــان هـــذا كلـــه ذلك الجسرُ الذى كنـــا عليـــهْ
والمصابيح التى فـــى جانبيـــه ذلك النيل ومـــا فـــى شاطئيـــهْ
وشعـــاع طوفـــت فـــى مائـــه وظلال رسبـــت فـــى ضفتيـــهْ
وحبيـــب وادع فـــى ساعـــدى ووعـــود نلتهـــا مـــن شفتيـــهْ

* * *

رب لحـــن قـــص خاطرنـــــا قصةَ الحادى الذى غنى سهـــادهْ
وكـأن الصمـــت منـــه واحـــة هيأت من عشبها الرطب وســـادهْ
ها أنا عدت إلى حيث التقينـــا فى مكان رفرفت فيـه السعـــادهْ
وبه قد رفرف الصمـت علينـــا إن فى صمت المحبيـن عبـــادهْ
رفرف الصمتُ ولكـــن أقبلـــت من أقاصـى السهل أصداءٌ بعيـــدهْ
تتهادى فـــى عبـــاب ساحـــر مرسل للشطِّ أمواجـــا مديـــدهْ
كـــم نـــداء خافـــتِ مبتعـــد تشتهى أذن الهوى أن تستعيـــده

عـاد منسابـا إلـى أعماقهـا هامسا فيها بأصـداء جديـده

* * *

رفرف الصمتُ ولكن هـا هنـا كل ما فيكَ من الحسـن يغنـى
آه كمْ مـن وتـر نـامَ علـى صدر عودٍ نـومَ غـاف مطمئـنٍّ
وبه شتى لحـون مـن أسـى وحنيـن وأنيـن وتمنٍّـى
رقد العاصف فيـه وانطـوت مهجةُ العودِ على صمتٍ مـرن

* * *

هـذه الدنيـا هجيـرٌ كلهـا أين فى الرمضاء ظلّ من ظلالـكْ
ربما تزخـرُ بالحسـنِ ومـا فى الدمى مهما غلت سرُّ جمالـكْ
ربمـا تزخـرُ بالنـور وكـم من ضياء وهو من غيرك حالـكْ
لو جرت فى خاطرى أقصى المنى لتمنيتُ خيالا مـن خيالـكْ

* * *

أنا إن ضافتْ بى الدنيا أفـىء لثوان رحبـة قـد وستعتنـا
إنما الدنيـا عبـابٌ ضمنـا وشطوطٌ مـن حظـوظ فرقتنـا
ولقـد أطفـو عليـه قلقـا غارقا فى لحظة قـد جمعتنـا
كلما تترى المعانـى أجتلـى خلف معناها لأسرارك معنـى

* * *

ما الـذى صبـا فـى الفـؤاد ما الذى إن أقصِهِ عنِّـى عـادْ
طاغيا يعصف عصفا بالرشـاد ظامئا سيـان قـرب وبعـادْ
ساهر العينين موصول السهـاد ما الذى يجرى لهيبا فى الرمـادْ
ما الذى يخلقنـا مـن عـدم ما الذى يجرى حياة فى الجمـادْ

* * *

كم حبيب بعدتْ صهباؤه وتبقت نفحة من حُبِّهِ
في نسيج خالدٍ رغم البلى عبث الدهرُ وما يعبث بهْ
ما الذى في خُصلة من شعره ما الذى في خطه أو كتبهْ
ما الذى في أثر خلّفه من أفانين الهوى أو عَجَبِهْ

* * *

ما الذى في مجلس يألفه عقد الحبُّ عليه موعدَهْ
ربما يبكي أسى كرسيهُ إن نأى عنه وتبكي المائدهْ
ربما تحسبها هشت إذا عائد هش لها أو عائدهْ
ربما تحسبها تسألنا حين تمضي أفراق لعدهْ

* * *

كم أعدَّت لك سترا في الخفاءْ وتوارتْ عن عيون الرقباءْ
كم أعدت نفسها وانتظرت واستوتْ موحشة تحت السماءْ
وهي لو تملك كفًا صافحتْ كفك الحلوة في كل مساءْ
وهي لو تملكُ جودا بذلت كل ما تملك كف من سخاءْ

* * *

رب كرم مده الليل لنا فتواثبنَا له نبغي اقتطافه
وعلى خيمته أسودُه عربيُّ الجودِ شرقيُّ الضيافهْ
وجد العرس على بهجته وسناه دون ورد فأضافهْ
ثم وارت يده جنية وطوته أساطير الخرافهْ
أرج يعبق في أنحائه حملته نحو عرشينا الرياحْ
كل عطر في ثناياه سرى كان سرا مضمرا فيه فباحْ
يالها من حقبة كانت على قِصَرٍ فيها كآماد فساحْ
نتمنى كلما طابتْ لنا أن يظل الليل مجهول الصباحْ

يا فؤادى العمر سفـر وانطـــوى وتبقت صفحـة قبـل النَّـــوَى
ما الذى يغريك بالدنيـا ســـوى ذلك الوجــه وذيـــاك الهـــوىَ

***

شاعر هذه القصيدة هو الشاعر الطبيب الدكتور إبراهيم ناجى، واحد من أبرز الممثلين لهذا التيار الشعرى الذى عرف فى الثلاثينيات بتيار المدرسة الرومانسية أو جماعة أبوللو التى أسسها الدكتور أحمد زكى أبو شادى ورأسها أمير الشعراء أحمد شوقى فترة قصيرة قبل وفاته. وقد انبثقت هذه المدرسة بمفهومها للشعر من الحملة النقدية التى قام بها عباس العقاد والمازنى فى كتابهما الهام «الديوان». فجاء شعر ناجى وأقرانه ثورة جذرية تعبر عن طموح الذات للتعبير عن نفسها والخروج من الإطار التقليدى الذى رفع قواعده العالية أحمد شوقى ومدرسته. وكان من بين شعراء مدرسة أبوللو البارزين إلى جانب الدكتور إبراهيم ناجى الشعراء على محمود طه وأبو القاسم الشابى وأحمد زكى أبو شادى والتيجانى يوسف بشير ومحمود حسن إسماعيل وحسين كامل الصيرفى وغيرهم، وكان ناجى يتميز بهذا الصوت المشحون بالألم الفياض بالعواصف الإنسانية، يتشح عالمه بهذا الحزن الغامر الذى يكتنف نفسه والطبيعة من حوله، ويتوغل فى صميم علاقاته الإنسانية. كان إحساسه بالزمن إحساسا رومانتيكيا، فالزمن عنده ليس الخلود الذى يتجاوز تطلعاتنا وطموحنا ويسحقنا فى لامبالاة قاسية، وإنما الزمن مندمج فى الحياة فلا فصل بينهما. زمن خاص لأن الحياة ذات مغزى خاص. ومن هنا فقد كانت رؤيته للزمن محدودة بأيام عمره. هذا العمر نفسه كان يجد حقيقته فى عاطفة واحدة وفى إحساس واحد، هى عاطفة الحب والإحساس بالسعادة. وكان الحب شاحبا والسعادة غائبة على الدوام.

ولد إبراهيم ناجى فى ٣١ ديسمبر عام ١٨٩٨ فى بيئة مثقفة محبة للعلم، حيث كان والده يمتلك مكتبة غنية، ولقد أدرك هذا الوالد منذ البداية علامات الموهبة تلوح فى مخايل ولده فوجهه للاستفادة منها. أعلنت شاعريته عن نفسها فى وقت مبكر فقد بدأ محاولاته الشعرية وهو فى الثالثة عشرة من عمره وكان إعجابه الأول بالشريف الرضى. تخرج فى كلية الطب عام ١٩٢٣ ومارس الطب لمدة أربع وعشرين سنة. بدأت مرحلة هامة

من حياة الشاعر بظهور ديوانه الأول «وراء الغمام» عام ١٩٣٤ وقد قوبل هذا الديوان – كما يقول الدكتور طه وادى فى كتابه «شعر إبراهيم ناجى الموقف والأداة» – «قوبل ديوان ناجى الأول بحفاوة بالغة ولكن نقد طه حسين قد أساءه وأدمى روحه. والحقيقة أن طه حسين قد ظلم الشاعر ناجى حين حكم على شعره بأحكام لفظية عامة واتهمه بأنه «شاعر هين لين» وأن شعره أشبه بموسيقى الغرفة، ثم أخذ يقتل الديوان وصاحبه بالملاحظات الجزئية المتناثرة حول قصيدة واحدة هى «قلب راقصة» ولعل أبلغ ما أساء إليه هو المقارنة غير العادلة بينه وبين على محمود طه حيث تعصب له طه حسين وفضله على ناجى».

وقد أصدر إبراهيم ناجى بعد ديوانه الأول ديوانه الثانى «ليالى القاهرة» عام ١٩٤٤ ثم ديوانه الثالث «معبد الليل» عام ١٩٤٦ ثم صدر له بعد وفاته الجزء الأخير من ديوانه «الطائر الجريح» عام ١٩٥٣. وأصدر الأستاذ حسن توفيق خلال عام ١٩٧٨ بعض القصائد المجهولة للشاعر. وبهذا نستطيع أن نقول بأن الشاعر قد أنشأ تراثا شعريا غزيرا مثّل خمسة دواوين شعرية، وقد توفى الشاعر فى ٢٥ مارس عام ١٩٥٣ بعد حياة مليئة بالأحزان الخاصة والعامة. وقد تنفست هذه الأحزان فى قصائد دواوينه فملأتها رقة وعذوبة وإن كانت الكآبه قد سيطرت على الجزء الأكبر من هذه القصائد. ومفهومه للشعر يتمثل فى هذه الكلمات التى أوردها فى مقدمة ديوانه الثانى «ليالى القاهرة» يقول الدكتور إبراهيم ناجى «الشعر عندى هو النافذة التى أطل منها على الحياة وأشرف منها على الأبد وما وراء الأبد، هو الهواء الذى أتنفسه، وهو البلسم الذى داويت به نفسى عندما عز الأساة هذا هو شعرى» والحقيقة أن هذا المفهوم للشعر لا يكشف إلا عن مواجع وآلام الشاعر بدلا من الكشف عن أسرار الصنعة الفنية عنده فهو ليس معنيا بتحديث أصول نقدية للعملية الإبداعية بقدر ما هو مَعْنِى بالتعبير عن نفسه. إنه تلقائى فى شعره وتلقائى فى تعبيره عن هذا الشعر، ولقد كان شعره مرآة صافية لآلامه وأحزانه. ولا شك أنه كان ينكر أن يكون دوره هو الحديث عن الشعر بل كان الشعر همه الأوحد.

يقول الدكتور طه حسين فى محاولة للتعريف بشعر ناجى «ليس الدكتور ناجى رجلا حسن البلاء صادق النية فى حب الشعر فحسب وإنما هو فوق هذا كله موفق إلى حد بعيد فيما يحاول من إرضاء الشعر وأصحابه موفق فيما قصد إليه من المعانى موفق فيما اصطنع من الألفاظ موفق فيما اتخذ من الأساليب. معانيه جديدة تصل أحيانا إلى الروعة، ألفاظه

جيدة قد يعظم حظها من المتانة والرصانة، وأساليبه جيدة أيضا عظيمة الحظ من الصفاء لا يفسدها العوج ولا يفسدها الالتواء فى كثير من الأحيان. شاعر مجيد تألفه النفس ويصبو إليه القلب ويأنس إليه قارئه أحيانا، ويطرب له سامعوه دائما. من هؤلاء الشعراء الذين يحسن أن تستمتع بما فى شعرهم من الجمال، كما تستمتع بجمال الوردة الرقيقة النضرة دون أن تشتط عليها بالتقليب والتعذيب. هو شاعر هين لين رقيق حلو الصوت عذب النفس خفيف الروح قوى الجناح شعره أشبه بما يسميه الفرنجة موسيقى الغرفة منه بهذه الموسيقى الكبرى التى تذهب بك إلى كل مذهب وتهيم بك فيما تعرف وما لا تعرف من الأجواء» ولا شك أن الرقة الصافية والهمس الرقيق اللذين كانت تنضح بهما قصائد ناجى هى التى عرضته للاتهام بالضعف من قبل الدكتور طه حسين. وقد أدرك الناقد الدكتور مندور فى كتابه «فى الميزان الجديد» إن هذا الشعر الرقيق إنما هو شعر إنسانى لا يدل على ضعف فى تكوين الشخصية. يقول الدكتور مندور موضحا نظريته الجديدة «الهمس فى الشعر ليس معناه الضعف. فالشاعر القوى هو الذى يهمس فتحس صوته خارجا من أعماق نفسه فى نغمات حارة، ولكنه غير الخطابة التى تغلب على شعرنا فتفسده إذ تبعد به عن النفس، عن الصدق، عن الدنو من القلوب. الهمس ليس معناه الارتجال فيتغنى الطبع فى غير جهد ولا إحكام صناعة، وإنما هو إحساس بتأثير عناصر اللغة واستخدام تلك العناصر فى تحريك النفوس وشفائها مما تجد، وهذا فى الغالب لا يكون من الشاعر عن وعى وإنما هى غريزته المستنيرة لا تزال به حتى يقع على ما يريد. الهمس ليس معناه قصر الأدب أو الشعر على المشاعر الشخصية. فالأديب الإنسانى يحدثك عن أى شىء يهمس به فيثير فؤادك ولو كان موضوع حديثه ملابسات لا تمت إليك بسبب» وفى ضوء هذا الرأى الجديد الذى نادى به الدكتور محمد مندور يمكن إعادة تقييم شعر إبراهيم ناجى الذى لحقه ظلم أدبى شديد:

قصيدة الخريف التى نحن بصددها هى إحدى روائع ديوانه الثانى «ليالى القاهرة» وهى تعكس صورة حزينة لآمال خائبة وحب تولى وذكريات تشع بالفرح حينا وبالحزن فى أكثر الأحيان. تبدأ القصيدة بصرخة رمزية يطلقها الجدب الموحش فى النفس طالبا الارتواء. والشاعر يقرر من البداية أن الغيوم منعقدة فى خاطره وجفونه وعلى الأفق أيضا فما هى هذه السحابة التى يراها الشاعر، أم هى ثلاث غيمات مختلفة؟ أغلب الظن أن الغيوم الثلاث

رموز لثلاثة معان متباينة. فالغيمة الأولى التى يحملها فى خاطره إنما هى رمز للذكرى التى يستعيدها الشاعر فلا تعود، والغيمة التى يحملها فى جفونه هى غيمة الدموع التى تحتشد فى عينيه باحثة عن مخرج تخفف به عن نفسه، أما السحابة المعلقة فى الأفق فهى سحابة الأمل التى يرجوها أن تروى قفر حياته. ومن هنا فهو يركز حديثه ونداءه لها، ولكنها لا تمطره إلا الكآبة ولا تستجيب لبكائه واستعطافه. وما من شاعر يحاول أن يرسم صورة للخريف يمكن أن يكون أكثر توفيقا من هذه البداية المعتمة المجدبة التى لا يريد الغيث أن يمد لها يد العون. بعد هذه الصورة الرمزية التى جسد فيها الشاعر أحزان نفسه وعدم استجابة الواقع بالأمل، يفصح الشاعر عن كوامن اللوعة فى نفسه. إنه الهجر الذى ثقل على القلب. وقد اختار الشاعر لفظ «كثر» بدلا من «ثقل» للدلالة على أن الهجر ليس فقط هجر الحبيبة إنما هو هجر كثير متعدد المصادر والدوافع. ويبحث الشاعر عن سلوى تريح قلبه أو فراق يرضيه. ولكن سحر جمال المحبوبة قد سد أمامه جميع المنافذ فهو ملأ عليه شغاف نفسه يحاصره حصارا محكما لا فكاك منه. وما أبلغ تعبيره عن تمكن الحب من نفسه وامتلاء هذه النفس بمحبوبها حتى لتراه فى كل مكان.

أيهـا الساكن عينـى ودمـى أين فى الدنيا مكان لست فيـه

فالعين وسيلة الرؤية والدم طريق الإحساس فهو يراها فى كل مكان ويحس بها أيضا. وهذا البيت لاستخدامه «العين والدم» قد بلغ الذورة فى كمال المعنى الذى ورد فى الشطر الثانى من البيت.

يحاول المؤلف أن يصور إغراء هذه الحبيبة وتفوقها فى المقطع الثالث. أما المقطع الرابع فهو تعبير عن جمال الأحلام السريعة التى يرى الشاعر أن سر جمالها فى سرعتها، وهو يتصدى بدموعه للوفاء بدين الهوى الثقيل ولا يتردد الشاعر فى تمسكه بحبه معرضا عن التفريط والبيع.

قـد شربنـاه عزيـزا غاليـا إن تكن بعت فإنى لـن أبيعـا

فى المقطع الخامس يتوجه الشاعر إلى رفاقه لعل لديهم السلوى، ولكننا نلاحظ المزج فى هذا المقطع بين المتناقضات: فها هو السهد قد سكب فى الشراب وها هى أيام الشباب تنجلى عن الوهم ويتمزج العرس الضاحك بأحزان الضباب. إن الشاعر يعلن عجزه وفشله وعدم قدرته على الفكاك من أسره الذى سقط فيه، ثم يرجع إلى المحبوب مرة أخرى

متوسلا راجيا باسطا يد العذر والاعتذار فهو فى الواقع لم يقيد هذا المحبوب بقيد يثقل عليه، بل لقد ترك له الحرية المطلقة، فالحب قيد خفى وهو لا يريد له مزيدا من الأغلال، فالحب بأشواكه قد مزق كفى المحبوب بين صعاب الطريق تلك التى رمز إليها بالأحجار، هى الأحجار قد أدمته ودفعت نفسه إلى الضيق وها هما مرتبطان بقدر واحد وكأنهما غريقان يمسك كل منهما بتلابيب الآخر. وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى التأمل: إن الهجر قد أورثه الإحساس ببطء الزمن. زمنه الداخلى الخاص، ولكنه فى الوقت نفسه يعى أن الزمن الخارجى الذى ينهى الأعمار ويبلى الأرواح ليس بطيئا ولا متمهلا. هذه المعانى العميقة والمقطع الرائع، الذى يصور فيه الحياة مملة بطيئة مجسدا الليالى كأنها السلحفاة، من أروع ما تضمه هذه القصيدة من إشراقات صافية تغمر النفس بالحقيقة. أجساد تتحرك على مهاد الزمن. هذا المقطع يفلح فى إعطاء المعنى العميق لصورة الهجر دون أن يتحدث عنه. ولا يستسلم الشاعر لبطء الليالى فيرفع الرأس مخاطبا القمارى كما كان أبو فراس الحمدانى يخاطب الحمائم لعلها تعزيه فى محنته. إنه يشكو وطأة الخريف ووجهه الممل وظلاله القاتمة وغيومه العقيم، فها هو يعلن موت هذه الروضة بعد رحيل النديم. والروضة هنا هى روضة الحب أما الخريف فهو الهجر المؤلم الذى قتلها بملاله وظلاله السوداء، وما الذى يتبقى للإنسان بعد أن تذبل روضته وتغيم السماء فوقه؟! فهل الدنيا إلا هذا الطقس الداخلى الذى يجدب ويثمر بغياب الحب وحضوره؟! وليس عجيبا إذن أن يعلن الشاعر أن الدنيا كلها قد شاهت وتولاها الوجوم والفتور وعدم الرغبة فى شىء. وقد يحاول أن يلبس قناعا زائفا للسعادة وذلك بافتعال الضحك ولكن محبوبته وحدها تدرك السر الذى يقيم فى نفسه وها هو يجسد هذا السر فى هذا البيت الجميل الذى يقول:

وترى فى عمق روحى زهرة قد سقاها الحزن دمعا أبديا

فهذه الزهرة تحمل من الدلالات معانى كثيرة هى زهرة النفس وحقيقتها أم هى زهرة الحب أم زهرة السعادة الضائعة؟ كل هذه معانى محتملة لا يكشف عنها الشاعر. وإذا كان الخريف إنما هو تجسيد لذبول العاطفة وخمود الحب وتحكم الهجر فإن الغروب هو الآخر يتآزر معه فى رسم الصورة المكملة لفاجعة الحب ومأساة الحياة. وهو يوجه خطابه هذه المرة إلى فؤاده فقد خاطب الحبيبة مرة والندامى مرة وطيور الروض مرة وآب إلى فؤاده يستغيثه ويسأله إن كانت الحبيبة قد جادت بلفتة للشط القريب، وبعد أن يتوجع من اليأس ويصور فراغ أيامه من لقائها يتوقف بنا فجأة كأنه اكتشف جمالها وسرها وكأن

هذه الصحوة المفاجئة إنما هى محاولة لإنقاذ نفسه من التردى فى الجنون، إنه يؤكد لنفسه أن سحرها لا يقاوم. ويقف المقطع الذى يبدأ بقوله أى سر فيك فى قلب القصيدة كومضة إشراق يكرس لها الشاعر كل قدراته الشعرية لوصف سحر وجمال المحبوبة. هذا السحر الغامض الغريب الذى يعلن عن نفسه فى فتنة الجسد. ويحتشد هذا المقطع بضجة موسيقية كبيرة كأنه يحاول أن يقيم لها عرسا فى نفسه يشفى نفسه من الضجر والملل. إن هذه الموسيقى العالية المفاجئة تأتى كمحاولة لمقاومة الضجر والملل وبطء الليالى الطويلة لعلها تبث الحيوية فى أوصال الحياة من جديد ثم يعود بعد ذلك إلى التذكر ولكن كل ذكرياته تقود إلى مدينة الوهم والحسرة والتفجع على أيام الهناء العابرة ولكنه متشبث بذكرياته عائد إلى مغانيه القديمة.

ها أنا عدت إلى حيث التقينـــــا فى مكان رفرفت فيـه السعـــاده
وبه قد رفرف الصمـت علينـــا إن فى صمت المحبيـن عبـــاده

إن رفرفة الصمت تعطى الصمت معنى خاصا فهو يشبه الطائر السعيد، فالرفيف يوحى بالخفة والسعادة، وقد ألح الشاعر على هذه الصورة كأنه وجد فيها أنعكاسا حقيقيا لرضى نفسه وسعادتها. ثم عاد الشاعر يتوجع ملتمسا جمالها يلوذ به من هجير الحياة وقد يميل إلى تحميل الأقدار مسئولية الفراق.

إنما الدنيـا عبـــاب ضمنـــا وشطوط مـن حظـوظ فرقتنـــا

ونراه بعد ذلك يتجول بين آثار الحبيب: الكرسى والمائدة وكأنه يعقد الأمل على الذكرى بدلا من الحقيقة الهاربة فى أن تمنحه السعادة، ويختتم الشاعر قصيدته كما لو كان يرثى عصرا بأكمله مؤمنا بنهاية كل شىء ناظرا إلى تجربته العاطفية كما لو كانت العمر نفسه فها هو يخاطب فؤاده:

يا فؤادى العمر سفـر وانطـــوى وتبقت صفحـة قبـل النـــوى
ما الذى يغريك بالدنيـا ســـوى ذلك الوجـه وذيـاك الهـــوى

هذه روح إبراهيم ناجى المضيئة لا ترى فى الحياة إلا الحب ولا ترى فى الحب إلا الألم. أما قصيدة الخريف فمرثية رائعة لتجربة خصبة عميقة ملأت حياة الشاعر بالتعاسة والفرح، ولكنها انتهت كما ينتهى كل شىء. تفصح القصيدة فى كل أبياتها عن المعانى الأساسية التى عاش لها ومات إبراهيم ناجى وهى: الحب، والحزن، والجمال.

فى الغربة

لمحمود سامى البارودى

تـأوبَ طيـفٌ مـن سميـرةَ زائـرُ ... وما الطيـف إلا مـا تُريـه الخواطُـر
طوى سُدْفة الظلماء والليـلُ ضـاربٌ ... بـأرواقـهِ والنجـمُ بالأفـقِ حائـرُ
فيـالـكَ مـن طيـفِ ألـمَّ ودونَـهُ ... محيطٌ من البحـر الجنـوبـيِّ زاخـرُ
تخطى إلـيَّ الأرضَ وجـدا ومالـه ... سوى نزواتِ الشـوق حـادٍ وزاجـرُ
ألـمَّ ولـم يلبـثْ وسـارَ وليـهُ ... أقـامَ ولـو طالـت علـيَّ الدياجـرُ
تحمـلَ أهـوالَ الظـلام مخاطـرا ... وعهـدى بمن جادتْ بـه لا تخاطـرُ
خماسية لم تدرِ مـا الليـلُ والسـرى ... ولم تنحسرْ عـن صفحتيهـا الستائـرُ
عقيلـةُ أتـراب توالـين حولهـا ... كمـا دارَ بالبـدر النجـوم الزواهـرُ
غـوافـلُ لا يعرفـن بـؤس معيشـةٍ ... ولاهـنَّ بالخطـبِ الملـم شواعـرُ
تعودنَ خفضَ العيش فى ظـل والـد ... رحيـم وبيـت شيدتـه العناصـرُ
فهـن كعنقـود الثريـا تألّقـتْ ... كواكبـهُ فـى الأفـق فهـى سوافـرُ
تمثلهـا الـذكـرى لعينـي كأننـى ... إليهـا على بعـدٍ مـن الأرض ناظـرُ
فطورًا إخـال الظـن حقـا وتـارة ... أهيـمُ فتغشـى مقلتـيَّ السمـادرُ
فيا بعدَ مـا بينـى وبيـن أحبتـى ... ويا قـربَ ما التفت عليـه الضمائـرُ
ولولا أمانى النفـس وهـى حياتهـا ... لما طار لـى فـوق البسيطـةِ طائـرُ
فـإن تكـنِ الأيـامُ فرقـنّ بيننـا ... فكلُّ امرئ يومـا إلـى الله صائـرُ
هى الدارُ مـا الأنفـاسُ إلا نهائـبٌ ... لديهـا ومـا الأجسـامُ إلا عقائـرُ
إذا أحسنت يوما أساءت ضحى غـد ... فإحسانُها سيفٌ على النـاس جائـرُ
تَرُبُّ الفتـى حتـى إذا تـم أمـرُه ... دهتـه كمـا رَبَّ البهيمـة جـازرُ
لها ترةٌ فى كـل حـى ومـا لهـا ... علـى طول ما تجنى على الخلق واتـرُ
كثيـرة ألـوان الـوداد مليـةٌ ... بـأن يتوقاهـا القريـن المعاشـرُ
فمن نظـر الدنيـا بحكمـة ناقـدٍ ... درى أنـهـا بيـن الأنـام تقـامـرُ

صبرت على كره لما قد أصابني ... ومن لم يجد مندوحة صابرُ
وما الحِلم عند الخطب والمرء عاجزُ ... بمستحسن كالحلم والمرء قادرُ
ولكن إذا قلَّ النصيرُ وأعوزت ... دواعي المنى فالصبرُ فيه المعاذرُ
فلا يشمتِ الأعداء بي فلربما ... وصلت لما أرجوه مما أحاذرُ
فقد يستقيمُ الأمرُ بعد اعوجاجه ... وتنهض بالمرء الجدودُ العواثرُ
ولي أملٌ في الله تحيا به المنى ... ويشرقُ وجهُ الظنِّ والخطب كاشرُ
وطيدٌ يزل الكيدُ عنه وتنقضي ... مجاهدة الأيام وهو مثابرُ
إذا المرء لم يركن إلى الله في الذي ... يحاذره من دهره فهو خاسرُ
وإن هو لم يصبر على ما أصابه ... فليس له في معرض الحق ناصرُ
ومن لم يذق حلو الزمان ومره ... فما هو إلا طائش اللب نافرُ
ولولا تكاليف السيادة لم يَخبْ ... جبانٌ ولم يحو الفضيلةَ ثائرُ
تقل دواعي النفس وهي ضعيفةٌ ... وتقوى هموم القلب وهو مغامرُ
وكيف يبين الفضل والنقص في الورى ... إذا لم تكن سوم الرجال المآثر
وما حمل السيف الكميُّ لزينة ... ولكن لأمر أوجبته المفاخرُ
إذا لم تكن إلا المعيشة مطلبٌ ... فكل زهيدٍ يمسكُ النفس صابرُ
فلولا العلا ما أرسلَ السهَم نازعٌ ... ولا شَهَر السيف اليماني شاهرُ
من العار أن يرضي الدنية ماجدٌ ... ويقبل مكذوبَ المنى وهو صاغرُ
إذا كنت تخشى كلَّ شيء من الردى ... فكل الذي في الكون للنفس ضائر
فمن صحة الإنسان ما فيه سُقمهُ ... ومن أمنه ما فاجأته المخاطرُ
عليَّ طلابُ العز من مستقره ... ولا ذنب لي إن عارضتني المقادرُ
فما كل محلول العريكةِ خائبٌ ... ولا كل محبوك التريكة ظافرُ
فماذا عسى الأعداء أن يتقولوا ... عليَّ وعرضي ناصح الجيب وافرُ
فلي في مراد الفضل خيرُ مغبة ... إذا شان حيًّا بالخيانة ذاكرُ
ملكت عُقاب الملكِ وهي كسيرةٌ ... وغادرتها في وكرها وهي طائر
ولو رمت ما رام امرؤ بخيانة ... لصبَّحني قسط من المال وافر
ولكن أبت نفسي الكريمة سوأة ... تعابُ بها والدهر فيه المعاير

فلا تحسبنَّ المال ينفع ربَّه ... إذا هو لم تحمد قراه العشائر
فقد يستجم المال والمجد غائبٌ ... وقد لا يكون المال والمجد حاضرُ
ولو أن أسباب السيادة بالغنى ... لكاثَر ربَّ الفضل بالمال تاجرُ
فلا غرو إن حزت المكارم عاريا ... فقد يشهد السيف الوغى وهو حاسرُ
إذا المرء لا يثنيه عن درك العلا ... نعيم ولا تعدو عليه المفاقرُ
قئول وأحلام الرجال عوازب ... صئول وأفواه المنايا فواغرُ
فلا أنا إن أدناني الوجدُ باسمٌ ... ولا أنا إن اقصاني العدم باسرُ
فما الفقر إن لم يدنس العرض فاضح ... ولا المال إن لم يشرف المرء ساترُ
إذا ما ذبابُ السيف لم يك ماضيا ... فحليته وصم لدى الحرب ظاهرُ
فإن كنت قد أصبحت فل رزية ... تقاسمها في الأهل باد وحاضرُ
فكَم بطل فل الزمان شباته ... وكم سيد دارت عليه الدوائرُ
وأى حسام لم تصبه كلالة ... وأى جواد لم تخنه الحوافرُ
فسوف يبين الحق يوما لناظر ... وتنزو بعوراء الحقود السرائرُ
وما هي إلا غمرة ثم تنجلي ... غيابتها والله مَنْ شاء ناصرُ
فقد حاطني في ظلمة الحبس بعدما ... ترامت بأفلاذ القلوب الحناجرُ
فمهلا بني الدنيا علينا فإننا ... إلى غاية تنفت فيها المرائرُ
تطول بها الأنفاس بَهْرا وتلتوى ... على فلكة الساقيْن فيها المآزرُ
هنالك يعلو الحق والحق واضح ... ويسفل كعب الزور والزور عاثرُ
وعما قليل ينتهي الأمر كلهُ ... فما أول إلا ويتلوه آخر

* * *

شاعر هذه العصماء هو رائد الشعرية العربية المعاصرة والذى عرفناه بلقب رب السيف والقلم محمود سامى البارودى. وإذا كان لنا أن نقدم وصفا تاريخيا لحياته تحدده الأرقام والسنوات والأيام فإن حياته وشعره يظلان عصيين على هذا الوصف التاريخى لأنهما يتجاوزان حدود المصطلح إلى مدار بعيد وعميق من العبقرية والثورة والإلهام والبعث.

ولد محمود سامى البارودى فى السادس من أكتوبر عام ١٨٣٩ فى بيت أسرة البارودى بباب الخلق بالقاهرة ابنا لأسرة جركسية. كان والده أحد أمراء المدفعية وجاء لقبه البارودى

نسبة إلى إيتاى البارود حيث كان أحد أجداده ملازما لها. ولقد أعطت الدنيا والموهبة للبارودى كل أسباب النعمة والبلاء، أعطته حظا عظيما من المجد وحظا كبيرا من التعاسة الشخصية، فهى حياة غنية بكل المعايير الإنسانية والفنية والاجتماعية والسياسية.

نشأ البارودى يتيما، فقد مات والده وهو فى السابعة من عمره وبعد أن تلقى تعليمه الأول فى بيته شأن أبناء الطبقة الأرستقراطية وطبقة المماليك والترك فى ذلك العصر توجه إلى المدرسة الحربية التى تخرج منها فى عام ١٨٥٤. وما إن أكمل الشاعر الفارس تعليمه العسكرى حتى أطل عهد الخديوى سعيد حيث انتكست النهضة التى بدأها محمد على وواجه البارودى فراغا لم يكن قد تهيأ له وهو فى فورة شبابه، بل لقد أعد نفسه للمغامرة وخوض المعارك. وألهمته النار المقدسة التى خلقها الله بداخله أن يتجه إلى تراث الشعر العربى بعصوره الجاهلية والإسلامية والأموية والعباسية ينهل من منابعها. فاستوطن وجدانه هذا الشعر فى عصوره الذهبية، وما إن ذاق رحيقه حتى توهجت النار وفاضت موهبته شعرا غير مألوف فى عصره. كان شعراء عصره هم عبد الله فكرى ومحمود صفوت الساعاتى وعبد الله النديم، وكان هؤلاء أفضل من الجيل الذى سبقهم والذى سقط شعراؤه فى الزخارف اللفظية والعلل النحوية والأغراض الاجتماعية السقيمة فجاء البارودى بمزمار جديد على العصر ترن فى أنغامه كل عصور الشعر العربى الغابرة فى الوقت الذى كانت فيه لغة الحياة نفسها أبعد ما تكون عن الصحة اللغوية فضلا عن الفصاحة العربية والبلاغة الأدبية.

اتسعت ثقافة البارودى بسفره إلى الأستانة موظفا فى وزارة الخارجية وتعلمه للغتين التركية والفارسية،وعكوفه على درس آدابهما فى الأصول اللغوية لهذين الأدبين غير أنه ظل وفيا شديد الوفاء للشعر العربى، واستجابة لهذه الفطرة الأدبية النادرة جلس على شاطئ البسفور يتغنى بشعر الأمويين والعباسيين الذى كان صداه بالغ العمق فى وجدانه المرهف.

وما إن عاد البارودى إلى مصر حتى أطل عهد جديد هو عهد الخديوى إسماعيل الذى حاول النهوض من جديد. ورقى الشاعر إلى رتبة القائم مقام. وفى عام ١٨٦٥ أصبح قائد الفيلق الرابع من حرس الخديوى، ثم جاءت حرب كريت وسافر البارودى على رأس حملة من الضباط والجنود المصريين لإخماد ثورة جزيرة كريت التى كانت تابعة للدولة

العثمانية، وأبلى الشاعر بلاء عظيما انتهى بالنصر. وتنبهت له العقول والأنظار، وحظى الشاعر الفارس بمكانة عالية فى وطنه واشترك مرة أخرى فى الحرب العثمانية الروسية عام ١٨٧٨ وتجلت فيها شجاعته وكوفئ برتبة أمير اللواء وكان الشعر يتأجج فى قصائد تصف هذه المعارك الحربية مبطنة بحنين جارف إلى مصر. وحين عاد إلى مصر عين مديرا للشرقية ثم مديرا للأوقاف. وقد وضعته روحه الوطنية وشجاعته وشعره فى قلب الحركة الوطنية والقومية، وتولى وزارة الحربية ونالت منه المؤمرات حتى أراد الاعتزال فى مزارعه ولكنه كان علما من أعلام الحركة الوطنية متعاطفا ولكن على درجة من الحذر مع الثورة العرابية، وما إن فشلت هذه الثورة – التى قامت لتحقق الكرامة الوطنية والاستقلال السياسى ولمقاومة النفوذ الأجنبى – حتى أخذ البارودى مع قادتها وعوقب معهم بالنفى إلى جزيرة سيلان. وما كان للخونة وحلفاء الاستعمار أن يغفروا له بلاءه العظيم فى خدمة الحركة الوطنية، وشعره الغيور على مصلحة الوطن، وحب المصريين له وحماسه الدائم للإصلاح السياسى والاجتماعى. وقضى الشاعر سبعة عشر عاما فى المنفى كانت من أقسى المحن فى حياته ولكنها كانت فى الوقت نفسه فرصة الشاعر الذهبية لكى يترعرع فى صومعة الألم والحنين الجارف. وظل الشاعر يعانى الغربة والوحشة وهو بعيد، يرى أسرته الصغيرة يتخطفها الموت وأسرته الكبيرة يستبد بها الخونة والطغاة وحلفاء فرنسا وإنجلترا فيلجأ إلى الشعر يلتمس فيه الغذاء والدواء. ولكن الجسد لا يكاد يحتمل كل هذه المعاناه وهو يواجه الزمن بكل ثقله وجبروته فيضعف البدن ويذوى ويكاد البصر نفسه أن يرحل هو الآخر، ويصدر أمر من الخديوى عباس حلمى فى ١٧ مايو ١٩٠٠ بعودة المنفيين من أقطاب الثورة العرابية وفى مقدمتهم الشاعر محمود سامى البارودى الذى يصل إلى مصر ولكنه لا يلبث بها طويلا، ففى الثانى عشر من ديسمبر عام ١٩٠٤ تصعد روحه إلى بارئها بعد رحلة طويلة فى رحاب المجد والشعر والمحنة والعبقرية والوطنية، يقول: الدكتور حسين هيكل فى مقدمة ديوانه عن شعره.

«شعر البارودى حياته. فكل قصيدة فى ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات هذا الشاعر الملهم. والديوان فى مجموعه صورة للعصر الذى عاش فيه وللبيئة التى أحاطت به وللنهضة المتوثبة فى الحياة حوله، وللثورة التى تمخضت عنها تلك النهضة، وللنكسة التى أصابت النهضة والثورة كلتيهما والتى نقلت الشاعر من وطنه إلى منفاه ليقيم به سبعة

عشر عاما وبعض عام يستأثر الشعر بها جميعا. وقد اختار البارودى فى أثناء نفيه أجود ما قيل من الشعر فى العصر العباسى. وقال أجود مما اختار. فبعث الشعر العربى خلقا جديدا، وشعر المنفى كشعر الشباب وشعر الكهولة صورة صادقة لهذه الحياة التى أراد لها القدر أن تكون نغما من الأنغام، تسمو بها النشوة إلى ذروة السرور والطرب حينا. ويدفعها الطموح إلى مضطرب الثورة والمثل الأعلى حينا آخر، ثم تصقلها السنين ويصقلها النفى فإذا الحكمة والحنين والحب تبعث إلى هذا النغم سكينة تسمو على المألوف من ألحان الحياة، لا يغير من ذلك ما يدفعه النفى إلى نفس الشاعر من ألم تترجم عنه صيحات ثائرة تعيد أمام أذهاننا صورة من نزوات شبابه وثورة كهولته».

تكشف هذه القصيدة بعد تأملها عن عالم البارودى بأبعاده الفنية والإنسانية الواسعة. فهى تمثيل بالغ الحساسية والأصالة لنموذج القصيدة البارودية التى تنتمى إلى شاعرها بقدر انتمائها إلى عالم القصيدة العربية فى أزهى عصورها، قد تحس وأنت تطالعها أن أنفاس عمالقة الشعر العربى تتردد فى أبياتها ومقاطعها. وأن جرسها شائع فى قصائد المتنبى والبحترى وأبى العلاء. وأن لغتها جزلة جزالة القصائد العباسية. بل إن صورها الشعرية توشك أن تكون شائعة فى الشعر العربى القديم، ومن ذا الذى يمنع نفسه من تذكر امرئ القيس والنابغة الذبيانى وهو يقرأ وصف البارودى لليل. ولكن هذه الألفة الشديدة فى اللغة والموسيقى والصور الشعرية والبناء الفنى – الذى ينتقل من غرض شعرى لآخر – لا تحملك على التفكير فى الشاعر وأصالته. ولا تحملك على التماس جذور صوره فى قصائد الآخرين حتى تسهو عن شاعرها الحقيقى. بل إنك لتشعر بقوة بإحساسين متعارضين سرعان ما يصبحان إحساسا واحدا. يبسط عالم القصيدة القديمة أمام وجدانك تقاليد الشعر القديم فهى جياشة بالحس التاريخى العميق ولكنها تتفرد بصياغة أصيلة تحس عبقها ولا تدرك كنهها. وإذا كانت التجربة تصنع الشكل فإن تجربة البارودى المتميزة فى الحياة تتبدى بالغة التميز فى شكلها أيضا. فهو حين يصف الليل لا يصفه شاكيا ولا باكيا ولا يلحقه الوهن بل هو جلد على حوادث الأيام صابر على بلائها. وينعكس صبره وجلده فى هذا التركيز والتماسك فى بنية الجملة الشعرية. وكذلك تنعكس شخصيته وتجربته بقوة فى اختيار بحر الطويل بامتداده وثقله واتساعه لأمواج النفس الملتاعة. ولكنك لا تحس ضعفا ولا رغبة فى الإفضاء بل هو يمسك بأطراف تجربته التى تتنوع بين تجسيد حلم الزيارة

التى قامت بها سميرة وبين التجلد اعتمادا على إيمان بالله عميق، وقد يجنح إلى الفخر حيث يظل الشاعر متنبها إلى جوانب العزة والقوة فيه، ولكنه لا يفرط فى ذلك ويكاد يصل إلى أن مناط القوة والمجد إنما هو الحكمة والفضيلة وليس المال والنعيم والجاه والكاذب. وهو شاعر يقرأ على قسمات جراحه آيات من الحكمة والتواضع والتجرد من الأشياء التى يراها الآن باطلة كل البطلان.

إن القصيدة تبدأ من الحلم العزيز الذى يرى فيه الشاعر خيال ابنته سميرة يزوره متخطيا الفيافى والبحار والآماد البعيدة والليالى المظلمة. ويبدو أن قوة الشوق الغلابة فى ضميره قد جعلته يصرح من البداية أن هذا الخيال الذى جاءه ليلا إنما هو تجسيد لقوة مخيلته التى تستحضر هذه الابنة على جناح الشوق. لكأنه يصارحنا من البداية أنه يعانى من البعد عن أهله ولا وسيلة له إلا الخيال القوى. وينسى الشاعر بعد وهلة عابرة أنه صارحنا فيتمادى فى وصف هذا الخيال وكأنه يتصور أننا مازلنا مقتنعين بأن الزيارة حقيقية فى الواقع، وينتقل من وصف الظلام الذى قطعه الخيال إلى وصف الخيال وصاحبته بل وصاحباتها اللواتى تلهو معهن ثم يعود مرة أخرى بعد أن تناسى أنه قد صارحنا بحقيقة خياله ليؤكد أن الذكرى هى التى تجسد لعينيه هذه الابنه الصغيرة التى لا يزيد طولها عن خمسة أشبار، فهى طفلة تحتاج إلى حنان الأب وعطفه. والشاعر يلجأ إلى هذا المدخل الرقيق حتى يعطفنا بقوة على محنته دون أن يجد نفسه مضطرا إلى التصريح عن مشاعره مفضيا إلينا من البداية بوجيعته. إن كبرياء الشاعر الفارس تظل عصية تغالب المكروه فى هذا المنفى البعيد فلا تنحنى ولا تضعف، وحتى حين يفيض به الوجد فيصرح بعاطفته الأبوية والإنسانية لا تجد بدا من احترام هذه المشاعر القوية حين يقول:

فيا بعدَ مـا بينـــى وبيـــن أحبتـــى ويا قربَ ما التفت عليـــه الضمائـــرُ
ولولا أمانى النفـس وهـــى حياتهـــا لما طار لـى فـــوق البسيطـــةِ طائـــرُ

وكأن البيت الثانى إنما هو اعتذار عما أفضى به الشاعر من تخيل أحبابه يزورونه فى المحنة، أو هو يستحضرهم إليه وهنا تتجلى شخصية البارودى الشامخة التى تجعل تجربته مقارقة لتجارب الأقدمين من الشعراء، ونجد تعبيره يختلف عن تعبيرهم أيضا. فالشعراء الأقدمون لا يأبهون للتبرير والتفسير والاعتذار عما فى نفوسهم، هم ماضون وحدهم فى بيداء يطوف بها الموت والغربة من كل جانب، وليس لهم ذلك المجتمع الذى كان

لدى البارودى، ولا كان لديهم هذا الضمير الحديث الذى يكبل الفرد بأغلال التحضر ومراعاة الآخرين فى الإفضاء وإعلان هوى النفس. ولكن البارودى لا يرى أنه قد أتى شيئا يلام عليه فينصرف – حتى لا تستولى عليه العاطفة العميقة – إلى التأمل الفلسفى الذى يتوكأ على إيمان عظيم بالله واستخفاف حقيقى بهذه الدنيا، واعتقاد بأنها لا تحسن إلا لتسىء ولا تزيد من قيمة المرء لتقتص منه بل لتقتله كما يذبح الجزار بهيمته: بل إنه يرى فيها صورة المقامر. هذه الصورة العصرية التى تنتمى إلى عصرنا بمعاييره وقيمه. حتى وهى تتودد إليه وهى كثيرة التودد نراها جديرة بأن يتجنبها العاقل الرشيد.

كثيـــرة ألـــوان الـــوداد مليـــة بـــأن يتوقـاهـــا القريـــن المعاشـــر

هى امرأة خائنة هذه الدنيا اذن وهو منها على حذر. ولكنه لا يلبث أن يتذكر قدرة الله وأمله فيه هذا، الأمل الذى تحيا به الأمانى وتضىء الظنون به وسط المحن.

إذا المرء لم يركن إلى الله فى الـــذى يحـاذره مـن دهـــره فهـــو خاســـر

ويبدو أن التماس الإيمان إنما هو حصنه الذى ينشده حتى لا تتداعى قواه التى يرى أن اختيارها فى الملمات هو أمر طبيعى. فكل ما يكابده البارودى إنما هو تكاليف السيادة ومطلب من مطالب العلا وداع من دواعى النفس القوية، ثم يجاهر بنفسه برفضه للدنيا رفض الغاضب الذى لا يقبل لنفسه الهوان، وهو يبرهن على صحة دعواه برفع قيمة الشجاعة فى الحق وعدم الخوف من الدنيا.

إذا كنت تخشى كلَّ شىء من الـــردى فكل الذى فى الكون للنفـــس ضائـــر
فمن صحة الإنسان مـا فيـــه سُقمـــهُ ومن أمنـــه مـــا فاجأتـــه المخاطـــرُ

ويبدو أن هذا التمهيد كان مدخلا منطقيا للون من الفخر بالنفس ربما كان غير متوافق مع هذه الحكمة التى تزدرى الدنيا، ولكنها أيضا فى موقف الدفاع عن النفس. فلو أنه استسلم للزهد والحكمة التى تقول ببطلان الحياة لخلت القصيدة من القيمة الإيجابية التى تنفع الحياة نفسها، ومن هنا نرى أن القصيدة لا تلتفت إلى غرض شعرى واحد تستنفده وتفنيه وتفنى معه بل هى شجرة كثيرة أوراق الحزن بعيدة الأغصان فى رؤية تهزها ريح المحنة ولكنها لا تنكسر أبدا فى يد هذه الريح، ورغم أن الشاعر يصف ظلمة المحنة التى تلم به فهو يرى ذلك أمرا عارضا.

وأى حسام لم تصبه كلالة وأى جواد لم تخنه الحوافر

ويعلن عن إيمان بالحق ونكران للباطل:

وما هى إلا غمرة ثم تنجلى غيابتها والله من شاء ناصر

والقصيدة التى تبدأ بالحلم وتعلو أمواجها إلى الفخر تنتهى بالتسليم بعد أن يكون قد كشف بجلاء عن جوهر شخصيته وتجربته وعصره فى لغة بليغة تريك لغة عصور بأكملها، ولكنها تظل ملكا أصيلا لشاعرها الذى أبدعها. ومن هنا لا نستطيع إن نقول إن القصيدة رغم جنوحها إلى الحكمة والفخر والحنين والإيمان بالله والتسليم متعددة الأغراض بل قصيدة واحدة الغرض بالغة الدلالة من ناحية الشكل الفنى ومن ناحية التجربة على شخصية الشاعر محمود سامى البارودى، وهكذا تلتقى القصيدة مع القصائد القديمة وتفترق عنها كما يقترب الابن من الأب ويفترق عنه لتكون له قسماته وأقدار حياته.

* * *

فى مواساة صديق

للشريف الرضى

خطوب لا يقاومها البقاء ... وأحوال يدب لها الضراء
ودهر لا يصح به سقيم ... وكيف يصح والأيام داء
وأملاك يرون القتل غنما ... وفى الأموال لو قنعوا فداء
هم استولوا على النجباء منا ... كما استولى على العود اللحاء
مُقام لا يجاذبه رحيل ... وليل لا يجاوره ضياء
سيقطعك المثقف ما تَمَنَّى ... ويعطيك المهند ما تشاء
بلونا ما تجىء به الليالى ... فلا صبح يدوم ولا مساء
وأنضينا المدى طربا وهما ... فما بقى النعيم ولا الشقاء
إذا كان الأسى داء مقيما ... ففى حسن العزاء لنا شفاء
وما ينجى من الأيام فَوتٌ ... ولا كَدٌّ يطول ولا عناء
تنال جميع ما تسعى إليه ... فسيان السوابق والبطاء
وما ينجى من الغمرات إلا ... ضرابٌ أو طعانٌ أو رماء
ورمح تستطيل به المنايا ... وصمصام تشافهه الدماء
وإنى لا أميل إلى خليل ... سفيه الرأى شيمته الرباء
يُسَوِّمنى الخصامَ وليس طبعى ... وما من عادة الخيل الرُّغاء
أقول لفتية زجروا المطايا ... وخف بهم على الإبل النجاءُ
على غوراء تشتجر الأداوى ... بعرصتها وتزدحم الدلاءُ
ردوا واتستفضلوا نطفا فحسبى ... من الغدران ما وسع الإناء
وبعدكم أناخ إلى محل ... يطلق عنده الدَلْوَ الرشاء
تقلص عن سوائمه المراعى ... وتخرز درة الضرع الرعاء
إذا ما الحُر أجدب فى زمان ... فعفته له زاد وماء

أرى خلقا سواسية ولكن ... لغير العقل ما تلد النساء
يُشَبَّهُ بالفصيل الطفل منهم ... فسيَّان العقيقة والعفاءُ
تصونهم الوهاد وأى بيت ... حمى اليربوع لولا النافقاء
هم يوم الندى غيم جهام ... وفى اللأواء ريح جربياء
قرى لا يستجير به خميص ... ونار لا يحس بها الصلاء
وضيف لا يخاطبه أديب ... وجار لا يلذ له الثواء
هوى بدر التمام وكل بدر ... ستقذفه إلى الأرض السماء
وعلمى إنه يزداد نورا ... ويجذبه عن الظُّلَم الضياءُ
أمر بداره فأطيل شوقا ... ويمنعنى من النظرَ البكاء
تعرض لى فتنكرها لحاظى ... معطلةً كما نُقِضَ الخباء
كأنى قائف طلب المطايا ... على جدد تبعثره الضباء
ديار ينبت الإحسان فيها ... ونبت الأرض تنُّوم وآءُ
وقد كان الزمان يروق فيها ... ويشرب حسنَها الحدق الظماء
ودار لا يلذ بها مقيم ... ولا يغشى لساكنها فناء
تُخَيَّبُ فى جوانبها المساعى ... وبنقص فى مواطنها الإباء
وما حبستك منقصة ولكن ... كريم الزاد يحرزه الوعاء
فلا تحزن على الأيام فينا ... إذا غدرت وشيمتها الوفاء
فإن السيف يحبسه نجاد ... ويطلقه على القمم المضَاء
لئن قطع اللقاء غرام دهر ... لما انقطع التودد والإخاء
وما بعث الزمان عليك إلا ... وفورُ العرض والنَّفْسُ العصاءُ
ولو جاهرته بالبأس يوما ... لأبرأ ذلك الجَرَبَ الهناء
وكنت إذا وعدت على الليالى ... تمطر فى مواعدك الرجاء
وأعجلك الصريخ إلى المعالى ... كما يستعجل الإبل الحداء
وأى فتى أصاب الدهر منا ... تصاب به المروءة والوفاء
صقيل الطبع رقراق الحواشى ... كما اصطفقت على الروض الأضاء
ينال المجدَ وضَّاحُ المحيا ... طويل الباع عمته لواء

كلام تستجيب لـه المعالـى ووجـه يستبـد بـه الحيـاء
فـلا زالـت همومـك آمـرات على الأيـام يخدمهـا القضـاء
تجـول علـى ذوابلـك المنايـا ويخطر فـى منازلـك العـلاء

* * *

الشاعر هو أبو الحسن بن أبى أحمد الحسين الطاهر الملقب بذى المناقب، يرتقى بنسبه إلى موسى الكاظم فإلى الحسين بن على، ولهذا لقب بالشريف الرضى الموسوى. ولد فى بغداد سنة ٣٥٩ هـ وتلقى فيها تعليمه وثقافته، وما إن جاوز العاشرة بقليل حتى تفتحت بواكير شاعريته. تعلم النحو والأدب على كبار علماء عصره وقد زاده تعمقا وفهما لروح اللغة إتقانه لعلوم القرآن الكريم، وكان محبا للعلم وأنشأ دارا تسمى (دار العلوم) كانت مزارا لطلاب العلم. انتقلت إليه نقابة الأشراف من أبيه ثم تولى إمارة الحج والمظالم. وهو أول طالبى اتخذ السواد وهو شعار العباسيين. كان مهيبا جليلا ذا ورع وعفة، يراعى أهله وعشيرته، رفيع المنزلة بشرف نسبه وعلو منصبه. وصفه الثعالبى فى يتيمة الدهر فقال «يعد الشريف اليوم أبدع أهل الزمان وأنجد سادة العراق يتحلى مع محتده الشريف ومفخره المنيف بأدب ظاهر وفضل باهر وحظ من جميع المحاسن وافر، وهو أشعر الطالبيين من مضى منهم ومن غبر على كثرة شعرائهم المفلقين كالحمانى وابن طباطبا والناصر ولو قلت عنه: إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق». وقال الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد: سمعت أبا عبد الله محمد بن عبد الله الكاتب يقول: إن الرضى أشعر قريش. وتوفى الشريف الرضى فى بغداد فى السادس من شهر المحرم عام ٤٠٦ م. ودفن بالكرخ ثم نقل رفاته إلى مشهد الحسين بكربلاء. ومن أعظم أثاره قيامه بجمع خطب الإمام على بن أبى طالب فى كتاب نهج البلاغة. ويروى ابن خلكان «أخبرنى بعضهم أن بعض الأدباء اجتاز بدار الشريف الرضى بسر من رأى، وهو لا يعرفها وقد أخنى عليها الزمان وذهبت بهجتها وأخلقت ديباجتها، وبقايا رسومها تشهد لها بالنضارة وحسن الشارة فوقف عليها متعجبا من صروف الزمان وطوارق الحدثان وتمثل بقول الشريف الرضى:

ولقد بكيت على ربوعهـم وطلولها بيد البلى نهـب
فبكيت حتى ضج من لغـب نضوى ولج بعذلى الركـب
وتلفتت عينى فمذ خفيـت عنى الديار تلفت القلـب

فمر به شخص وسمعه وهو ينشد الأبيات فقال له: هل تعرف لمن هذه الأبيات؟ فقال: لا، فقال: هى لصاحب هذه الأبيات الشريف الرضى، فعجبا من حسن الاتفاق». وقد رويت عنه أخبار كثيرة تدل كلها على شرف محتده وعزة نفسه وترفعه وسمو شاعريته وتضلعه من علوم زمانه. كما يقول مقدم ديوانه: وديوان الشريف الرضى ضخم يقع فى جزءين وتدور تجربته الشعرية حول الفخر بنفسه ونسبه كما يكثر من شكوى الزمان، وقد اتسمت قصائده بالطول ولغته بالقوة والجزالة، ويتضح فى هذه القصائد أثر تبحره فى علوم النحو وعلم الكلام والعلوم الشرعية. وهو يلجأ إلى البساطة العميقة ويحاول توليد المعانى متأثرا بحركات التجديد فى عصره وإن كان أثر التجديد يبدو ضئيلا فى تجربته الشعرية. وقد ألح على الفخر والمدح والحماسة والرثاء وشكوى الزمان وعتاب الأصدقاء. ومن أشهر الأبيات التى قالها فى صفة الصديق والصداقة قوله:

خليلك من صفا لك فى البعـــاد ... وجارك من أدام علـى الـــوداد
وحظك من صديقـك أن تـــراه ... عدوا فى هـواك لمـن تعـــادى
ورب أخ قصـى العـــرق فيـــه ... سلو عن أخيـك مـــن الـــولاد
فلا تغـرك ألسنـــة رطـــاب ... بطـــائنهـــن أكبـاد صـــوادى
وعـش إما قـــريـــن أخ وفـــىّ ... أمين الغيب أو عيـش الوحـــاد
فإنى بعـد تجـربـى لأمـــر ... أنست – ولا أغشك – بانفرادى
تريد خلائـق الأيـام مكـــرا ... لتغضبنى على خلقى وعـــادى
وتغمرنى الخطوب تظـن أنـــى ... ألين على عرائكهـا الشـــداد
وما ثهـــلان تشـــرق قنتـــاه ... بأحمل للنوائب مـــن فـــؤادى
تُغَرِّبُ فى تقلبهـا الليـالتـــى ... علـىّ بـكـل طـــارقـــة نـــآد
إذا قلت اكتفت منـى وكفـت ... نزت بالداء ثـائـــرة العـــداد
رعى سمنُ الحوادث فى هـزالى ... كأن صلاحهن علـى فســادى

ويبدو أن الشريف قد لقى من دهره ومن أصدقائه ما جعله غير راض عن زمانه وأهل زمانه. ولكنه فى الوقت نفسه كان وفيا محبا للصديق إذا صدق فى مودته، وكان يرى لصاحب الفضل فضله، وله بصيرة تدرك الحسن والقبح.

تمثل هذه القصيدة الفن الشعرى عند الشريف الرضى، وقد وضع لها جامع ديوانه

عنوانا هو «أمر بداره فأطيل شوقا» ولا أرى أن هذا العنوان له دلالة على المعانى الغزيرة التى يحفل بها النص الشعرى. وقد كتب الشريف الرضى هذه القصيدة إلى صديق له لحقته نكبة ألمت به، وقد يعجب المرء من قوة تدفقها وحرارة الصدق والعاطفة فيها وهذا الأسى الذى يشملها وهى ليست إلا مواساة من صديق لصديقه، ويكاد البعض يعدها من شعر المناسبات لأنها قيلت فى غرض غير أصيل يتعلق بالنفس الشاعرة ولكن الأبيات تطفح بالدلالة على توحد ذات الشاعر بذات صديقه أمام المصيبة التى ألمت به. والسبب فى ذلك أن الشاعر يكن عاطفة قوية عميقة وصادقة نحو هذا الصديق الذى لم يرد اسمه فى ثنايا القصيدة ولا فى ذكر مناسبتها، كما يرجع التأثير القوى أيضا إلى وحدة الموقف من الزمن والحياة والناس. وكأن الشاعر وهو يشاطر صديقه همه إنما يشاطره معتقداته ويبسط أمامه صورة حزينة لعصر لا يرحم أهله ويزدحم بأناس لا يرى فيهم الشريف تميزا عن الحيوان إلا فى الصورة. وهناك مستويان للرؤية الفنية فى هذه القصيدة: المستوى الأول وهو الذى يتجلى فى مطلع القصيدة ويتناثر عبر أبياتها وهو الذى يعبر عن رؤية ميتافيزيقية أقرب إلى رؤية أبى العلاء المعرى وشعراء التأمل الفلسفى فى الكون والحياة حيث يقرر الشاعر أن هذه الحياة مزدحمة بالخطوب، التى لا يقاومها البقاء فهى خالدة وتكاد تكون مرافقة ومتجاوزة للبقاء نفسه، وأحوال يعتريها النقص، ويكاد يصل به سوء الظن بالوجود حد الإحساس بأن الزمن نفسه قد وصم بأنه داء ودهر لا يصح به سقيم، وكيف يصح والأيام داء. وكثيرة هى الأبيات ذات الدلالة العميقة على هذه الرؤية الفنية التى تلجأ للتجريد وتلحق بطبيعة الوجود نفسه آفة النقص والشر والتحول المستمر.

بلونا ما تجىء بـــه الليـــالـــى فـــلا صبـــح يـــدوم ولا مســـاء

أما المستوى الثانى فهو الذى يعبر عن رؤية فنية اجتماعية حيث يسخر من هؤلاء الذين يتكالبون على الدنيا، فهو يقول لهؤلاء أنه قنوع يكفيه ما وسع الإناء ثم يشير إلى فساد زمانه وغربة الأحرار فيه ومرارة عيشهم حيث يلجأون إلى العفة والتحصن بالكبرياء.

إذا ما الحر أجـــدب فى زمـــان فعـــفـــتـــه لـــه زاد ومـــاء

وهو يرى أن آفة هذا الزمان إنما هو عدم إيمان الناس بعقولهم.

أرى خلقـــا سـواسيـــة ولكـــن لغير العقـــل مـــا تلـــد النســـاء

ومما يخرج القصيدة عن أن تكون من شعر المناسبات أن أكثر من نصف أبياتها إنما هو طرح عميق لفلسفة الشريف الرضى وعرض لموقفه من زمنه وأهله، وهو يوضح لصاحبه عبر هذا الطرح صورة قاتمة للحياة والدهر والناس حتى يكون ذلك مدخلا جميلا لعزاء نفس الصديق. وتكاد القصيدة تعطى نفسها فى نصفها الأول حيث هى تعبير مركز وبالغ الإيحاء والدلالة على ذات الشاعر نفسه. غير أن النصف الثانى منها ينساب سهلا بسيطا ولكنه فى الوقت نفسه محتشد بالصور الفنية والحكمة البلغية. وهو يدخل إلى قلب صديقه مدخلا رقيقا، ولكنه حاسم فى إقناعه بأن سقوطه ليس له وحده.

هوى بدر التمـــام وكـــل بـــدر ستقذفـه إلـــى الأرض السمـــاء

ثم يعقد مقارنة بين ديار ينبت الإحسان فيها ودار لا يلذ بها مقيم، وحين يتحدث عن دار صديقه يلجأ إلى الكثرة والتعدد تعبيرا عن أن الكرم يضاعف المال ويعطى لديار الصديق مهابة وجلالا، أما الدار المقفرة وهى دار البخلاء فهى مفردة وحيدة وهى إشارة إلى أن الكريم يوحى بالكثرة لأن الجواد لا يكون وحده إبدا بينما البخيل يكون وحيدا لا يشاركه أحد، وهو معنى بالغ الدقة والإيحاء. والشاعر فى كل القصيدة لا يلجأ إلى الأسلوب المباشر بل هو أشبه بضارب الأمثال ينتقل من موقف إلى موقف يعرض على صاحبه أحوال الدنيا وطبيعة أهلها كما لا ينسى أن يتحدث عن نفسه وإيثاره للعقلاء من الأصدقاء حيث يقول:

وإنـــى لا أميـــل إلـــى خليـــل سفيـــه الرأى شيمتـــه الريـــاء
يُسَوِّمنى الخصامَ وليس طبعـــى وما من عـــادة الخيـــل الرُّغـــاء

ثم يصف الناس الذين لا خير فيهم بأنهم كالغيم الجهام:

هم يـوم النـــدى غيـــم جهـــام وفـــى الـــلأواء ريـــح جربيـــاء

أى إنهم فى يوم الحاجة إليهم حيث يجود الكرام بما لديهم نراهم كالسحاب الذى لا ماء فيه أو كالريح الباردة وقت الشدة، وشبههم بالريح الباردة لعدم قدرتهم على التعاطف والعطاء وقت الشدة. وتعبر الأبيات التى يتناول فيها بعض أهل عصره بالنقد القاسى عن فهم للطبيعة البشرية، كما أنه لا يلجأ إلى التعميم حتى لا يقع فى الخطأ فيقول:

أرى خلقـــا سواسيـــة ولكـــن لغير العقـــل مـــا تلـــد النســـاء

وتنحو القصيدة فى الجزء الأخير منها إلى الغرض المباشر منها حيث يخاطب الشريف الرضى صاحبه خطابا ذكيا يلجأ فيه إلى نوع من المنطق.

فلا تحزن علـــى الأيـــام فينـــا إذا غـدرت وشيمتهـــا الـــوفـاء
فإن السيـــف يحبســـه نجـــاد ويطلقه علـــى القمـــم المضَـــاء

ثم يعزيه بأن الذى أغرى به الدهر إنما هو عرضه الموفور ونفسه الأبية العصية وكأنه يرى أن الدهر يحسده على ما هو فيه، وتثور نفسه وهو يرى رجلا موفور العرض ممتلئا بالكبرياء وهو تصوير يوحى أيضا بسوء الظن بالزمن وكأن الدهر من طبيعته العدوان ولا يعزيه إلا هؤلاء الذين يعتزون بأنفسهم وهو يشير عليه بمواجهة الزمن مواجهة قوية.

ولو جاهـرتـــه بالبـــأس يومـــا لأبـــرأ ذلـك الجـــرب الهنـــاء

وهو يقول له إن القوة كانت ستشفى داءه كما يشفى المرهم داء الجرب ثم يعدد بعد ذلك فضائل صديقه. وإشارته الدائمة إلى ضمير المتكلمين لا إلى ضمير المخاطب توحى كما قلت بتوحد ذات الشاعر بذات الصديق فى المحنة وفى الموقف من الزمن:

وأى فتى أصـــاب الدهـــر منـــا تصـاب بـــه المـــروءة والوفـــاء

ثم يختتم القصيدة بالدعاء له.. والقصيدة قوية البنيان مؤثرة فى حكمتها التى تتروح بين المطلق والنسبى، بين الواقعى والميتافيزيقى مزاوجة بين التجريد والتجسيد. وهى ترسم صورة معبرة عن قوة الشاعرية التى تفيض فى أبياتها لا تلجأ إلى الوهن ولا إلى المباشرة والتعميم، وإنما هى تعبير صادق عن نفس الشاعر فى لحظة تعاطف وتوحد مع صاحب يمر بمحنة وينتظر من صديقه العزاء والسلوى.

***

فى العتاب والحكمة

لذى الإصبع العدوانى

يا مَنْ لقلبٍ شديـد الهـمِّ محـزونِ ... أمسـى تـذكَّـر ريَّـا أمَّ هـارونِ
أمسى تذكَّرها من بعد مـا شَحَطَـتْ ... والدهـرُ ذو علظـةٍ حينًـا وذو ليـنِ
فإن يكن حبُّها أمسـى لنـا شجنـا ... وأصبـح الوَلْـيُ منهـا لا يـواتِينِـى
فقد غَنِينَا وشمـلُ الـدارِ يجمعنـا ... أطيُـع ريَّـا وريَّـا لا تعاصينِـى
نرمى الوشاةَ فلا نُخْطِـى مقاتلهـم ... بخالص من صفـاءِ الـودِّ مكنـونِ
ولى ابنُ عـمٍّ مـا كـانَ مـن خُلـقٍ ... مختلفـانِ فـأقليـهِ ويقلينِـى
أزرىَ بِنَـا شـالـت نعـامتنـا ... فخالنى دونـه بـل خِلتُـه دونـى
لاهِ ابن عمك لا أفضلت مـن حسـبٍ ... شيئًا ولا أنـتَ ديَّانِـى فتخـزونِـى
ولا تقوتُ عيـالـي يـوم مسغبـةٍ ... ولا بنفسـكَ فـى العَـزَّاء تكفينِـى
فإن تُرِدْ عـرضَ الدنيـا بمنقصتـى ... فـإن ذلـك ممـا ليـس يُشْجينـى
ولا تَرى فىَّ غيـرَ الصبـر مَنقصَـةً ... ومـا سـواهُ فـإن اللهَ يكفينِـى
لولا أواصرُ قُربَى لسـتَ تَحْفَظُهـا ... ورهبةُ اللهِ فـى مَوْلَـى يعادينِـى
إذاً بريتُك بريًـا لا انجبـارَ لـه ... إنـى رأيتـكَ لا تَنْفـكُ تَبْـرينِـى
إن الذى يقبـض الدنيـا ويَبْسُطهـا ... إن كان أغناكَ عنـى سـوف يُغْنينِـى
اللهُ يعلـمُـنـى واللهُ يعـلـمـكـمْ ... واللهُ يجزيكُـم عنـى ويجـزينِـى
ماذا علـىَّ وإن كنتـم ذوِي رحمِـى ... ألا أحـبـكـمُ إن لـمْ تُحبُّـونِـى
لو تشربون دمِى لـم يُـروَ شـاربُكُـمْ ... ولا دمـاؤكـم جـمعًـا تُـروِّينـى
ولى ابنُ عم لو انّ الناسَ فـى كبـدى ... يظل محتجزا بـالنَّبـلِ يَـرْمينِـى
يا عمرو إن لا تدْع شَتْمـى ومنْقَصِتـى ... أضْرِبْكَ حتى تقولَ الهامةُ اسقـونِـى
كل امرئٍ صـائـرٌ يومًـا لشيمتـهِ ... وإن تَخَلَّق أخـلاقًـا إلـى حيـنِ
إنى لَعَمْرُك ما بـابـى بـذىِ غَلَـقٍ ... على الصديـقِ ولا خيـرِي بِمَمْنُـونِ

لا يُخْرِجُ القسرُ منى غيرَ مَغْضَبة ... ولا أليـن لمـن لا يبتغـى لينِـى
وأنتمُ معشرٌ زيدٌ علـى مائـةٍ ... فأجْمِعُوا أمركُم شتّـى فكيـدونِـى
فإن علمتم سبيلَ الرشدِ فـانطلقـوا ... وإن جهلتم طريقَ الرشدِ فـأتُـونِـى
يـاربَّ ثـوب حواشيـهِ كـأوسطِـهِ ... لا عيبَ فى الثوبِ من حُسنٍ ومن ليـنِ
يوما شددتُ علـى فرغـاء فـاهقـةٍ ... يومًا مـن الدهـر تـاراتٍ تمـارينِـى
ماذا علىَّ إذا تدعـوننـى فَزَعًـا ... ألاّ أجيـبـكـمُ إذْ لا تجيبـونِـى
وكنتُ أعطيكُم مـالـى وأمنحكُـم ... ودِّى على مُثبتٍ فى الصـدرِ مكنـونِ
يارُبَّ حىٍّ شديد الشَّغْبِ ذى لجـبٍ ... ذّعرتُ مِن راهنٍ منهـمْ ومـرهـونِ
رَدّدْتُ باطلهم فـى رأس قـائـلهـمْ ... حتى يظلّوا خصـومًـا ذا أفـانيـنِ
يا عمروُ لو لـنت لى ألفيتنـى يَسَـرًا ... سَمْحًا كريمًا أجازِى من يُجَـازينـى

شاعر هذه القصيدة الجاهلية الباقية هو حُرثان بن الحارث بن محرَّث بن ثعلبة، ينتهى نسبه إلى مضر بن نزار. أحد بنى عَدوان وهم بطن من جديلة، شاعر فارس. وقد دب الخلاف بين فصائل من قبيلته «عدوان» فتعاركوا واقتتلوا ثم جلسوا للصلح وكان الحكم بينهم عامر بن الظّرب العَدْوانى، ولكنّ بعضهم رفض الصلح ونشبت الحرب من جديدٍ حتى مُزقت قبيلة عَدوان لأن بعض الحمقى رفض السلام وآثر البغضاء والدم، وكان هذا المغرور الأحمق ابن عم الشاعر المعروف بذى الإصبع العَدْوانى صاحبِ هذه القصيدة. جرَّب ذو الإصبع العدوانى الدنيا وجربته فقد جاوز الثمانين من عمره وقد تجلت حكمته وخبرته فى شعره ونثره على السواء. يقول فى رثاء قومه الذين أفنتهم الحروب:

ويا بؤس للأيام والدهـر هالكـا ... وصرف الليالى يختلفن كذلكـا
أبعد بنى نـاج وسعيـك فيهـم ... فلا تتبعن عينيك ما كان هالكـا
إذا قلت معروفا لأصلـح بينهـم ... يقول مريـر لا أحـاول ذلكـا
فأضحوا كظهر العَوْد حتـى سنامه ... تحوم عليه الطير أحدب باركـا
فإن تك عدوان بن عمـرو تفرقـتْ ... فقد غَنِيَتْ دهرًا ملوكـا هنالِكَـا

ويروى عنه ما ورد فى كتاب الأغانى للأصفهانى أنه لما أحس دنو أجله دعا ابنه «أسَيْد» فقال له: «يا بنى إن أباك فقد فنى وهو حى وعاش حتى سئم العيش، وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته – وكان ذو الإصبع سيد قومه – فاحفظ

عنى: ألن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وابسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك، وأكرم صغارهم كما تُكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم، واسمح بمالك ، واحم حريمك وأعزز جارك، وأعن من استعان بك وأكرم ضيفك وأسرع النهضة فى الصريخ – يعنى سرعة نجدة الملهوف – فإن لك أجلا لا يعدوك وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا فبذلك يتم سؤددك». ويبدو أن ذا الإصبع العَدوانى لم يجد هذه المقطوعة النثرية كافية فأنشد ابنه «أسيد» هذا الشعر الذى يفيض حكمة حيث يقول:

أأسيد إن مالا ملكت فسر به سيرًا جميـــلاَ
آخ الكرام إن استطعت إلى إخائهمُ سَبيـــلاَ
وأشرب بكأسهم وإن شربوا به السمَّ الثميلاَ
أهن اللئام ولا تكنْ لإخائنهم جملاً ذلُـــولاَ
إن الكرام إذا تُواخيهم وجدت لهمْ فُضُـــولاَ
ودع الذى يعدُ العشيرة أن يسيل ولن يسيلاَ
أبُنىَّ إن المال لا يبكى إذا فقدَ البخيـــــلاَ

ويروى صاحبُ «الأغانى» أن ذا الإصبع كان له أربع بنات وقد بقين زمنًا بلا زاوج حتى اشتكين فزوجهن ذو الإصبع من خيرة الرجال. وقد خرج الشاعر مرة على غرة فوجد بناته يتنادين قائلات: تعالين نتمنى ولنصدق فقالت الكبرى:

ألا ليتَ زوجى من أناس ذوى غنًى حديثُ الشباب طيبُ الريح والعطرِ
طبيـبٌ بـأدواء النســاء كـأنــه خليفةُ جـانٍ لا ينـام علـى وتْـرِ

فقلن أخواتُها لها: أنت تحبين رجلا ليس من قومك، فقالت الثانية:

ألا هـل أراهـا ليلـةً وضجيعهـا أشمُّ كنصلِ السيـفِ غيـرُ مبلـَّدِ
لصـوقٌ بأكبـاد النســاء وأصلــه إذا ما انتمى من سر أهلى ومحتـدى

فقلن لها: أنت تحبين رجلا من قومك، فقالت الثالثة:

ألا ليتــه يمـلا الجفــان لضيفــه له جفنة يشفى بها النيب والجـزر
له حكمات الدهر من غيـر كبـرة تشين ولا الفانى ولا الضرع الغمـر

فقلن لها: أنت تحبين رجلا شريفا، وقلن للصغرى: تمنى فقالت: ما أريد شيئا فقلن: والله لا تبرحين حتى نعلم ما فى نفسك، فقالت: زوج من عود خير من قعود. فلما سمع ذلك أبوهن زوجهن. والقصيدة التى بين أيدينا من عيون تراثنا فى العتاب والحكمة وهى تصور فضائل الفطرة العربية فى العصر الجاهلى، حيث فرضت التقاليد نمطا للحياة تلعب فيه القوة والغلبة دورا أساسيا فى الوجود وفى بناء هيكل العلاقات الإنسانية بين الإنسان الفرد والآخر، سواء كان فردا أو قبيلة، كما تحكم هذه التقاليد بسطوتها وجبروتها الصراع والعواطف الإنسانية ونظرة الإنسان فى معاملاته وتطلعاته وأشواقه. والشاعر يبدأ قصيدته بالأسى والحسرة والتوجع، وكأنه يطلب من يعينه على ما فى قلبه من هم شديد. وتبدو سطوة التقاليد الشعرية واضحة حين يفتتح الشاعر قصيدته التى هى أقرب إلى العتاب بهذا الغزل الذى لا محل له، «فريًا» التى يشير إليها الشاعر هى نموذج شعرى. أى إنها امرأة شعرية فى المقام الأول، هذه المرأة تأتى فى مفتتح القصائد لتقليد درج عليه الشعراء سواء أكانت هناك امرأة فى حياتهم أم لم يكن لديهم سوى آلامهم وأوجاعهم. ربما كانت الإشارة العاطفية هنا رمزية فى المقام الأول وكأنه وهو يتحدث عن حبيبته الراحلة إنما يذكر عهود الصفاء التى ولت والتى يفتقدها حيث كان الشمل مجتمعا والمودة ترخى ظلالها على علاقاته الإنسانية، ومن هنا يمكن أن نقول إن هذا المفتتح يعد ترشيحا للموضوع وهو ذو طبيعة إنسانية، وما إن فرغ من الحديث عن اللين والشدة والقرب والبعد وغلظة الدهر بعد رخائه حتى اتجه مباشرة إلى موضوعه الذى يضنيه وهو علاقته بابن عمه المشئوم الذى رفض الصلح وتسبب فى تصفية قبيلة «عدوان» لبطونها باقتتال حاقد ولا معنى له سوى تحكم الجهل فى العلم والنعرة الفردية فى رحابة العقل. فهذا القريب يقع فى الخطأ والتصور حين يزين له عقله أنه فوق مرتبة الشاعر ذى الإصبع العدوانى من حيث الشرف والرفعة، وكان العرب يتفاضلون بالنسب والشجاعة والكرم والنجدة وكثرة العدد والغنى. ويبدو أن الشاعر كان يمر بمحنة فى حياته أثرت على مركزه الاجتماعى فى قبيلته حتى ظنه ابن عمه أقل منه منزلة بينما الشاعر بما له من فضل فى أهله يراه أدنى منه أيضا، وبعد أن يخرج من خطاب المجهول الغائب يتحدث إلى ابن عمه مباشرة متسائلا عن سر ظنه فى تفوقه عليه هل يفضله فى الحسب وهما ينتميان إلى الشجرة «العريقة» نفسها؟! أم هو دائن له فحق له أن يمن عليه حتى يستشعر بالخزى منه؟! هل يقوت عياله فى

المجاعة أم يدافع عنه ويحميه ويكفيه وقت الشدة؟! الاستفهام إنكارى يقصد به الشاعر رفض هذا الظن المتسلط على ابن عمه، ثم يستمر فى خطابه وهو أقرب ما يكون إلى اللامبالاة. فإن كان سبب الخصام جلب منفعة من عرض الدنيا فإن الشاعر يستخف بكل شىء وربما كان الخصم قد طمع فى زعامة قومه وفرض سيادته عليهم بعد أن وجد ذا الإصبع غارقا فى المحنة. وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى لون من التهديد إذن بريتك وهو يعنى قطعتك قطيعة لا صلح بعدها لأن البرى: تقويم الشىء بالنحت بآلة حادة كالسكين، وهذا بيت فريد فى القصيدة لا يعبر عن أخلاق الجاهلية بل يعبر عن نفس كبيرة حقا:

إن الذى يقبـض الدنيـا ويبسطهـا إن كان أغناك عنى سوف يغنينـى

ثم يتبع هذا البيت بذروة شعرية رائعة توشك أن تصير مثلا حين يقول:

اللهُ يعلـمُنـى واللهُ يعلـمكـمْ واللهُ يجزيكُم عنـى ويجـزِينِـى

وهذا البيت يعبر عن روح دينية كامنة فى نفس ذى الإصبع العدوانى، ويبدو أن هذه القصيدة قيلت فى مرحلة متأخرة من العمر حيث تميل النفس إلى التسليم لله. وانتقل مرة أخرى إلى مخاطب مجهول حين يقول:

ولى ابن عم لو ان الناس فى كبـدى لظل محتجزا بالنبـل يـرمينـى

ويعنى الشاعر أن هذا القريب لو وجد الناس تعادى الشاعر وتسعى فى الكيد له وإلحاق الأذى به فسيشمر وينضم إليهم فى ضربه بالنبل وهو ما يخالف الأعراف القبلية حيث كان الأجدر به أن يسرع لنجدته وحمايته من أعدائه. ويصل الشاعر لذروة شعرية أخرى بالغة الحكمة حين يقول:

كل امرئ صـائـر يومـا لشيمتـه وإن تخلق أخـلاقـا إلـى حيـن

ولا شك أن هذه المعركة التى يديرها الشاعر بينه وبين ابن عمه وتفصح عن خصال الخصمين وموقفهما وصفاتهما لابد أن تقود الشاعر إلى لون من الفخر بنفسه مما يدل على أن الشاعر كان فى موقف الدفاع عن نفسه، وهكذا نرى أن الفخر لا يظهر فى كثير من الأحيان إلا مرتبطا بالأزمة والشدة، وكأن الشاعر فى حاجة إلى لون من العون المعنوى باستدعاء تاريخه وأمجاده من مكامنها فى دهاليز الذكريات فهو يشير إلى كرمه، فبابه

مفتوح لقاصده من الأصدقاء وهو لا يمن على أحد غيره ولا يشتم أحدا فلسانه عفيف لا يفحش ولا يسف فى القول، وهو شجاع غير مأمون الفتك كما أنه شديد الاعتزاز بنفسه فهو يجازى الشدة بالشدة ولا يلين إلا لهؤلاء الأصفياء من الخلان الذين يطلبون مودته ويتقربون منه. أما الشدة فلا تستثير فيه سوى الغضب. ثم بدأ بعد الفخر بنفسه يعود إلى مرحلة متصلة عضويا بهذا الموقف النفسى ألا وهى مرحلة الزراية والاستخفاف بالخصم بل هو سخر أشد السخرية منهم فهو قد طلب إليهم أن يواجهوه فهو لا يخشاهم ثم عاد بعد السخرية إلى الفخر من جديد:

فإن علمتم سبيل الرشد فانطلقوا وإن جهلتم طريق الرشد فأتونى

وهو يقترب من الإذلال والمن عليهم:

وكنت أعطيكم مالى وأمنحكم ودِّى على مثبت فى الصدر مكنون

ثم يعود إلى الفخر بنفسه وقوته إلى أن يختتم القصيدة بلون من الدعوة الخفية إلى العدول عن هذا الخصام ولكنه لا يشير إلى ذلك صراحة:

يا عمرو لو لنت لى ألفيتنى يَسَرًا سمحا كريما أجازى من يجازينى

إن الشاعر يلجأ فى هذه القصيدة إلى صياغة عصره كله بتقاليده ولكنه يضيف إلى رؤية هذا العصر بعدا عقلانيا يستخدم من خلاله المنطق وقوة الحجة والإقناع الذى يتوسل بالمقاييس المتعارف عليها، وهو لا يسف فى هجاء بل يبدو حكيما كيّسا عاقلا سمحا أقرب ما يكون إلى الدعوة إلى الصلح والخير والسلام والتسليم لله بكل شىء.

* * *

غزلية

لعروة بن حزام

خَلِيلَيَّ من عليا هلال بن عامر ... بصنعاء عوجا اليوم وانتظراني
ولا تزهدا فى الأجر عندى وأجملا ... فإنكما بى اليوم مبتليان
ألم تعلما أن ليس بالمرح كلّه ... أخ وصديق صالح فذراني
أفى كل يوم أنت رام بلادها ... بعينين إنساناهما غرقان
ألا فاحملانى بارك الله فيكما ... إلى حاضر الروحاء ثم دعانى
على جسرة الأصلاب ناجية السرى ... تقطع عرض البيد بالوخذان
إلمّا على عفراء إنكما غدا ... بشحط النوى والبين مفترقان
فيا واشيى عفراء ويحكما بمن ... وما وإلى من جئتما تشيان
بمن لو أراه غائبا لفديته ... ومن لو رآنى غائبا لفدانى
فيا واشيى عفرا دعانى ونظرة ... تقر بها عيناى ثم زمانى
أغركما منى قميص لبسته ... جديدا وبردا يمنة زهيانِى
متى تكشفا عنى القميص تبيَّنا ... بى الضر من عفراء يا فَتَيانِ
إذًا تريا لحما قليلا وأعظما ... بلين وقلبا دائم الرجفان
على كبدى من حب عفراء قرحة ... وعيناى من وجد بها تَكِفَانِ
فعفراء أرجى الناس عندى مودة ... وعفراء عنى المعرض المتوانى
أحب ابنةَ العذرى حبًا وإن نأت ... ودانيتُ فيها غير ما متدانِ
إذا رام قلبى هجرها حال دونه ... شفيعان من قلبى لها جَدِلاَنِ
إذا قلتُ لا قالا: بلى ثم أصجعا ... جميعا على الرأى الذى يريانِ
فيارب أنت المستعان على الذى ... تحملت من عفراء منذ زمانِ
فياليت كلَّ اثنين بينهما هوى ... من الناس والأنعام يلتقيان
فيقضى حبيبٌ من حبيبٍ لبانة ... ويرعاهما ربى فلا يُريانِ
فياليتَ محيانَا جميعًا وليتنا ... إذا نحن متنا ضمنا كَفَنَانِ

وياليت أنَّا الدهرَ فى غير ريبةٍ ... خليانِ نرعى البهم مؤتلفانِ
هواى أمامى ليس خلفى معرج ... وشوقٌ قلوصى فى الغَدُوِّ يمانِى
تحملت من عفراء ما ليس لى به ... ولا للجبال الراسيات يدانِ
كأن قطاة علقت بجناحها ... على كبدى من شدة الخفقانِ
جعلت لعراف اليمامةُ حكمةً ... وعراف حَجْرٍ إن هما شَفَيَانِى
فقالا نعم نشفى من الداء كله ... وقامًا مع العُوَّادِ يبتدرانِ
نعم وبلى قالا متى كنت هكذا ... ليستخبرانِى قلتُ منذ زمانِ
فما تركا من رُقية يعلمانا ... ولا سلوة إلا وقدْ سقيانِى
فما شفا الداء الذى بى كلَّه ... ولا ادخرا نصحا ولا لويانِى
فقالا شفاك الله والله مالنا ... بما حملت منك الضلوع يدانِ
فرحتُ من العراف تسقطُ عمتى ... عن الرأس ما تستوى ببنان
معى صاحبا صدق إذا ملت ميلة ... وكانا بجنبى سرعة عَدَلانِى
فياعم ياذا الغَدْرِ لازلت مبتلىً ... حليفا لهم لازم وهوان
غدرت وكان الغدْر منك سجية ... فألزمت قلبى دائم الخفقانِ
وأورثتنى غما وكربًا وحسرةً ... وأورثت عينى دائم الهملانِ
فلا زلت ذا شوق إلى من هويته ... وقلبك مقسوم بكل مكانِ
وإنى لأهوى الحشر إذ قيل إننى ... وعفراء يوم الحشر ملتقيانِ
ألا يا غرابى دمنة الدار بيِّنا ... أبا الهجر من عفراء تنتحبان
فإن كان حقا ما تقولان فاذهبا ... بحلمى إلى وكريكما فكلانِى
كُلانىَ أكلا لم ير الناسُ مثله ... ولا تهضما جنبًى وازدردانى
ولا يعلمنَّ الناس ما كان قصتى ... ولا يأكلنَّ الطير ما تذرانِ
ألا لعن الله الوشاة وقولهم ... فلانةُ أضحت خُلة لفلانِ
إذا ما جلسنا مجلسا نستلذه ... تواشوا بنا حتى أملَّ مكانِى
تَلنّفنى الواشون من كل جانب ... ولو كان واشٍ واحد لكفانِى
ولو كان واش باليمامة أرضه ... أحاذره من شؤمه لأتأنى
يكلفنى عمى ثمانين ناقة ... ومالى والرحمن غيرُ ثمانِ

فو الله ما حدَّثت سرك صاحبا ... أخا لى ولا فاهت به الشفتانِ
سوى أننى قد قلت يوما لصاحبي ... ضحى وقلوصانا بنا تخدانِ
ضَحَيْنا ومسَّتْنا جنوب ضعيفةٌ ... نسيم لريَّاها بنا خفقانِ
تحملت زفراتِ الضحى فأطقتُها ... ومالى بزفرات العشيِّ يدانِ
فياعم لا سُقِّيتَ من ذِى قرابة ... بلالا فقد زلت بك القدمانِ
ومنيتنى عفراء حتى رجوتا ... وشاع الذى منَّيتَ كلَّ مكانِ
فو الله لولا حب عفراء ما التقى ... علىَّ رواقا بيتكِ الخلقانِ
رواقان خفاقان لا خير فيهما ... إذا هبت الأرواح يصطفقانِ
ولم أتبع الأظعان فى رونق الضحى ... ورحلى على نهاضة الخديانِ
لعفراء إذ فى الدهر والناس غرة ... إذا خلفانى بالصىِّ يرانى
لأدنو من بيضاء خفاقة الحشى ... بنية ذى قارورة شنآنِ
كأن وشاحيها إذا ما ارتدتهما ... وقامت عِنانَا مهرة سلسانِ
وليس بأبدانٍ لها ملتقاهما ... ومتناهما رخوان يضطربانِ
وتحتيهما حقفان قد ضربتهما ... قطار من الجوزاء ملتبدانِ
أعفراء كم من زفرة قد أذقتنِى ... وحزن ألحَّ العينَ بالهملانِ
وعيناى ما وافيت نشزا فتنظرا ... بمأقيهما إلا هما تكفانِ
فهل حاديا عفراء إن خفت فوتها ... علىّ إذا ناديت مرعويانِ
ضروبان للتالى القطوف إذا ولى ... بسيحان من يعصى به حذران
فيالكما من حاديين رميتما ... بحمى وطاعون ألا تقفانِ
فويلى على عفراء ويلا كأنه ... على الكِبْدِ والأحشاء حدُّ سِنانِ
ألا حبذا من حب عفراء ملتقى ... نعم وإلا لا حيثُ يلتقيانِ
لو ان أشدَّ الناس وجدا ومثله ... من الجن بعد الإنس يلتقيانِ
ويشتكيان الوجد ثم وأشتكى ... لأضعف وجدى فوق ما يجدانِ
فقد تركتنى ما أعى لمحدث ... حديثا وإن ناجيته ونجانى
وقد تركت عفراء قلبى كأنه ... جناح غراب دائم الخفقانِ

* * *

لكل شاعر من شعراء الغزل الكبار قصيدته الكبرى التى ضمنها تجربة حبه كاملة، وربما اشتملت على حياته بأسرها. نجد لقيس بن الملوح قصيدته المؤنسة ونجد لكثير تائيته الشهيرة ولجميل لاميته البديعة ولقيس بن ذريح عينيته الرائعة وللصمة القشيرى داليته كذلك لعروة بن حزام درته النونية التى نحن بصددها. أما نسب هذا الشاعر صاحب القصيدة فيأتى فى كتاب الأغانى للأصفهانى حيث يورد طرفا من حياته ومعاناته هو: عروة بن حزام بن مهاجر أحد بنى حزام بن ضبة بن عبد كبير بن عذرة، شاعر إسلامى اشتهر بعشقه لعفراء ابنه عمه عقال بن مهاجر. عرف الشاعر مرارة اليتم فى صغره بعد أن مات أبوه «حزام» وترك أمره لعمه الذى رباه فى كنف الحرمان والألم، ولم يكن له من عزاء سوى كلفه الشديد بابنة عمه عفراء حيث نشآ معا يكبران كما يلعبان ويستشرفان غدا مجهولا وكان عمه يشفق عليه ويرى ولعه بابنته فطمأنه بأنها ستكون زوجة له. شب عروة محتشدا بالأمل فى الاقتران بعفراء. غير أن زوجة عمه كان لها رأى آخر. فبعد أن اشتد الوجد بعروة ذهب إلى عمته وطلب منها أن تتوسط لدى عمه فى خطبة ابنته إليه كما وعده فى الصبا، وقبل العم وساطة أخته وقال لها عن عروة: ما عنه مذهب ولا هو دون رجل يرغب فيه ولا بناعنه رغبة ولكنه ليس بذى مال وليست عليه عجلة. وما أن رأت زوجة عمه موافقة زوجها على زواج عروة من عفراء حتى استبد بها لغيظ وكانت تتحمل إقامة عروة فى بيتها علىمضض. رأت فيه شابا فقيرا يتيما من أين له بالمهر والنفقة، ويبدو كذلك أن شاعريته التى ملأت حياته قد صرفته عن السعى فى الأرض وبدأت أم عفراء عملها فطلبت مهرا كبيرا فى ابنتها فشكا عروة إلى عمه فقال له: يا بنى أنت معدم. وحالنا قريبة من حالك ولست مخرجها إلى سواك، وأمها قد أبت أن تزوجها إلا بمهر غال فاضطرب واسترزق الله تعالى. وعرف عروة أن المال وحده هو «القريب الذى ينفع صاحبه» فذهب إلى عفراء فاستوثق منها وسامرها طويلا وتزود للطريق وودعها ورحل إلى الشام يطلب المهر الذى يقف حجر عثره بينه وبين عفراء. وأثناء رحلته ظهر رجل ميسور الحال ممن يمتون بالصلة إلى بنى أمية، وكان على جانب كبير من الثراء والكرم فذاع صيته وتكالبت عليه عروض الزواج ولكنه اختار عفراء فذهب إلى أبيها ولكن أباها رده متذكرا وعده الذى قطعه على نفسه لابن أخيه عروة فلم ييأس الرجل وذهب إلى أم عفراء يطلب يد ابنتها فشنت حربا عائلية ضد زوجها وقالت: «أى خير فى عروة حتى تحبس ابنتى

عليه وقد جاءها الغنى يطرق عليها بابها، والله ما ندرى أعروة حى أم ميت؟ وهل ينقلب إليك بخير أم لا؟ فتكون قد حرمت ابنتك خيرا حاضرا ورزقا سنيا. ولم تزل بزوجها حتى أرغمته على قبول هذا الرجل زوجا لعفراء وليذهب عروة مع شعره إلى الموت أو الجنون. وما لبثت الاحتفالات أن أقيمت وتم الزفاف وقد غمر الرجل الثرى الكريم حى عفراء كله بالطعام والعطايا حتى رضى عنه الجميع، وتزوج عفراء وأقام عند أهلها أياما ثم اصطحبها ورحل بها إلى دياره فى بلاد الشام. وجاء عروة ويبدو أنه كان صفر اليدين فما كانت المدة التى قضاها مرتزقا بكافية لتدبير المهر. وفكر والد عفراء فى حيلة تصرف عروة عن عفراء فعمد إلى إنشاء مقبرة زعم أنها لعفراء وأنها ماتت حتى يسلو عنها عروة، ولكن هذا الزعم ما كان غير كذبة سوداء فى ضوء النهار فليس من المعقول أن زفافا مشهودا كزفافا عفراء إلى زوجها الشامى والذى عرف به الجميع من أهل الحى يمكن إنكاره أو إخفاؤه لمجرد أن عفراء رحلت مع زوجها. وتقول الروايات أن عروة ظل يتنسم ريح عفراء وحملته مواجده إلى بلادها القاصية حيث ظل قريبا من دارها حتى عرفت عفراء بأمره فاستضافته وزوجها، وكان هذا الزوج كريما نبيلا لا يرى خطرا فى شاعر هائم متهالك رث الثياب معدم فقير لا زاد له فى دنياه سوى شعره الذائع. وقد أيقن عروة أن عفراء لن تكون له إلى الأبد فرحل محزونا يكابد الغربة والوحدة والضياع فذهب إلى عراف اليمامة الذى كان أعجز من أن يداوى محبا على شفا الموت، ولم يلبث الشاعر أن لقى حتفه وهو هائم على وجهه وبلغ نبأ وفاته عفراء فبكته وقالت ترثيه:

ألا أيها الركب المخبون ويحكم بحق نعيتم عروة بن حـــزام؟؟
فلا تهنأ الفتيان بعـدك لـــذة ولا رجعوا مـن غيبـة بســلام

ولم تزل تردد مرثيتها فى حبيبها حتى لحقت به. كان ذلك فى زمن الخليفة الأموى «معاوية بن أبى سفيان»، ويبدو أن الركبان قد ساروا بقصتهما إلى ساحات المدن وقاعات الغناء، ويقال أن الخليفة معاوية حين سمع بخبر وفاتهما قال: «لو علمت بحال هذين الحرين الكريمين لجمعت بينهما». وقد طاف الرواة بقصة عروة وعفراء يحكمون بناء القصة، ويفتنون فى صياغة تفاصيلها واختراع بعض الأحداث لتكتسب القصة تأثيرها وجاذبيتها وذيوعها. هذا هو الشاعر عروة بن حزام الشاعر العاشق الذى قتله الحب، ولكن الشعر وحده قد أعاده إلى الحياة من خلال هذه الدرة الجميلة التى بين أيدينا.

يبدأ كعادة الشعراء البادية بخطاب صاحبيه فى مرتفعات بنى هلال بالقرب من صنعاء باليمن يناشدهما أن يميلا إليه للزيارة، وربما يطلب العون منهما والصبر عليه فهو قد «فرض عليهما» وابتليا به لأن عروة لا يعرف له أحدا سواهما يطلب منهما العون. ويبدو أن صاحبيه قد نصحاه بالإقلاع عما هو فيه من شدة البكاء والنظر الطويل إلى حيث تكون بلد عفراء. ومن الواضح أن هذا اللقاء قد تم خلال رحلة عروة إلى بلاد الشام سواء بعد علمه بزواجها وهو الأرجح لأن صاحبيه قادمان من الجنوب إلى الشمال فأغلب الظن أن هذه القصيدة قيلت بعد زواج عفراء من الرجل الذى أشرنا إليه فهو يطلب من صاحبيه أن يحملاه على ناقة قوية ويذهبا له إلى بلاد عفراء. وعروة فى القصيدة يبدو مشتت الخاطر موزع القلب، فهو يقفز بين أبياته من اللوم إلى المناشدة إلى الشكوى. إنه يكتب حياته شعرا وربما كانت أجمل أبيات القصيدة تلك التى يكرسها للحديث عن حبه لعفراء والتى تبدأ بقوله: «على كبدى من حب عفراء قرحة» فهو يصف قوة هذا الحب وما تكبده بسببه حتى يلجأ إلى الله قائلا: «فيارب أنت المستعان على الذى تحملت من عفراء منذ زمان» ويصل الشاعر إلى بيت حقيقة قلب المحب الذى يتمنى الهناء لكل من يحب حتى ولو كان من غير بنى البشر.

فياليت كل اثنين بينهما هوى من الناس والأنعـام يلتقيـان

هذا البيت يمثل ذروة فنية وإنسانية فى قصيدة عروة حيث يشف إحساسه فيرى المحبين جميعا سواء فى عالم الإنسان أو عالم الحيوان.

ومن الطبيعى أن تقوده المعاناة إلى الضعف والمرض ثم الطبيب. يظهر فى القصيدة عراف اليمامة أو طبيبها المعروف. وعراف نجد كذلك فهما طبيبان لهما حكمة وشهرة فى مداواة المرضى، ويبدأ حوار مفعم بالأسى واليأس. لقد وعداه بالقدرة على شفائه مما ألم به من الداء ويبدو أنهما لم يكونا على علم بدائه حين قالا: «نعم نشفى من الداء كله» وبدآ علاجهما بالرقى والتعاويذ وما يعرفانه من الداء. ويقر الشاعر أنهما لم يقصرا لا فى علاجه ولا فى نصحه ولكن داءه كان عضالا فلم يفلحا معه حتى اعترافا فى النهاية بفشلهما «فقالا: شفاك الله والله مالنا.. بما حملت منك الضلوع يدان» وكان لهذا الاعتراف وقع الصدمة فى نفسه عبر عنه بسقوط العمامة عن رأسه وخرج مستندا إلى ذراعى صديقيه

المحزونين. وخرج لا يعى سوى حبه لعفراء وقد اختلط عقله حتى ظن أن الغربان تنتحب من أجل عفراء وهو يطلب منهما أن يأكلاه فى وكرهما. ويبدو أن الوشاة قد لعبوا دورا قاسيا فى هذا الحب فهو يلوم الوشاة ويذمهم ويلعنهم وهم كثيرون يحيطون به، ولا شك أن اضطراب حياة عروة كانت وراء الظن بأن الجميع يكيدون له. وقد وجه الشاعر سهامه النافذه إلى عمه الذى لم يقدر على الحفاظ على العهد الذى قطعه لعروة. وما إن ينتهى من ذم عمه حتى يعود إلى تصوير حبه ومعاناته. وكأن الحب فى القصيدة هو العصب الصلب الذى يجمع حوله وقائع الحياة كلها. إنه قطب الرحى فى حياة تتسم بالعذاب والحرمان والوحشة والضعف. فكأن عفراء هدف الحياة كلها ولا شاغل له عنها وتصل القصيدة إلى ختامها وقد روعنا عروة بما صار إليه من اضطراب وذهول.

فقد تركتنى ما أعى لمحدث حديثا وإن ناجيته ونجانى
وقد تركت عفراء قلبى كأنه جناح غراب دائم الخفقان

إن هذه القصيدة مثل كل قصائد شعراء الحب العذرى تركز فى جوهرها على تصوير حال العاشق أكثر مما تصف المعشوق، وإن كان عروة قد أشار فى لمحة إلى جمال محبوبته وتكوينها الجسدى الذى يجمع بين القوة والجمال حين يقول:

لأدنو من بيضاء خفاقة الحشى بنية ذى قارورة شنآن
كأن وشاحيها إذا ما ارتدتهما وقامت عنانا مهرة سلسان
وليس بأبدان لها ملتقاهما ومتناهما رخوان يضطربان
وتحتيهما حقفان قد ضربتهما قطار من الجوزاء ملتبدان

هو يصف عفراء وجمال جسدها كما يصف مهرة أصيلة. وانتساب الشاعر إلى قبيلة عذرة يوضح موقفه من الحب الذى كان سمة من سمات العذريين، وهو الحب الوجدانى الذى يصور ما فى داخل النفس أكثر مما يلتفت إلى الواقع الخارجى، هى قصيدة تفعم النفس والقلب بالمتعة والعذاب كما جسدت هى حياة هذا الشاعر العاشق عروة بن حزام.

فهرس

الموضوع — الصفحة

مدخل ..... (٣)

واحر قلباه – أبو الطيب المتنبى ..... (٦)

رثاء الجدة – أبو الطيب المتنبى ..... (١٤)

مرثية أحسن بالواجد من وجده – أبو العلاء المعرى ..... (٢٢)

لقد أنصبتنى أم قيس – كعب بن سعد الغنوى ..... (٣٠)

شاعر يرثى نفسه – مالك بن الريب التميمى ..... (٣٨)

المؤنسة – قيس بن الملوح – مجنون ليلى ..... (٤٦)

غزليات – الأحوص ..... (٥٤)

غزليات – عمر بن أبى ربيعة ..... (٦٢)

فى الحب – العباس بن الأحنف ..... (٧٠)

ته دلالا فأنت أهل لذاكا – عمر بن الفارض ..... (٧٦)

غزليات – حبيب بن أوس الطائى «أبو تمام» ..... (٨٥)

لامية العجم – أبو إسماعيل مؤيد الدين الحسين بن على «الطغرائى» ..... (٩٣)

أبو الهول – أحمد شوقى ..... (١٠٢)

الخريف – إبراهيم ناجى ..... (١١١)

فى الغربة – محمود سامى البارودى ..... (١٢٣)

فى مواساة صديق – الشريف الرضى ..... (١٣٢)
فى العتاب والحكمة – ذو الإصبع العدوانى ..... (١٣٩)
غزلية – عروة بن حزام ..... (١٤٥)